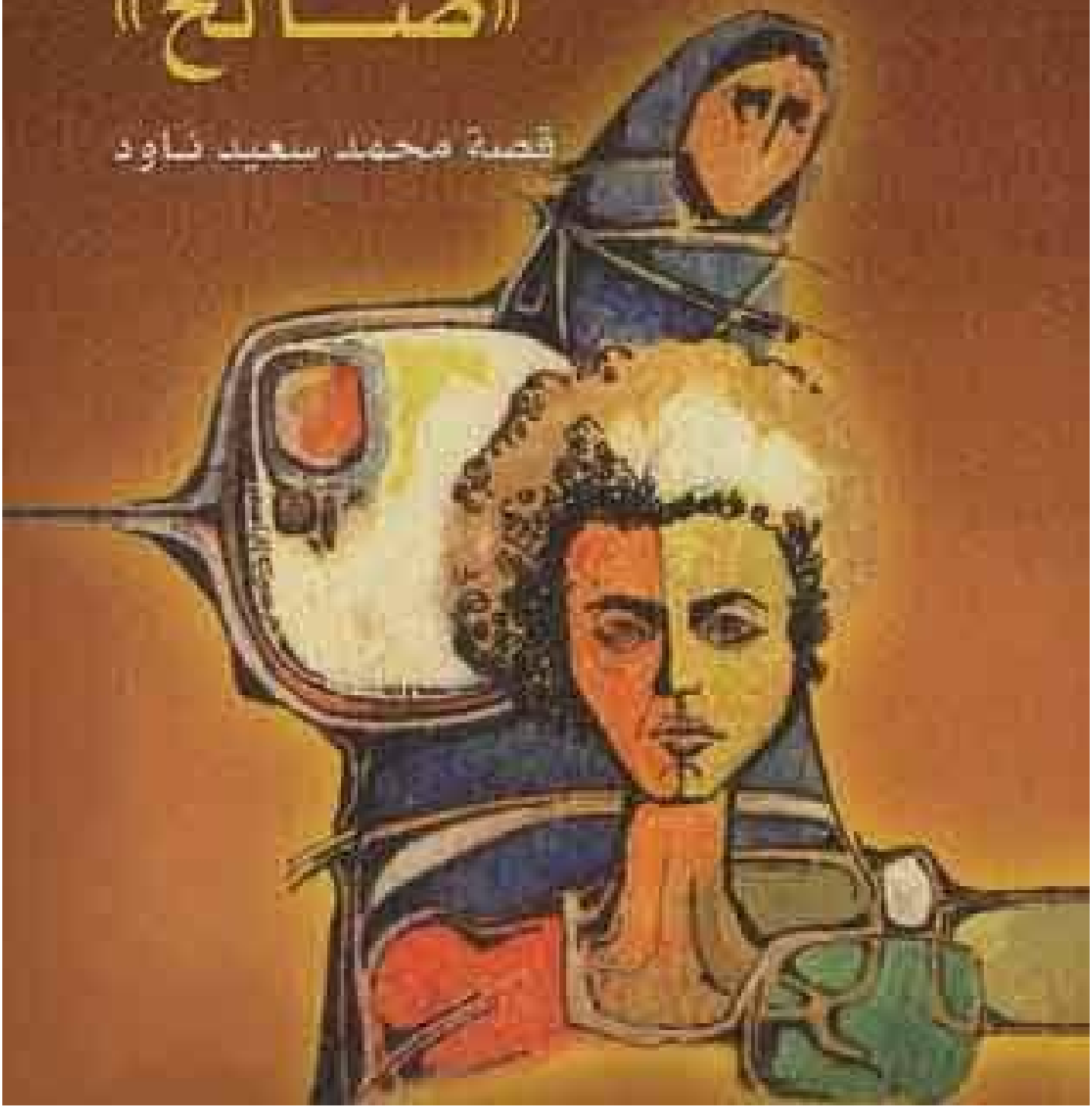
من الأدب الثوري الأرتري

رحلة الشتاء

«صالح»

قصة محمد سعيد ناود



مقدمة

« رحلة الشتاء » هي اول محاولة في الادب الثوري الارتري ، وارتريا التي نعرفها من خلال ثورة شعبها لم نعرف شيئا عن ادبها، فالاعمال الادبية الارترية اقل من اصابع اليد ، والشعب الارتري الذي فرض عليه الاستعمار الحرب وحرمه الاستقرار لم يجد ابناؤه الفرصة الكافية للابداع والخلق في مجال الرواية والمسرحية والشعر ٠

« رحلة الشتاء » اول اسهام ارتري في مجال الرواية نقدمها للقارىء العربي ، والكاتب وهو احد ابناء الثورة وواحد من قادتها، اعتمد الاسلوب المبسط ليصور الانسان الارتري في الريف ، الانسان في حياته البسيطة وافراحه البسيطة وحاجاته الاكثر بساطة ، الى ان يدخل الاستعمار الاوروبي وتدخل معه الحرب التي تشوه هذه البساطة وتعقد حياة الانسان وتجلب له المرارة ويبدأ معاناة من نوع جديد اذ ان للحرب تقاليدها الغريبة ٠ و « صالح » بطل الرواية الفتى يتأثر جدا بهذه الحرب لانها حرمته اللعب مع اولاد القرية وتسلق الاشجار وقطعة السكر التي كان والده يدسها في يده مرتين في اليوم تعبيرا عن اعتزازه به ، لذلك يبدأ « صالح » حربه ضد الاستعمار بأن يتوزع هو ورفاقه الصغار في فريقين يتراشقان بالحجارة والخاسر في كل مرة يكون الاستعمار حسب الاتفاق ، وعندما يكبر « صالح » يدرك بأن هذا الوافد الغريب جاء ليبقى وليسلب كل شيء وان محاربته تتطلب جدية من نوع خطير ، وهكذا يبدأ صالح رحلة البحث عن الذات من خلال الثورة ٠

« رحلة الشتاء » تحكي حقبة من حياة الشعب الارتري ، وهي تجمع وبنجاح بين خصائص السرد الروائي والسيرة الذاتية ، فالكاتب يصور المشاعر بحقيقتها الانسانية الكاملة ، ويعكس حياة الانسان في الريف وطيبته في التعامل مع الاشياء المعتادة والاشياء الغريبة ، ويتعامل مع احداث التأريخ بدقة دون ان يؤثر ذلك على البناء الفني للرواية ، ونحن نترك للقارىء الابحار مع « رحلة الشتاء » ليتعرف على ما لم نقله في هذه المقدمة السريعة ٠

« ٠ ٠ ٠ »

اسمي صالح لا تسألني عن الحسب والنسب والجاه ، فهذه سمات ليس لها وجود في قاموسنا • أنحدر من أسرة فقيرة تحترف الزراعة شتاء والرعي صيفا ، مارس أجدادي وأجداد أجدادي ووالدي رحلة الشتاء والصيف دون انقطاع • الثروة والممتلكات ورأس المال ، كل ذلك لم يكن معروفا في مجتمعنا ، ثروتنا الوحيدة كانت الأرض التي نحرثها وتعطينا محصولا من القمح والشعير وهو قوتنا طوال العام • وعندما يأتي العام الزراعي الجديد لا يتبقى مخزونا لدينا سوى التيراب الذي نستعمله للبذار للموسم الجديد • وبجانب الأرض كانت الماشية التي تعطينا اللبن والسمن واللحم في الحالات النادرةوعندما تشرف على الموت لأي سبب نقوم بذبحها وهي في النزع الأخير ثم نأكل لحمها كما أننا كنا نستفيد من جلودها ليس للبيع ولكن لاستعمالنا الخاص ، فمن الجلود نصنع قرب المياه أي ما نطلق عليه (الحرب) ، ومنها نصنع ما يعرف اليوم بالسجاد حيث نفترشها وننام عليها سواء كان على الأرض أو فوق الأسرة الخشبية ولا نقوم ببيع الماشية الا مرة واحدة في العام عندما تضطر الأسرة لبيع ثور وتشتري بثمنه ملابس للعائلة بكاملها • أما مساكننا فتصنع من البروش •• ننصبها خلال دقائق ، وعند الرحيل نجمعها خلال دقائق ، ونحملها فوق الجمال ويكون المنزل بكامله على رأس جمل واحد • وما يعرف اليوم بالأثاث المنزلي لم يكن معروفا

لدينا • فحجر الرحى للطحن ، وآنية من الفخار لصنع العصيدة • أما ما نضع عليه العصيدة أثناء الأكل فهو صحن كبير نصنعه محليا من جذوع الأشجار • واللبن يتم حلبه وشربه من اناء تصنعه نساء القرية من فروع أشجار الدوم • والقهوة يتم صنعها في اناء فخاري يسمى (الجبنه) • والشيء الوحيد من أدوات المنزل الذي يصنع خارج القرية ويتم شراؤه فهو فنجان القهوة المصنوع من الصيني •

حياة بسيطة والكل سعيد وقانع • وكلمة أسرة فقيرة التي وردت على لساني في بداية الحديث لم أكن أعرفها أو أشعر بها عند الصغر ، عندما كنت واحدا من مجتمع القرية ، ولكني ولمرة واحدة ، أعتقد أنني شعرت بالفقر ، كان ذلك اثر مشاجرة جرت بين والدي ووالدتي • كنت في حوالي السابعة من عمري ، وكنت جالسا أمام المنزل ، بدأ الحديث خافتا بين الوالد والوالدة ، وكان يدور حول الثوب الذي طلبته والدتي وعجز والدي عن احضاره ، وتطور الحديث ، وارتفعت الأصوات ، وانتهى بالضرب لوالدتي المسكينة التي أصبحت تجهش بالبكاء ، وهنا شعرت بتعاسة لم أنسها وشاركتها في البكاء ، فقامت واحتضنتني ووضعتني في حجرها ومسحت دموعي ودموعها ، وعندئذ كففت عن البكاء ، وبخيال طفل بدأت أفكر في كيفية ارضائها واحضار الثوب لها • قررت أن أسرق الثور الذي نستعمله للحراثة وأقوم ببيعه وأشتري ثوبا لوالدتي • وفكرت أن والدتي تستحق أكثر من ثوب لارضائها ، لا أعرف ماذا يعجبها • اذن لأشتري لها ثوبا ثانيا • وعندما قمت من مكاني وهممت بتنفيذ العملية تذكرت أنني لا أعرف أين تباع المواشي ، كما أنني لا أستطيع أن أبتعد عن القرية كثيرا خاصة اذا حل الظلام فهناك الذئب الذي لا يرحم من يجده وحيدا • عندئذ اقتنعت باستحالة تنفيذ هذه الخطة • وقلت في نفسي أنني حتما سأنفذ هذه العملية عندما أصبح كبيرا لأنني سأعرف أين تباع المواشي وأذهب الى هناك دون خوف من الذئب مثل شبان ورجال القرية الذين يذهبون

لوحدهم ثم يعودون سالمين • ولكن الآن ماذا أفعل لارضاء والدتي ؟ تذكرت بسرعة ان والدتي كانت تشكو في الصباح بأنها لا تشعر بلذة طعم القهوة لأنها لم تجد قليلا من الفلفل الأسود لتضعه فيها • وهنا تحركت وبحركة لا شعورية وجدت نفسي أقف أمام أحد منازل الجيران ، فسألتني ربة الدار :

ـ ماذا تريد ؟

ـ والدتي تقول لك أعطني قليلا من الفلفل •

فقامت السيدة وأعطتني حوالي خمس حبات من الفلفل الأسود ، وانطلقت من فوري الى المنزل ووضعت الفلفل في يد والدتي ، وقلت لها : الآن يمكن أن تتذوقي طعم القهوة ، وحكيت لها كيف أحضرته وأخبرتها بأنني عندما أبلغ سن الرشد سأقوم بسرقة الثور وبيعه وشراء الثوب لها • فقامت من مكانها وحضنتني ثم طبعت قبلة حارة على خدي الأيمن والأيسر وظهر السرور على محياها • عندئذ فقط عادت الطمأنينة الى نفسي ، وقمت جاريا لألتحق بأقراني من أطفال القرية لنمارس ألعابنا المفضلة ، يومها شعرت بأنني أديت عملا عظيما •

كان هذا هو الحادث الوحيد الذي أشعرني بالفخر ، أما ما عدا ذلك فقد كانت الأحوال على ما يرام • كنا نتناول وجبتين من الطعام يوميا ، الأولى ظهرا والثانية مساء • وكانت الوجبة تتكون من العصيده باللبن أو السمن اذا وجد ، وعلى مدار السنة لا تتغير وجبة العصيده • أما التطبيب والعقاقير الطبية والحقن فهده مسائل لم نكن نعرفها أو نسمع بها ، ففي حالات المرض هناك (فكي) القرية الذي يفتح كتابه الديني ليكتشف أن المريض قد أصيب بنظرة من حسود أو يكون قد سار على آثار إحدى الجنيات • وهنا يحرق له « البخرات » أو يلمس رأسه ويتلو عليه بعض الآيات القرآنية • وهناك حالات لا تستدعي الذهاب لطبيب القرية (الفكي) بل تكفي جمرة من النار للكي ، أو الحجامه ، أما

(الظار) فهو حالة مرضية متطورة وغالبا ما يصيب النساء ، ولا تنفع في علاجه الوسائل التقليدية ، بل له شروطه المكلفة • ومرض (الظار) هو الأرواح الشريرة التي تسكن المريض ولن تخرج الا اذا أقيمت لها الطقوس المطلوبة • وهناك المتخصصون والمتخصصات في علاجه والذين يتقاضون مبلغا من المال بالاضافة للحوائج التي يحددونها ، فتقام الحفلات ، وتدق الطبول وتذبح المواشي وتتم الرقصات الصاخبة العنيفة مع شرب دماء الذبيحة • وعندما تصل المريضة الى حالة عالية من التجلي ووسط دقات الطبول والرقصات العنيفة فهنا تبدأ بالحديث نيابة عن الشيطان الذي يسكن بداخلها ، وتتحدث عن الشروط وهي مطالب مادية، فتتم الاستجابة لهذه المطالب وتقتنع المريضة بأنها شفيت تماما •

كانت قريتي راضية قانعة بما هي فيه ، فنحن معشر الصغار لم تكن لدينا مطالب أو احتياجات • لم نكن في حاجة لما يسمى اليوم لعب الأطفال •• كنا نذهب بالقرب من جداول المياه لنصنع بيوتا وأشكالا مختلفة من الطين • ونتسلق الأشجار ونمتطي ظهور الحمير التي نجدها بالقرب من القرية ونظل نتسابق بها الى أن يظهر أحد الرجال أو النساء فيقوم بزجرنا فننزل عنها ونولي هاربين ، ونظل نكرر هذا النوع من اللعب يوميا دون أن نمل ، وفي بعض الأحيان نتجمع ونبتعد عن القرية لندخل في مناقشات ومنازعات مع القرود ، فهناك نوع من ثمار الأشجار اللذيذة والتي نشترك نحن والقرود في البحث عنها والتلذذ بطعمها ، وغالبا ما تكتشفها القرود قبلنا بحكم أنها تبكر في البحث عنها ، وهنا تبدأ معركة بيننا وبينها ، وبعد كر وفر ننجح غالبا في طردها مستعملين الحجارة ، ثم نصعد الى الأشجار ونبدأ في التهام ما خلفته القرود من هذه الثمار اللذيذة •ونظل نكرر هذا النوع من اللعب يوميا دون أن نمل الى أن نبلغ السابعة من العمر ، لم نكن نرتدي شيئا بل نظل عرايا وحفاة • أما في سن السابعة فان ثلاثة أمتار من الدمورية أو الدبلان للميسورين تعتبر كافية لتكسونا عاما بكامله • والتعليم أيضا يبدأ في سن السابعة عندما يتم أخذ الطفل في هذه السن الى شيخ القرية الذي

يقوم بتعليمه أصول الصلاة وبعض الآيات القرآنية لاداء شعائر الصلاة. وعندما يتقن ذلك يكون قد تخرج وتم تأهيله ويبدأ في مزاولة الصلاة وبالتالي يكون قد انتقل من سن الطفولة الى الصبا .

أما أمهاتنا من نساء القرية فيشاركن في الكثير من الأعمال بجانب الرجل بالاضافة لكل الأعمال المنزلية ، فهن يشاركن في الزراعة والحصاد وجلب المياه والحطب ونصب منازل البروش ، وكذلك يقمن بصناعة الأواني الفخارية للاستعمال وصناعة البروش للاستعمال المنزلي . وبالرغم من هذا الجهد الكبير الذي تؤديه المرأة الا أن نصيبها من الضروريات يكاد أن يكون عدما . فما تناله من الملابس هو ثلاث قطع سنويا تتكون من (الطرحة) التي تغطي بها رأسها وثوبا ومعوزا تغطي به جزئها الأسفل . أما المصاغ فقطعة صغيرة من الذهب في أنفها (الزمام) وقطعة أخرى في أذنيها ، ولو ان الغالبية من النساء يضعن حليا من النحاس لعدم تمكنهن من اقتناء الذهب . ونادرا ما تكون هناك من تحظى بالخلخال (الحجل) وهي تكون معروفة لدى القرية بأكملها ويمكن أن نقول عليها من الأسر (البرجوازية) بمفهوم اليوم ، وتلك المحظوظة ، ذات الخلخال ، تراها تتهادى وتتبختر في مشيتها وتخرج رنة من خلخالها ، ولسان حالها يقول : وأما بنعمة ربك فحدث .. وعين الحسود فيها عود. ونساء القرية ينظرن اليها باعجاب مخلوط بالحسد .. وقد تصاب احداهن بمرض الظار لتملي شروطها على لسان الجن مطالبة بالخلخال وبمجموعة مصاغ من الذهب أيضا ، وقلما يتمكن زوجها من تلبية كل المطالب ولكنها ترضى بما يستطيع تنفيذه من تلك الشروط .

عندما أعود اليوم بذاكرتي الى الوراء ... الى أيام القرية وحياتها وأستعرض العلاقات التي كانت سائدة بها ، أحس بأن الانسان مهما كان مستواه الحضاري الا أنه قادر لتكييف أوضاعه وترتيب كل ظروفه بما يلائمه ، ووفق امكانياته المتاحة .

لم يكن بالقرية ما يعرف اليوم بنقاط البوليس أو رجال الأمن

والمحاكم ، وبالرغم من ذلك لم نسمع عن حدوث سرقات أو نهب أو اعتداء • فهناك التقاليد العريقة التي تحكم علاقات القرويين ، والكل يحترم هذه التقاليد ولا يستطيع الخروج عليها • واذا حدث خلاف بين شخص وآخر ، ينعقد مجلس القرية الذي يتكون عادة من الأعيان من كبار السن ، ثم يأتي الغريمان ويقوم كل منهما بتوضيح المشكلة من زاويته والمجلس بكامله يستمع اليهما • وبعد ذلك يبدأ المجلس بمناقشة القضية فردا فردا • وكلما تحدث أحد الحاضرين فالجميع ينصتون ويستمعون اليه باهتمام دون مقاطعة ، وكل منهم مطرق للارض ، ويرسم خطوطا واشارات على التراب بعصاه الرفيعة ، وكأنما يستعين بهذه الوسيلة في التفكير والتحليل والمتابعة للقضية المطروحة أمامه • وفي النهاية يتم البت في القضية بواسطة المجلس ويصبح هذا الحكم نافذ المفعول وليس هناك من يتجرأ للخروج عليه أو نقضه ، خوفا من العار الذي يلحق به في حالة خروجه من رأي الجماعة • أما في موسم الزراعة فتتجلى الروح الجماعية والتعاون ، يأتي رجال القرية بكامل آلات حراثتهم وثيرانهم الى المزرعة ، ويقومون جميعهم بحراثتها في يوم واحد • أما صاحب المزرعة فيقوم باعداد الأكل والقهوة لهم • وفي اليوم الثاني ينتقلون جميعهم بما فيهم صاحب هذه المزرعة الى مزرعة أخرى ويؤدون نفس الواجب • وهكذا في أيام قلائل تكون كل القرية قد قامت بزراعة أرضها دون أن تتكلف شيئا • ونفس هذه الروح من التعاون يمارسونها عند الحصاد • وبعد جني المحصول اذا صادف وجود أسرة لم تتمكن من الحصول على مصاريف عامها لأي سبب من الاسباب فتقوم القرية بكاملها بالتبرع لها من الشعير والقمح ، وتتجلى عظمة الروح الجماعية والتعاون في القرية في مظاهر بسيطة ما زالت عالقة بذهني ، فعندما يقوم أحد أفراد القرية بذبح شاة أو بقرة لأي سبب من الاسباب فمن المحال أن يحتفظ لنفسه ولأسرته بالذبيحة ، بل يقوم بتوزيعها على القرية بكاملها مع الاحتفاظ بنصيبه • أما اذا حل بالقرية ضيف فهو ضيف القرية بكاملها ، فيستقبله بالخارج كبير القرية سنا ويجلسه تحت أحد الأشجار

ثم يجلس معه • وبعد ذلك يأتي الصبيان بالحطب والنـار ، ثم تأتي (الجبنه) والبن ويقوم المضيف باعداد القهوة،وعندئذ يكون رجال القرية قد تجمعوا من حولهم وتدور الأحاديث المختلفة وهم يحتسون القهوة • وأثناء ذلك تقوم النسوة باعداد العصيدة في منازلهن ، وبعد الفراغ من احتساء القهوة تأتي أواني العصيدة ، والجميع يتحلقون من حولهـا ويبدأون في الأكل سويا • وعندما يهم الضيف بالرحيل ومغادرة القرية فانهم يستنكرون ذلك ويلحون عليه للبقاء معهم أياما أخرى •

أيام الحصاد بالقرية ما أجملها من أيام ، فالكل باسم مبتهج ، وهو يرى أن كده وكدحه قد أثمر هذه الحقول الخضراء ، المترامية الأطراف، وعلى مد البصر ، من الشعير والقمح ، وكلما هب النسيم ، وسنابـل القمح الذهبية تتمايل يمينا وشمالا ، فتخرج أصواتا موسيقية تهفو معها القلوب • ان أيام الحصاد ، من الصعب أن أعبر تعبيرا دقيقا عن المشاعر الحبيبة التي تنتاب فيها مجتمع القرية • وكلما تذكرتها أثارت في نفسي الحنين والأشجان ، فالأبقار تلد في هذا الموسم وتتكاثر الالبان حيث كنا نرتوي منها ونملأ بطوننا • وعندما تضع البقرة ذكرا فغالبا ما يقومون بذبحه ، وفي هذه الحالة نتناول اللحم الذي طال اشتياقنا له • ووفرة المحصول تؤدي لزيادة كمية العصيدة وبهذا كنا نضمن بأننا لن نترك المائدة وبطوننا شبه خاوية كما يحدث في غير هذا الموسم • اننا معشر الصغار كنا نحس بسعادة كبيرة في موسم الحصاد لأننا كنا نفكر ببطوننا أكثر من أي شيء آخر ، وأعتقد أن الكبار أيضا لم يكونوا أقل منـا سعادة وربما لنفس السبب ، أو يكونوا قد ضمنوا غذاء العام بكامله لمن يعيلون • كنت أحس بسعادة الكبار في مظاهر معينة ، فعند حلول الظلام يقوم كل رب أسرة بايقاد النار أمام منزله ويبدأ باعداد القهوة واحتسائها وبعد ذلك يبدأون بالتجمع حول أكبرهم سنا ، وتستمر القهوة على النار باستمرار وتدور الأحاديث المتنوعة ومعظمها عن الزراعة والمحاصيل • ويقوم بعض (المثقفون) منهم برواية ما يحفظونه من أقاصيص وما سمعوه من حكم ، مع أنهم يكونوا قد رووا هذه الأقاصيص والحكم في

جلسات سابقة ، ولعشرات المرات ، الا أن الحضور يستمعون اليها باهتمام بالغ وكأنها المرة الأولى التي تروى فيها على مسامعهم • ونفس الشيء يحدث للنسوة حيث يتزاورن ويتجمعن في منازل مختلفة وتدور بينهن الأحاديث المتنوعة •

بانتهاء موسم الحصاد وجمع المحصول تبدأ رحلة الصيف • والمستفيد الأول من هذه الرحلة هي الماشية ، لأن الرحلة في أساسها تبدأ بحثا عن الماء والكلأ للمواشي • قبل أيام من بدء الرحلة يقوم رجال القرية بتقصي الأخبار والمعلومات عن الأماكن التي تتواجد بها المياه والعشب وخلوها من الذباب الذي يضر بالأبقار • ثم يعلنون بعد ذلك عن يوم الرحيل • وفي اليوم المحدد تبدأ حركة غير عادية بالقرية ، فالكل يستعد للرحيل ويجهز أمتعته • وفي الجزء الأخير من الليل تبدأ المواشي بالتحرك ومعها الرعاة ، وبعدها بقليل تتحرك مجموعة (الاستكشاف) ومهمتها تحديد المحطة الأولى التي ستعسكر فيها القرية حسب المواصفات المطلوبة من الماء والكلأ • وقبل الشروق تكون كل أسرة قد حزمت أمتعتها على ظهور الدواب ، فالبعض يستعمل الجمال والبعض الثيران وآخرون الحمير • وتركب النساء والاطفال ، أما الرجال والشباب والصبيان فيسيرون على أقدامهم • ويتحرك الركب ويستهله الرجال بتلاوة آيات من القرآن ويرددون بعض الدعوات الصالحات ، وكل هذا ابتهال لله بأن يجعل عامهم عاما سعيدا ورحلتهم سليمة وأن يعيدهم الى قريتهم سالمين دون أن تنقص مواشيهم أو أحد من أفراد عائلتهم • والنساء أيضا لا يتخلفن عن ترديد هذه الدعوات ولكن بصوت خافت ، ويستمر الموكب دون توقف ، وكل رب أسرة يجر رسن الجمل الذي تمتطيه أسرته أو يسير خلف الثور والحمار ويلهبه بالعصا كلما تباطأ في المسير • وأثناء المسيرة يتناوب الرجال في ذكر الله ومناقب الرسول (صلعم) وبصوت عال رخيم • وفي بعض الأحيان يترنمون بذكر مناقب الأولياء والانبياء ، وبهذا يتغلبون على التعب والانهاك •

وقبل الظهيرة بقليل ، ينتظر أحد الكشافة في الطريق جالسا تحت

أحد الأشجار ، في انتظار موكب القرية ، بعد أن يكون وجماعته قد حددوا مكان النزول ، ويتسابق الرجال للاستفسار منه عن طبيعة المكان الذي تم اختياره ، والماء والعشب ومدى توفرهما • وبعد أن يصل الموكب للمكان المحدد تنصب منازل البروش ، ثم تبدأ النساء في اعداد الطعام بينما الرجال يجلسون في ظل الأشجار ويعدون القهوة • أما الأطفال فينطلقون صائحين هنا وهناك يمارسون ألعابهم المفضلة والتي حرموا منها وقت الرحيل ، والقرية قد تقضي أياما في هذا المكان وقد ترحل عنه في اليوم الثاني وذلك حسب كمية العشب المتوفر للمواشي • ويستمر الحال على هذا المنوال الى أن تصل القرية بكاملها الى المناطق المجاورة للأراضي السودانية • وهناك يقضون الشهور الى أن تبدأ رحلة الشتاء •

منذ أن بدأت أعي ، هذه هي الحياة التي ألفتها في مجتمع القرية ، وهي حياة تسير على وتيرة واحدة لا تتغير • فرحلة الشتاء والصيف نقوم بها سنويا •• ونفس النشاطات الحياتية من زراعة وتربية المواشي وتغذيتها تسير على نفس المنوال •• وحتى الطرق التي تسلكها القرية في غدوها ورواحها هي نفس الطرق •• وحتى الطبيعة كانت متجانسة مع طبائع سكان القرية •• فالأمطار تنزل في مواعيدها •• وموسم الزراعة والحصاد يتم في نفس التاريخ ، والجميع قانعون ولربهم حامدون على ما أنعم عليهم من هدوء وسكينة • أما ما يدور خارج مجتمعهم الصغير ، مجتمع القرية والزراعة وتربية الماشية ، فليس لهم أي علاقة به ولا يخصهم في شيء •

فجأة بدأ كل شيء في التغير ودون مقدمات •• فقدت القرية هدوءها وسكينتها •• وحتى أحاديث الرجال في الأمسيات تغيرت مواضيعها ، وبدأوا يتحدثون عن أشياء لم نكن نسمع بها من قبل ، وبحكم صغر سني وضيق مداركي التي لا تتعدى القرية ، لم أفقه شيئا من هذا

التغيير ولكنني كنت أحس بأن هناك مسائل غير عادية قد طرأت في حياتنا وهي لا تبشر بخير ، وكان ينتابني الخوف عما يدور من حولي ، ولم أجد المناسبة التي أوجه من خلالها سؤالا لوالدي للاستفسار • الى أن كان ذات يوم ، فقد غاب والدي نهارا كاملا عن القرية وعاد بالمساء • وكان من عادتي أن أستقبله جاريا خارج القرية ، وأمسك بيده أو بأطراف ثوبه بينما هو يمسح بيده على رأسي الى أن نصل للمنزل سويا • وفي هذا اليوم استقبلته كالعادة ، وقبل أن نصل الى المنزل جاء بعض رجال القرية لاستقباله وكانوا يستفسرون منه عن أشياء كثيرة لم أدركها جيدا ، الا انه ومن اجاباته لهم كان يكرر بين حين وآخر كلمة (الحرب) ، الى أن جاء في حديثه أنه بسبب الحرب لم يجد السكر الا بصعوبة ، وعندما وجده كان سعره قد ارتفع مرتين ، وأمسكت بهذه الجملة لكي أستفسر والدي عنها لدى وصولنا البيت ، وبوصولنا للمنزل أمطرت والدي بالأسئلة :

ـ ما هي الحرب ؟ ولماذا أدت الى انعدام السكر ورفع سعره مرتين ؟

ـ الحرب ؟ هناك حرب بين دول كثيرة •

ولم أفهم هذا الجواب الى أن قرب الصورة لي وضرب لي مثلا ، قائلا : عندما تتشاجر مع أحد رفاقك فهذه حرب ، و نفس الشيء يحدث بين دولتين •• فقلت :

ـ من هي هذه الدول المتحاربة ؟

ـ ايطاليا و بريطانيا هما المتحاربتان •

ـ وهل ايطاليا و بريطانيا تقعان بالقرب من قريتنا مما أدى لانعدام السكر ورفع سعره مرتين ؟

ـ لا • ان ايطاليا و بريطانيا بعيدتان من قريتنا والمسافة اليهما قد تستغرق عاما أو أكثر سيرا متواصلا بالجمال • الا أن جيوشهما هي التي تتحارب هنا •

ـ ولماذا جاءت جيوشهما لتتقاتل هنا وتسبب انعدام السكر ورفع سعره مرتين ، بدلا من أن تتقاتل في بلادها ؟

ـ بريطانيا تحكم السودان ، وايطاليا تحكمنا هنا في أرتريا • وقد جاءت جيوش بريطانيا لتقاتل جيش ايطاليا • واذا انتصرت فهي التي ستتولى حكمنا بدل الايطاليين •

ـ ايطاليا تحكمنا ؟ ولكني لم أشاهدها من قبل •

ولم يجاوبني والدي ، نظر الي نظرة ذات معنى أفهمها جيدا ، وهي : كفاك أسئلة فقد أتعبتني •

وخرجت من المنزل ، شعرت بكراهية نحو بريطانيا لأنها جاءت بجيوشها قرب قريتنا مما أدى لانعدام السكر ورفع سعره مرتين ، خاصة وان السكر كان الفاكهة والحلوى الوحيدة التي كنا نتذوقها • واجتمعت برفاقي من أطفال القرية وبدأت أحكي لهم المعلومات القيمة التي حصلت عليها ، وحدثتهم عن الحرب وعن ايطاليا وبريطانيا والسكر • وفي الحال كونا جيشا يمثل أحدهما بريطانيا والآخر ايطاليا ، وبدأنا معركة طاحنة بالعصي والحجارة ، بعد أن اتفقنا سلفا ، بأن بريطانيا هي التي يجب أن تهزم ، واستمرينا نمارس هذه اللعبة يوميا ولفترة طويلة ونتلذذ بهزيمة بريطانيا المستمرة والتي حرمتنا من السكر •

لم يمض وقت طويل حتى وصلت الحرب الينا وتعدى تأثيرها انعدام السكر وارتفاع سعره ، الى كل شيء في حياتنا • فقد بدأت حملة التجنيد الاجباري للرجال والشباب وصاروا يساقون عنوة الى ساحة الحرب • كما بدأت عملية المصادرة للمواشي وبالذات الجمال والحمير لاستعمالها في النقل للجيش الايطالي ، وبدأ كثيرون من الشباب والرجال يغادرون القرية في الفجر ، ولا يقتربون منها نهارا ، ويعودون اليها بالمساء بعد أن يكونوا قد قضوا نهارهم في الجبال والغابات خوفا من أن يأتي الجيش الايطالي ويسوقهم الى الحرب ، كما أن المواشي لم تعد تسرح كما تشاء وكما كان بالسابق ، بل بدأوا يأخذونها بعيدا الى الوديان والأماكن غير المطروقة ، وبالذات الحمير والجمال خوفا من مصادرتها • وفي البداية وجدوا صعوبة مع الحمير التي تنهق بصوت عال وتدل على أماكن تواجد المواشي ، ولهذا اضطروا لفصل الحمير عن باقي المواشي واخفائها في وديان أبعد ، وبالرغم من كل تلك الحيل فكثيرا ما كانت الحكومة تكتشف أماكن المواشي وبالذات الجمال والحمير بواسطة جواسيسها وتسوقها وتذهب بها دون أن يستطيع أصحابها ابداء أي اعتراض •

بدأت كراهيتنا للحرب تزداد حين أصبحت تؤثر على حياتنا نحن الأطفال أيضا ، اذ قيدت حريتنا وحرمتنا من ممارسة ألعابنا المفضلة في الغابات والسهول ، وقد بدأت أمهاتنا يمانعن في ابتعادنا عن المنازل ،

وبدأت الطائرات تظهر في سمائنا وبأصواتها المزعجة • ففي البداية كنا نتصورها صقورا ، ولكن بمرور الوقت عرفنا بأنهـا تسمى طائرات ومصنوعة من الحديد ، وتحمل بداخلها الموت ، ولهذا وبمجرد ظهورها أو سماع صوتها كنا نترك المنازل ونختفي تحت الأشجار القريبة من القرية حسب تعليمات العارفين من المشائخ المسنين • ولن أنس الخوف الذي صار ملازما للقرية ومخيما عليها طوال الوقت •• الخوف علـى النفس •• الخوف على المواشي •• الخوف من التجنيد الاجباري •• وذهبت تلك الحياة المرحة •• حياة الانطلاق والبساطة والحرية الى غير رجعة ، وحل محلها الخوف والقلق وترقب الخطر المحدق بالجميع •

في تلك الأيام فهمنا حقائق كثيرة لم نكن نعرفها من قبل • فالمسنون من رجالات القرية كانوا يتجمعون مساء في مكان واحد ، دون أن يوقدوا النيران كما كانوا يفعلون في السابق ، ويروون الكثير من القصص • وكنا نحن الصغار نجلس بالقرب منهم نستمع لتلك القصص باهتمام بالغ • ومن خلال ما كانوا يروونه علمنا بأن الايطاليين ليسوا جيدين كما كنا نتصور ، ففي أثناء دخولهم الى أرتريا قاموا باخضاع السكان بالقوة والقتل ، كما أنهم طبقوا نظام السخرة في بناء الطرق والجسور والأنفاق ، وكانوا ينقلون الشباب والرجال القادرين لمعسكرات العمل الاجبارية ودون مقابل ، كما يفعلون اليوم بالنسبة للتجنيد الاجباري • أيضا علمنا بأنه وبعد أن استقر الايطاليون ببلادنا قام بعض مشائـخ القبائل برفع راية العصيان ورفضوا دفع الضرائب ، وان بعض هؤلاء المشائخ الذين كانوا يمتلكون الأسلحة النارية من العهد التركي بدأوا باتصالات سرية بكل مشائخ القبائل في جميع أنحاء أرتريا لشن الحرب على الايطاليين وطردهم خارج البلاد • ولكن الحكومة الايطالية تمكنت من اعتقال الذين رفعوا راية العصيان وكذلـك الذين رفضوا دفـع الضرائب ، كما كشفت نوايا المشائخ الذين كانوا يخططون لطردهـا واقامة دولتهم الخاصة بهم ، وقد قامت باعدام بعضهم والبعض الآخر

وضعته في سجون (عدي خالا) و (نخره بدهلك) و (عصب) حتى قضى نحبه هناك ، وان بعضهم سربت السم الى أجسامهم عن طريق الحقن مما يجعلهم يموتون موتا بطيئا وعلى مدى شهور ، أيضا علمت بأن بعضا من أجدادي كانوا ضمن أولئك الذين سجنوا أو قتلوا بالسم ٠

كل هذه الحقائق كانت جديدة علينا ، ولهذا فانني وأقراني من أطفال القرية أصبحنا نكره ايطاليا كرها شديدا ، وقد تأسفنا لأننا تعاطفنا معها في بداية الحرب وتمنينا لها الانتصار ٠ كما أن بريطانيا لم نغفر لها جرمها نحونا باختفاء السكر وارتفاع سعره ان وجد ٠ ولهذا بدأنا نقسم أنفسنا الى ثلاثة جيوش : الجزء الأول يمثل الجيش البريطاني والجزء الثاني يمثل الجيش الايطالي ، أما الجزء الثالث فيمثل جيش أرتريا ٠ يقف الجيشان البريطاني والايطالي سويا في مقابل جيش أرتريا وتبدأ المعارك ، بعد الاتفاق على هزيمة الجيشين الأجنبيين وانتصار جيش أرتريا ، والويل لمن يكون في الجيش الايطالي والبريطاني لأننا كنا نشبعه ضربا مبرحا ولا يستطيع أن يتحمس في الدفاع عن نفسه حسب التزامه بقواعد اللعبة ٠ وكنت من جانبي أصر أن أكون ضمن جيش أرتريا دائما ٠

أذكر في تلك الأعوام انه قلت كميات الحبوب الموجودة بالمنازل ٠ وفي كثير من الأحيان نترك المائدة ونحن شبه جياع لقلة كمية العصيدة التي لم تعد كافية ٠ كما أذكر في أحد الأيام بأن العصيدة قد انعدمت لانعدام الحبوب ، وهنا اضطرت أمهاتنا الى احضار جلود المواشي وقمن بتقطيعها في حجم اللحمة ، ثم بدأن بوضعها في النار بعد وضع كمية من الماء معها ، وبعد مدة قمنا بالتهامها بعد أن نضجت وصارت كاللحم ٠ في تلك الأيام لم نعرف الجوع وحسب بل أيضا عرفنا الأحزان الحقيقية ٠ فبين فترة وأخرى كانت تتواتر الانباء عن مقتل فلان وفلان من أفراد القرية الذين تم تجنيدهم اجباريا في الحرب ، بواسطة الايطاليين ،

ويبدأ العويل والنواح وتستمر المآتم أياما ، ونمنع نحن الصغار من مزاولة صخبنا وألعابنا مراعاة لشعور أهل الفقيد كما ينصحننا أمهاتنا بذلك ٠

وعندما يعود أحد المجندين في الاجازة أو نتيجة لتسريحه فان الزغاريد تنطلق من قريباته ، ويستقبله الكثيرون خارج القرية وبالذات أهله وأهل المجندين الآخرين الذين لم يعودوا بعد ، وتبدأ الاستفسارات تنهال عليه عن فلان وفلان ٠ فالأم تسأل عن ابنها والأخت عن أخيها والوالد عن ابنه ٠ وفجأة ينطلق الصياح والعويل من احدى المستفسرات حين تعلم بأن ابنها أو أخاها قد قتل وتشاركها باقي النساء ثم القرية بكاملها ، وبدلا من الفرح بعودة المجند سالما فان الحزن يخيم على القرية بكاملها ٠

في تلك الأيام بدأت نقطة التحول في حياتي ٠ فبدلا من رحلة الشتاء والصيف التي كنا نمارسها ، ونتيجة للحرب الملعونة ، أخذت رحلاتنا مسارا آخرا ، فقد قررت الأسرة الانتقال الى منطقة طوكر الزراعية بداخل الأراضي السودانية ٠ وكانت المعضلة التي تواجه الأسرة لتنفيذ هذه الرغبة هي وجود جيشين متحاربين على الحدود مما يصعب اختراقهما دون التعرض لمخاطر كثيرة ٠ وفي أحد الأيام استدعى والدي احدى

(ضاربات الرمل) كنا نسميها « الوداعه » ، وعرف عنها بأن ودعها لا يكذب بل يشير الى الحقائق كما هي ، ووضع والدي المشكلة أمامها ٠ فقالت له : اذا أشرت عليك بالرحيل وأعطيتك ما يحميك وأسرتك من الخطر فهل توعدني بتلبية طلباتي بعد عودتك سالما ؟ فقال لها والدي : انني مستعد ٠ فما هي طلباتك ؟ فقالت ان طلباتي رطلا من البن وخمسة امتار دبلان وربع رطل فلفل أسود ورطلا من السكر ، فاستجاب والدي لهذه المطالب ٠ وبدأت « الوداعه » في ممارسة عملها حيث كانت تلقي بالودع ثم تجمعه وتلقي به ثانية ٠ واستمرت على هذه الحالة فترة من

الزمن وهي تتفرس في الودع كلما انتشر على الأرض وتقوم برسم اشارات متنوعة في التراب • وأخيرا ودون أن تنطق بكلمة تحركت من مكانها وخرجت ، ثم عادت بعد فترة وفي يدها مجموعة من الحصى ، وقالت لوالدي : خذ هذه الحجارة واحتفظ بها جيدا ، وعندما يقابلك الجيش عليك بالقائها في وجوههم ولن يمسسك أي ضرر لأن عيونهم سوف تعمى ولن يشاهدونك وستكون أنت ومن معك في حماية الملائكة •

أخذ والدي الحجارة ثم ربطها في قطعة من القماش ووضعها في جيبه، في تلك الليلة تقرر بأننا سنرحل غدا ، لم أذق للنوم طعما •• وكانت تخالجني أحاسيس متنوعة ، فقد كنت أحس بالحزن لمفارقة القرية حيث زملائي من الأطفال • وكنت أتساءل بيني وبين نفسي عن الأرض التي سنرحل اليها وعن ناسها كما كان الخوف ينتابني عن الجيش الذي سيقابلنا وماذا سيفعل بنا اذا لم تصدق حجارة « الوداعه » وتنفع في تأدية دورها ومفعولها ، ومن جراء هذه الأفكار أصبت بحمى مفاجئة وأصبحت أتقلب يمينا ويسارا وأنا أنظر في الظلام ، فانتبه والدي وسألني : ماذا بك ؟ ولم أجبه لأنني لم أعرف ماذا أقول ، وكيف أتجرأ وأفصح له عن أفكاري • فوضع يده على جبهتي ثم مررها على جسمي ، وعندئذ تحرك من مرقده وأوقد النار ، ثم وضع الجمرات فوق المبخرة • وبعد ذلك أدخلني داخل سرواله بعد أن ربط رجليه ربطا محكما ، ووضع البخور فوق الجمرات ثم أدخله معي في السروال بعد أن ربطه من فوق وكدت أن أختنق من الدخان وأصبحت أتململ وأحرك رجلي ويدي بعنف ولكن دون جدوى • فقد كانت احدى يدي والدي تمسك بي والأخرى بالمبخرة ولم أتمكن من الحراك • وأخيرا أخرج المبخرة ثم وضعني على السرير الخشبي وأمرني بالنوم ، في الوقت الذي واصل فيه تلاوة بعض الآيات القرآنية ، ومن شدة خوفي مما جرى لي ولكيلا يتكرر فقد نسيت رحلة الغد ورحت في سبات عميق •

في الصباح الباكر حزمنا أمتعتنا فوق الجمل وركبت والدتي ومعها الصغار من اخواني وأمسك والدي بالرسن وتحرك وهو يردد : « بسم الله الرحمن الرحيم ·· ربي ·· ونبيي ·· وسيد محمد عثمان تاج السر المرغني » عدة مرات · أما أنا فقد سرت خلف الجمل خاصة وان عمري قد تجاوز السابعة وأصبحت في عداد الصبيان الذين يعتمد عليهم في بعض المهام ، وسار بجانب والدي بعض من رجال القرية وهم يتحدثون اليه وبعضهم يقدم له النصائح عن المسالك التي يجب أن يتبعها وآخرون يوصونه ببعض أقاربهم · كما أن بعض النسوة كن يسرن على جانبي الجمل ويتحدثن الى والدتي بصوت هامس · أما أقراني من أطفال القرية فلم يتقدم أحدهم ليتحدث الي بشيء كما يفعل الرجال والنساء مع والدي ووالدتي ـ مع أنني كنت أود من قلبي أن يحدث ذلك ـ ولكن الشياطين تجمهروا خارج القرية ووقفوا صامتين ينظرون الينا · وكنت بين حين وآخر ألتفت الى الوراء وأجدهم في نفس المكان ونفس الموضع دون حراك ·

بعد مسافة كبيرة وقف والدي وكان هذا علامة الوداع ليعود القوم الى القرية ، فتطوع أحدهم ورفع يده الى السماء ، ففعل الرجال جميعهم مثله بما فيهم والدي ، وبدأ يقرأ فاتحة الكتاب وآيات قرآنية أخرى ثم بعض الدعوات ، وبعدها حياهم والدي جميعا دون أن يشد على أيديهم كما نفعل الآن ·· فعند الوداع كان أهل القرية يتشاءمون من الشد على الأيدي ، ويقولون عوضا عن ذلك : نسأل الله ألا تكون مقابلاتنا بالأيدي،

وبدأ الرجال في العودة الى القرية وكذلك النساء والدموع تنهمر من مآقيهن ، ولم تتخلف احداهن من احتضاني ثم تقبيلي بعنف في خدي · وهنا شد والدي على الرسن ، وأسرع الخطى ميمما وجهه شطر الحدود حيث توجد الجيوش ، وأسرتنا لم تكن الأولى التي تترك القرية ، ففي الأيام الاخيرة ومنذ حلول الحرب بدأ عقد القرية ينفرط · ولا أدري الى أين ، ولكن كانت هناك أسر تتحرك بين حين وآخر منفردة ، وليس

كما اعتدنا في السابق عندما كانت القرية بكاملها تحل وترحل سويا في رحلاتها التاريخية • واصلنا سيرنا دون توقف ، وكان والدي بين آونة وأخرى يناديني قائلا : صالح ، هل تعبت ؟ هل تريد أن تركب الجمل بجانب اخوتك ؟ وكنت أجاوبه بالنفي لكي أثبت له بأنني أصبحت رجلا يستطيع المشي لمسافات طويلة • كما كنت أود أن أؤكد لاخوتي بأنني أتميز عليهم ولم أعد طفلا صغيرا مثلهم ، هذا في الوقت الذي كانت والدتي بين حين وحين تطلب من والدي أن يوقف الجمل لكي أركب بجانبها • وأخيرا توقف والدي عن السير وألقى بالرسن على الأرض ثم جاء وحملني بيديه وقذف بي فوق الجمل بجانب والدتي ، ثم أمسك بالرسن وصار يسير بخطوات أسرع •

عند الظهيرة ، وبجانب أحد الوديان ذات المياه المتدفقة ، توقفنا وأنزلنا العفش من على ظهر الجمل ، ولكن لم تقم والدتي بنصب المنزل كما كانت تفعل في رحلاتنا السابقة ، رحلات الشتاء والصيف ، بل تركت كل شيء في مكانه ، وفتحت احدى الحقائب الجلدية وأخرجت منها الدقيق ثم أخذت الآنية الفخارية التي تصنع بها العصيده وجلست تحت ظل احدى الأشجار الضخمة ، وقام والدي بجمع الحطب وساعدته بجمع ما يمكنني جمعه من الحطب ، وألقى بالحطب بجانب والدتي وأخذ جزء منه وذهب لشجرة أخرى وبدأ في اشعال النار بينما بدأت والدتي باعداد الطعام ، أما الجمل ، وبعد وضع القيد في رجليه الأماميين فقد ابتعد عنا وهو يتنقل من شجرة الى أخرى ملتهما الأغصان الخضراء • وكنت أنظر اليه بحسد لأنه يجد طعامه بوفرة أينما حل ، وما أكثر الاشجار الخضراء التي تنفع طعاما للابل • أما أنا فقد جلست هادئا بجانب والدي ، لم يكن هناك من أمارس ألعابي المفضلة معه •• فأطفال القرية قد تركتهم خلفي ، أما اخواني فلا يصح أن ألعب معهم لأنهم أطفال صغار لا يعرفون شيئا مما أعرف من الألعاب والقصص العجيبة التي كنت أحفظها على لسان الكبار • وجلست أنظر الى والدي الذي

يحتسي القهوة بتلذذ ، وقد لاحظ أنني أنظر اليه فأنزل فنجان القهوة من فمه ثم تناول قطعة من السكر وناولني اياها ، فدفعت بها في فمي متلذذا بامتصاصها ، ثم تحركت نحو والدتي فوجدتها مستمرة في طبخ العصيدة ، ولكنها توقفت وتناولت قطعة من العصيدة وهي لم تنضج بعد وناولتني اياها فبدأنا في أكلها ثم عدت وجلست بجانب والدي الى أن تم اعداد الطعام ، وبدأنا في الأكل أنا ووالدي واخوتي الصغار • أما والدتي وأختي فتركناهما يتناولن الطعام لوحدهن • وبعد أن فرغنا من الأكل بدأ والدي في اعداد قهوته للمرة الثانية ، في الوقت الذي قامت فيه الوالدة بحزم أمتعتها وجلست تنتظر • بعدئذ قام والدي بتأدية الصلاة ، ثم أحضر الجمل الذي كان باركا بالقرب منا بعد أن التهم ما يكفيه من فروع الأشجار •

حزمنا أمتعتنا على ظهر الجمل وبدأنا نواصل السير ، وقبل المغرب بقليل بدأ نباح الكلاب يتناهى الى أسماعنا من بعيد ، ثم بدأ يقترب شيئا فشيئا ، ووالدي يتوقف بين حين وآخر عن المشي ويتبين مصدر نباح الكلاب ثم يسير باتجاهها ، الى أن بدأت تظهر نيران قرية نائية • وعند حلول الظلام نزلنا بالقرب من تلك القرية فتقاطر الينا رجالات القرية مسرعين ، وكل منهم يحيي والدي باسمه ، وقد اكتشفت بأنهم جميعا يعرفون والدي كما أنه يعرفهم فردا فردا ، وكانوا يستفسرون منه عن كل شيء وفي أدق التفاصيل •• فهم يعرفون كل أفراد أسرتنا ذكورا واناثا ، كما يعرفون جميع أفراد قريتنا التي تركناها ، وفي بعض الأحيان كانوا يستفسرون عن أبقارنا بالاسم ، وبالمناسبة فان عشيرتنا تطلق اسما على كل بقرة ، والأبقار تعرف بأسمائها كالبشر •

وبعد ذلك جاءوا بالنار والحطب حسب أصول الضيافة وبدأوا في اعداد القهوة ، وقد لاحظت أن والدتي لم تقم بايقاد النار واعداد الطعام بل جاءت اليها مجموعة من النساء وجلسن يتجاذبن معها أطراف الحديث ، فقد كنا ضيوفا والضيف تقوم القرية باكرامه • وبعد أن

تناولنا طعام العشاء ، جلست بجانب والدي بينما رجال القرية بدأوا يعدون القهوة للمرة الثالثة ويتجاذبون أطراف الحديث • وكان معظم حديثهم عن الحرب وأخبارها ، ومما قالوه أن هناك قرية لا تبعد كثيرا من هنا قامت الطائرات الايطالية بقصفها وقتلت من سكانها ٣٠ شخصا• وان (شيخنا) فلان الفلاني كان موجودا بتلك القرية وقت القصف •• فخرج الى العراء وخلع عمامته وطاقيته ثم نظر الى السماء •• واستغاث بالله أن يعجل بهزيمة ايطاليا •• وبعد برهة من الصمت نظر الى القرويين الواقفين بجانبه •• وبشرهم بأن الله استجاب لدعائه وان ايطاليا حتما ستهزم •

وهنا قلت في نفسي : اذن الحرب ليست في قريتنا فقط ، بل شملت عددا كبيرا من القرى ، وحمدت الله الذي أنجى قريتنا ولم يصبها ما أصاب تلك القرية التعيسة التي مات ثلاثون من سكانها • ولكن سؤالا حائرا دار بذهني ولم أجد له جوابا ولم أتجرأ للسؤال عنه لأن المجتمعين حول والدي كانوا كثيرين ، فكنت أتساءل : ماذا فعلت تلك القرية المسكينة لايطاليا حتى تعاقبها بارسال الطائرات لقصفها ؟ وأخيرا قلت : ربما كان هناك ثأر قديم بينهما وانتهزت ايطاليا الفرصة للانتقام •

لم ينفض سامرنا ؛ فقد استمر الرجال في أحاديثهم ، وكان بينهم أحد المجندين الذي عاد للقرية قبل وصولنا اليها بيوم ، بدأ يروي مشاهداته وذكرياته في ساحة القتال ، والرجال جميعهم ينظرون اليه وهم صامتون ولا يبدون حراكا وكأن الطير على رؤوسهم • وبدأ حديثه قائلا :

ـ ان التجنيد الاجباري لم يشمل قريتنا فقط بل شمل كل قرى أرتريا ، وتعدى أرتريا الى البلدان الأخرى التي تحكمها ايطاليا ، وقد تعرفت على الكثيرين منهم ، وكونت معهم صداقات حميمة • فمنهم الشبان الصغار الذين لا تصل أعمارهم الى العشرين ، والرجال الكبار

الذين تتجاوز أعمارهم الخمسين ٠

كنا نخوض معارك متصلة ، وفي كل معركة كنا نترك مئات القتلى من الذين يحاربون في صفوفنا ٠ صدق الامام علي بن أبي طالب عندما قال : (بطلت الشجاعة) يوم رأى سلاحا ناريا ٠ لقد ولى زمن الحروب التي كنا نعرفها ٠ كنا نعرف خصمنا كما كنا نعرف أسباب خصامنا معه، كان الرجل يحمل سيفه ودرعه ويواجه خصمه وجها لوجه وفي وضح النهار ٠ أما هذه الحرب التي جرونا اليها فلا نعرف خصمنا ولا الاسباب التي نحارب من أجلها ٠ انه أمر عجيب ! كيف يخرج الرجل الى الحرب ويقتل ويموت دون أن يعرف من يحاربه وأسباب حربه معه ٠

لا أتمنى لأحدكم أن يشاهد ما شاهدته ، والأهوال التي تعرضت لها ، لم أشاهد خصمي بالعين المجردة ولم ألتحم معه في معركة شريفة ، رجل برجل ٠ ولكن حمم من الجحيم كانت تصب فوق رؤوسنا ، ومن اتجاهات عديدة ٠ كان الرجال يتساقطون قتلى من حولنا وأمامنا ومن خلفنا ٠ في تلك اللحظات تنطبق علينا حالة يوم القيامة ـ يوم يفر المرء من أخيه وأمه وبنيه ٠ فعندما تقذف المدافع ، وينهمر الرصاص ، ورائحة البارود تملأ الجو ، والدخان ينبعث من هنا وهناك ، في تلك اللحظات كنا ننسى كل شيء ، حتى الخوف من الموت لا نتذكره في تلك اللحظات ، وينحصر كل تفكيرنا في شيء واحد ، هو توجيه نيراننا باتجاه مصادر نيران من يحاربوننا ثم التقدم الى الأمام ودون الالتفات للخلف٠ عندما نتقدم كثيرا كنا نجد جثث أعدائنا مبعثرة هنا وهناك ٠٠ وعندما نتقهقر كنا نجد جثث من يحاربون في صفوفنا بنفس الشكل وبالمئات ٠ والغريب في الأمر أننا لم نكن نكترث لمعرفة القتلى وأسماءهم ، بل في كثير من الأحيان كنا ندوس فوقهم دون أن نشعر بأي تأنيب ضمير ، كما أننا لم نكن نكترث للمغانم ، وكم من أشياء ثمينة كنا نراها ونتخطاها دون الالتفات اليها ٠

وعند نهاية المعركة كان الضباط يأتون ويقومون بعملية (التحام) ومن كان غائبا يعتبر في عداد الموتى • ومن جانبي ، وفي نهاية كل معركة كنت أتفقد زملائي وأصدقائي من قرى أرتريا أو من البلدان الأخرى التي تحكمها ايطاليا ، وقلما وجدتهم كاملين ، بل في كل معركة ينقص جزء كبير منهم ، وكان هذا يحزنني وفي الوقت ذاته يؤكد لي بأنني وفي نهاية أحد المعارك سوف أكون في عداد الموتى ، وسوف لا أرى أهلي وقريني ثانية ، وهنا فقط كنت أحس بالحزن والألم والخوف •

الايطاليون يسوقوننا قسرا لهذه الحرب التي تخصهم وحدهم ، والتي ليس لنا فيها أي فائدة لأننا نجهل أسبابها كما نجهل عدونا • وبالرغم من ذلك لا يقدرون الجميل الذي نؤديه نحوهم • فقد صادف وعسكرت الكتيبة التي أنتمي اليها في أسمرا ، وشاهدت عملية التمييز بين الأرتري والايطالي ، فهناك أحياء يسكنها الايطاليون وغير مسموح للارتريين بالاقتراب منها ، وأماكن خاصة بالأسواق من أجل الايطاليين فقط ولا يسمح للارتريين بارتيادها •

الايطاليون هم الذين يحكموننا ، ويسوقوننا الى الحرب قسرا ، وهم الذين يتولون قيادة الجيش ، وفي المعركة نحن الوقود ، بل أستطيع أن أقول أننا أشجع منهم كثيرا في المعارك • ففي أثناء القتال يضعوننا نحن الأرتريين وباقي الجنسيات الاخرى في المقدمة ، ثم يكون الجيش الايطالي من خلفنا ، وفي نهاية القوات يقف الضباط الايطاليون الذين قلما يشاركون في القتال أو يموتون مثلنا • وبالرغم من كل ذلك فانهم يمارسون التمييز بيننا وبين الجندي الايطالي في كل شيء بدءا بالأكل والملبس وحتى الأحذية • وفي المعارك فان الارتري أو أي جندي آخر من الجنسيات المختلفة ، اذا شاء حظه العاثر ، والتفت الى الوراء فانه يجد رصاصة قد استقرت في رأسه من المسدس الذي يحمله الضابط الايطالي •

وفي احدى المرات ، كانت المعركة ساخنة ، وكان الكثيرون يسقطون قتلى أمامنا وأجسادهم ممزقة الى أوصال ، ولن أنس منظر ذلك الجندي الذي كان بجانبي ، وهو شاب من احدى قرى أرتريا • ففي أثناء تقدمنا شاهد رفيقه ملقى على الأرض ، وبطنه مفتوحة وأمعاءه خرجت من بطنه وتدحرجت بجانبه ، وكان يستغيث بصوت عال ، وهنا اندفع ذلك الشاب الذي كان بجانبي محاولا رفعه وانقاذه • وفي تلك اللحظة برز الضابط الايطالي وقال كلمات بالايطالية وهو مهتاج ولم أفهم ما قاله لأنني لا أعرف الايطالية وكذلك لا يعرف الايطالية ذلك الشاب الذي كان يحاول تأبط زميله وانقاذه ، وفي لحظات أفرغ الضابط الايطالي مسدسه في رأس الشاب المسكين فوقع جثة هامدة بجانب زميله الذي كان مستمرا في الاستغاثة بصوت واهن • ان هذا الحادث أثار الذعر والغضب في صفوف الجنود الأرتريين ، وكان قريبا مني أحد الجنود الأرتريين في حوالي الخمسين من عمره وبدأ يتحدث بلغة (التجري) دون أن يلتفت الينا ، وقال :

ـ يا شباب : انني عشت بما يكفي ، وذقت من الحياة حلوها ومرها، ولا يهمني سواء عشت أو مت بعد الآن • ومن العار أن أشاهد الشبان اليافعين من أمثالكم يموتون كالكلاب بيد هذا الجبان الواقف خلفنا • يا أبنائي : انني سوف أهشم رأس هذا الوغد وسأتحمل نتيجة عملي حتى ولو كانت الموت • والمهم عليكم بالاستعداد للانسحاب والفرار ، ولا تضيعوا أي وقت •

ـ استمعت وزملائي لكلام هذا الرجل ، ثم بدأنا نهمس به لزملائنا الذين كانوا بعيدين عنا ، وبعد وقت قصير ، التفت ذلك الرجل الشهم الى الخلف ، واستدار بحركة سريعة ممسكا رشاشه ثم مزق جسم الضابط الايطالي بمجموع الذخيرة ، في تلك اللحظة ودون أن نضيع من الوقت ثانية لذنا جميعنا بالفرار ، ولولا ذلك الرجل ، الذي أجهل ماذا حل به لما وصلت الى قريتي سالما وتحدثت اليكم في هذه الأمسية •

ما ان انتهى الجندي من الحديث حتى سرت همهمة بين الرجال • فمنهم من يحمد الله على سلامته ، ومنهم من يصب اللعنات على الضابط الايطالي ، وآخرون يشيدون بشجاعة ذلك الجندي الأرتري الذي انتقم لأخيه ثم أنقذ أبنائه • وكان الليل قد انتصف ، وتحرك الرجال كل الى منزله ، وأمسك والدي بيدي وأخذني الى المنزل ثم رقدنا على الأرض لننام • وهنا بدأت أستعيد شريط تلك القصص العجيبة التي كان يحكيها الجندي قبل لحظات • وفجأة تذكرت ما حل بي في الليلة الماضية عندما ظن والدي بأنني مصاب بحمى وقام بادخالي في سرواله ، والبخور والدخان ، وخوفا من أن يتكرر ذلك أغمضت عيني ورحت في نوم عميق، ولكنها كانت ليلة مزعجة لأنني حلمت بكل ما كان يحكيه الجندي ، بل ورأيت نفسي أتعرض للموت أكثر من مرة ، وخرجت مني صرخة مدوية ، صحا على أثرها والدي • وقام باعداد النار والبخور والمبخر وأنا أرتعد من الخوف ، وفي لحظات أدخلني في سرواله كما فعل في الليلة الماضية وأدخل معي المبخر ، والدخان الكثيف يتصاعد منه •

في الصباح الباكر تركنا القرية لنواصل المسيرة ، وكالعادة كان والدي يمسك برسن الجمل الذي يحمل والدتي واخوتي ، أما أنا فكنت أسير خلف الجمل • وفي أثناء الطريق كان يصادفنا دوما شخص أو أشخاص يركب بعضهم الجمال وآخرون سائرون على أقدامهم • وما ان نلتقي بهم حتى يتوقفوا ويتبادلوا السلام مع والدي ، ثم تبدأ استفساراتهم عن أخبار الجهات التي قدمنا منها ، يستفسرون عن المواشي والعشب والمياه والبشر ، ولو ان معظم استفساراتهم كانت تنصب على أخبار الحرب ، وما ان ينتهي والدي من الاجابة على استفساراتهم ، حتى يبدأ بدوره في توجيه الأسئلة ومعظمها عن أخبار الحرب وأماكن تواجد الجيش على الحدود ، ثم يحيون بعضهم ويواصل كل منهم طريقه ، وتتكرر العملية عدة مرات ، والأمر الذي كان يثير اهتمامي ، ان كل من نقابلهم كانوا يعرفون والدي ، كما أنه كان يعرفهم مع أنني لم أشاهدهم قبل ذلك في قريتنا •

قبل أن ينتصف النهار ، وبينما نحن سائرون ، تناهت الى أسماعنا ضربات الطبول ، وبرنة لا تخطئها الأذن ، اذ أن هذا النوع من الضربات هو ما يستعمل في مناسبات الأفراح وبالذات في الاعراس • وهنا بدأ والدي يهمهم بصوت مسموع : (اللهم اجعل أيامنا كلها أفراح) وكلما سرنا كانت تقترب منا ضربات الطبول وتزداد وضوحا ، الى أن برزت قرية كبيرة أمامنا ، وانحرف والدي عن الطريق المؤدي الى القرية متحاشيا المرور بقربها ، وما كدنا نتجاوز تلك القرية حتى لحقت بنا مجموعة

من الرجال وهم مسرعون ، فتوقفنا عن السير وتبادل والدي معهم السلام ، فقدموا له لوما شديدا قائلين :

ـ كيف تفعل هذا يا حاج ادريس ؟ كيف تتجاوز قريتنا دون أن تتوقف وتسلم علينا وتأخذ قسطا من الراحة ؟ اننا نرى الجمل متعبا وكذلك الأطفال وهم يحتاجون للراحة ، فعليك بالعودة الى القرية وخذوا راحتكم لأيام معنا ثم واصلوا طريقكم بعد ذلك ٠

فرد والدي قائلا :

ـ انكم أهلي وقريتكم قريتي وأستطيع أن أحضر اليكم وأجلس بالقرية الى ما شاء الله ، متى شئت ، ولكنكم تعرفون بأن المسافر يود دائما الوصول الى وجهته ، لهذا اعذروني واسمحوا لي لكي أواصل طريقي ٠

ـ يا حاج ادريس ألم تسمع دقات الطبول والدفوف ؟ ألا تود أن تحضر زواج ابنك عثمان ؟

وهنا تهللت أسارير وجه والدي وظهر الفرح عليه واقترب من المتحدث يدعو له بالخيرات والبركات وبحياة عائلية سعيدة وبالبنين والبنات ، ثم عاد وأمسك برسن الجمل وبدأ يسير باتجاه القرية والرجال من حوله فرحين مسرورين ٠ واتضح لي فيما بعد بأن الرجل الذي تحدث عن الزواج هو والد العريس ٠ وما ان وصلنا الى القرية قام الرجال بانزال العفش من على ظهر الجمل ، وقام أحدهم بوضع القيد على الجمل وساقه خارج القرية الى حيث توجد الأشجار ، وآخرون حملوا العفش بالقرب من أحد المنازل ٠ وجاءت مجموعة من النساء وأخذن والدتي واخواتي الى منزل قريب من المكان ، أما الرجال فقد أخذوا والدي الى منزل كبير ، فسرنا من خلفه ، خاصة وأنني كنت أعتبر نفسي في عداد الرجال ٠ وخلال دقائق من جلوسنا ، أحضرت كمية كبيرة من

اللبن ثم تلتها القهوة ، وبعد ذلك جاء الأكل بكميات هائلة من اللحوم والعصيدة واللبن ، وقد أكلت حتى امتلأت معدتي ، وشكرت في سريرتي ذلك الرجل المسن الذي أقنع والدي بالنزول في هذه القرية ٠

لاحظ أحد الرجال سكوتي وانزوائي وسطهم لأنني كنت الطفل الوحيد في مجلسهم ، في الوقت الذي كان فيه الرجال يتناولون الأحاديث المختلفة ويقهقهون ضاحكين بين حين وآخر ، فقال لي :

ـ لماذا أنت جالس هنا كالغريب ؟ لم لا تلعب مع اخوانك ؟

أما أنا فقد التصقت بوالدي ووددت ألا أغادر المجلس لأني لا أعرف هؤلاء الاطفال الذين يريدني ذلك الرجل أن ألعب معهم ، فقام من مكانه وبدأ يصيح : يا علي يا ابراهيم ، وفي لحظة جاءت جمهرة من الاطفال ٠ وهنا نظر الي والدي الذي شاهد عزوفي عن مشاركة هؤلاء الاطفال العابهم ٠ فقال لي : انهم اخوانك ، قم والعب معهم ، فأذعنت لأمره ، ولم تمر دقائق حتى اندمجت معهم وكأنني أعرفهم منذ زمن طويل ٠ فقد أخذوني الى أحد البيوت حيث كان العريس وزملاؤه والطبول والرقصات، كان العريس جالسا ومن حوله وزيره الأول ثم الأصدقاء ، وفي مكان آخر مجموعة تمسك بالدف وتغني ٠٠ ووسط الحلقة تنزل مجموعات لترقص بطريقة ايقاعية محببة ٠٠ ويتحرك أحدهم باتجاه العريس ويجره من يده ٠٠ فيشاركهم العريس في الرقص وهنا ترتفع الزغاريد ٠ أما الوزير الأول فهو مع العريس أينما سار ، يشاركه الرقص والأكل ويظل ملازما له كظله ٠

أما الأغاني فهي تمجيد للعريس ولعائلته ولبطولته وحسبه ونسبه وشبابه ، وعند انتقالنا الى بيت العروس ، فقد كانت الدفوف تضرب بعنف وبحماس أشد ٠ وكانت احدى الفتيات تغني بصوت رخيم ، وأخريات يرددن من خلفها ومجموعة أخرى ترقص ويتمايلن كغصن

البان ويحركن رؤوسهن لليمين واليسار وشعورهن الطويلة المضفورة في ضفائر صغيرة تتحرك يمنة ويسرى • وعندما تتجلى احداهن فتزداد حركاتها ، تروح كل قطعة من جسمها ترقص منفردة في ايقاع متزن • أما المغنية فتردد مناقب العروس وجمالها وأدبها كما تغني لأهلها واخوانها، كانت العروس بداخل المنزل وخلف الستائر ، وحاولت التلصص لمشاهدتها للتأكد من مطابقة ما يقال عنها من حسن وجمال ، ولكن الحياء منعني من التسلل الى داخل المنزل وخلف الستائر • وكانت بعض الفتيات يخرجن من خلف الستائر ثم يعدن اليها سراعا • وكان المنزل كخلية نحل وحركة النساء من مكان الى آخر لا تتوقف •• والأحاديث بينهن على أشدها حتى تتخيل وكأنهن يتحدثن جميعا في وقت واحد ، دون أن تكون هناك من تستمع • أما أم العروس فقد كانت في حركة دائبة وتمر على شتى حلقات النساء ، فتضاحكهن وتتحدث اليهن ، والجميع يهنئنها ويتمنين لابنتها حياة عائلية مستقرة وبالبنين والبنات• واستمر دق الدفوف والطبول والأغاني في منزل العريس والعروس الى وقت متأخر من الليل •

في صباح اليوم الثاني ، وقبل شروق الشمس ، تجمهر الرجال بالمنزل الذي كان به والدي ، وبعد قليل جاء المأذون وهو شيخ مسن يحمل سبحة في يده يحرك حباتها واحدة واحدة ، ثم جاء والد العريس والعروس ، وبعد برهة جاء العريس ومن حوله الوزراء وبجانبه وزيره الأول • جلس العريس أمام والد العروس والمأذون يتوسطهما ، بدأ المأذون بالبسملة ثم ذكر المهر وهو عددا من الريالات وأوقية من الذهب ، فأجاب والد العروس بأنه استلم كل شيء بالكامل ثم أعلن أمام الشهود بأنه يتبرع بخمس بقرات للعريس ، وتلاه خال العروس فأعلن أنه يتبرع بناقتين من الابل • وهنا أمسك المأذون بيد والد العريس وتلا بعض العبارات الدينية ووالد العروس يردد من خلفه وختمها بقوله : قد قبلت أن تزوج ابنتي لفلان على كتاب الله وسنة

رسوله ، ثم أمسك بيد العريس وكرر نفس العبارات والعريس يردد من خلفه • بعد ذلك رفع المأذون يده الى السماء وقرأ الفاتحة وجميع الحضور من الرجال يرددون خلفه ، وعندما انتهى ، هدر الرجال بصوت واحد يرددون بعض الأناشيد والمناقب الدينية التي تتلى في مثل هذه المناسبة ، وعندئذ انطلقت الزغاريد من أرجاء القرية الى عنان السماء •

قبل الظهر بقليل بدأت (السيرة) ، وعندما نقول السيرة فيجب ألا نتخيلها كما نشاهدها اليوم بالمدن ، حيث عشرات العربات والزمامير، بل ان السيرة في تلك القرية الوادعة كانت من نوع آخر • حضرت مجموعة من شبان القرية يتقدمهم الوزير الأول للعريس • فوقفوا أمام منزل العروس ، وهنا اقتحم الوزير الأول بيت العروس ثم دخل خلف الستارة وخرج من المنزل حاملا بيديه العروس وهي مغطاة تماما بثوب أبيض ولا يظهر أي جزء من جسمها ، فتلقفها منه أحد الشبان الواقفين وحملها بنفس الطريقة وجرى بها خطوات ثم تلاه ثالث ، والشبان يتنافسون في حمل العروس الى منزلها الجديد ، والزغاريد تلعلع • أما وزيراتها فكن يتبخترن سائرات خلف الموكب ، ووالدتها رغم ان البشر والسرور كان باديا على وجهها الا أنها كانت تذرف الدموع وهي ترى ابنتها تحملها أذرع الشباب الى عالمها الجديد •

بعد ذلك استمرت الأغاني والرقصات والدق على الدفوف ، والقرية بكاملها تعيش حالة من الفرح والنشوة والحركة الدائبة ، بين المنزل الجديد للعروس ومنزل العريس حتى أقبل المساء • وهنا جاءت امرأة مسنة ومن خلفها مجموعة اخرى للتفاوض مع العريس حيث أن العروس رفضت الأكل والشرب ، فأعلن العريس بأنه متبرع لها بزمام من الذهب فتهللت أسارير النساء فرحا وكانت هذه هي المرة الثانية التي تدور فيها المفاوضات • وفي الصباح أيضا رفضت العروس الدخول الى منزلها الجديد ، واستمرت المفاوضات الى أن أعلن العريس عن تبرعه هو الآخر زمام من الذهب •

في وقت متأخر من الليل تحرك موكب العريس باتجاه منزله الجديد حيث تنتظره عروسه ، وبجانبه وزيره الأول ومجموعة من الشبان ، وهو يسير وسطهم يحمل السيف في كتفه الأيسر والعصاة المزخرفة بسيور من الجلد الناعم في يده اليمنى ، مرتديا ملابسه البيضاء ، وسار الموكب الى أن اقترب من المنزل والزغاريد تنطلق من أماكن عدة • وعندما وصل الى باب المنزل بدأت المرحلة الثالثة والأخيرة من المفاوضات، فالبنات ، من وزيرات العروس وصديقاتها يرفضن الخروج من المنزل وترك العروس • وبعد برهة من الوقت أعلن العريس بأنه متبرع بكبش سمين للبنات حتى يقمن غدا حفلة ناجحة ، بعد ذلك دخل العريس منزله بعد أن خرجت الفتيات وتركن العروس منفردة •

لم يمر وقت طويل حتى بدأت صرخات عالية متتالية تنبعث من منزل العريس ، وهنا علق أحد الشيوخ الذي كان جالسا القرفصاء على الأرض يداعب لحيته بيده اليسرى بينما تحرك يمينه المسبحة ، علق قائلا : (يتمنعن وهن الراغبات) ، ولم تتوقف الصرخات لفترة طويلة• فقد جرت العادة أن تقاوم العروس طويلا ولن تمنح نفسها للعريس بسهولة ، والتي تستسلم بسهولة للعريس ودون مقاومة أو صرخات فتعار بأنها تحب عريسها ، أو لها تجارب سابقة معه أو مع غيره ، وهذا عيب لن تحتمله أي فتاة •

في هذا الجو من الصرخات العالية والتعليقات ، تذكرت الأقاصيص التي كنت أستمع اليها من أقراني من أطفال القرية عن هذه المناسبات • ومن تلك القصص أن عروسا هربت خارج منزلها عندما دخل اليها العريس ، وبينما هي تجري في الظلام صادفها ذئب شرس والتهمها ولم يجدوا في الصباح الا شعرها وعظامها وسط الغابة • وعروس أخرى انتظرت عريسها وهي في كامل استعدادها ، وعندما حاول الاقتراب منها ناولته لكمة قوية صادفت فمه وخلعت أسنانه الأمامية • وأخرى لطمت العريس في وجهه وخلعت عينه • والعروسة التي تم طلاقها في يوم

زفافها ·· كانت قوية وطويلة ·· وكان العريس ، ولسوء حظه قصير القامة نحيلا ، وعندما حاول الاقتراب منها طرحته أرضا وجلست فوق بطنه ثم ضغطت بيديها على حلقه وخنقته ، فبدأ يقاوم محاولا التخلص من الكارثة الجاثمة فوقه ، ولكنه فشل ، وعندما كادت أن تزهق روحه بدأ يصرخ والناس يظنون ان العروس هي التي تصرخ ، وبعد فتـــرة تنبه وزيره لصوته ، واقتحم المنزل ، وأنقذه من الموت المحقق ، وسحبه خارج المنزل ، وعندها أعلن البائس طلاقها بالثلاث وهو لم يتزوجها بعـــد ·

يومان سعيدان قضيناهما بهذه القرية ، يومان متخمان بالأكل والأغاني والرقصات والزغاريد ، وفي اليوم الثالث استأذن والدي من رجالات القرية الذين كانوا يلحون عليه بالبقاء لأيام أخرى • حزمنا أمتعتنا وبدأنا السير والرجال يتمنون لنا رحلة سعيدة وسلامة الوصول الى طوكر ، وكنت أسير خلف الجمل وأنا أستعيد ذكريات اليومين الماضيين ، وكنت أتمنى لو طال بقاؤنا ليومين آخرين ، وعندما ابتعدنا عن القرية وتوارت عن أنظارنا بدأ والدي يدلي ببعض ملاحظاته في الزواج ، وكلها كانت تعبر عن الاستحسان • الا أن مأخذه الوحيد كان ان ما تبرع به والد العروس من أبقار وخالها من النياق يعتبر ضئيلا ، اذ المفروض أن يكون أكثر من ذلك • ولم تكن والدتي تجاريه في الحديث سوى باخراج صوت من حنجرتها يدل على موافقة آرائه ، فالتقاليد كانت تحرم الزوج وزوجته من تبادل الأحاديث ، كما تحرمه من مشاهدة وجهها لأنها تظل مبرقعة ولا يبين شيء من وجهها أمام زوجها واخوانه ووالده •

لليوم الخامس منذ بدء رحلتنا ونحن سائرون بسلام ، ولكن في هذا اليوم لاحظت والدي يأخذ وقتا أطول في تأدية صلاة الصبح • لقد صحا مبكرا وتوضأ ثم صلى الصباح ، وجلس على السجادة وهو يدعو ثم يكر بسبحته مرات عدة ، فقد ألفته في الماضي يتلو (سبحان الله) ثلاثة وثلاثين ، و (الحمد لله) مثلها ، و (الله أكبر) أيضا ثلاثة

وثلاثين مرة ، وبهذا يكون قد كر السبحة بكاملها مرة واحدة • أما في هذا الصباح فقد كان يردد أدعية أخرى على المسبحة ، غير (سبحان الله والحمد لله والله أكبر) • وبعد ذلك وقف على رجليه ويمم وجهه شطر القبلة ورفع يديه الى السماء عاليا ، ثم استمر في الدعاء • بعد ذلك أوقد النار وبدأ في اعداد قهوته ، بينما بدأت والدتي في اعداد العصيدة • وبعد أن أكلنا بدأت والدتي في حزم الأمتعة بينما أحضر الوالد الجمل ، وبدأنا سيرنا وما زال الظلام مخيما ، وبعد مسيرة طويلة أشرقت الشمس ، فوجدنا أنفسنا نسير في واد ضيق ، والأشجار الكثيفة تغطي الجبال • وفي الوادي جداول المياه المتدفقة وتكسو جوانبه الأعشاب القصيرة الخضراء • وفي ذلك الصباح الباكر كانت الطيور تزقزق وتنتقل زرافات ووحدانا بين الأغصان ، ثم تنزل الى أطراف المياه وتطير ثانية الى أعالي الجبال • أما الدجاج البري (دجاج الوادي) فقد كانت تصادفنا أعداد كبيرة منه على أطراف الوادي وبالقرب من المياه ، وما ان تتنبه لقدومنا حتى تنظر الينا ثم تنطلق جارية وتدخل بالاحراش • أيضا صادفنا أعدادا من الخنزير البري الذي كان يهرول جاريا الى داخل الغابة أو على سفوح الجبل بمجرد رؤيتنا • ولقد تمنيت أن ننصب منزلنا بقلب هذا الوادي ولا نفارقه حتى أجد متعتي في مطاردة هذه الحيوانات واصطيادها واللعب على أطراف جداول المياه المنسابة كما كنت أفعل مع أقراني من أطفال قريتنا ، كما أنني بدأت أحن الى زملائي الأطفال والى قريتي التي لم يسبق لي ان انفصلت عنها مثل هذه المدة الطويلة ولخمسة أيام متتالية •

في هذه اللحظة تحدث والدي بصوت عال موجها كلامه لوالدتي قائلا :

ـ حسب الاستفسارات التي أجريتها ممن صادفناهم في الطريق فاننا لسنا بعيدين عن الحدود • كما أن أماكن تواجد الجيش قد لا تكون بعيدة من هنا ، ولهذا عليك بالانتباه لأي أصوات بشرية ، واذا

شاهدت من بعيد أي شخص أو أشخاص فعليك أن تلفتي نظري بسرعة ٠

قال هذا الكلام ثم لمس جيبه وأخرج منه ربطة الحصى التي لا تخطئها عين والتي سلمتها له ضاربة الرمل في قريتنا ٠ وبعد أن اطمأن لوجودها أعادها ثانية الى مكانها ، بدأ ينتابني احساس بالخوف مخلوطا بحب الاستطلاع ٠ فمن ناحية كنت أتعجل رؤية هذا الجيش ، ما هو شكله ، وهل هم أناس مثلنا ؟ ومن ناحية أخرى كنت أخشى نتائج هذه المقابلة ٠ وبينما أنا أفكر في هذه الأشياء ناداني والدي فاقتربت منه ، قال : هل تعبت من المشي ؟ فأجبته بالنفي ٠ عندئذ نظر الي نظرة حانية لم آلفها من قبل خاصة وأنه لم يظهر لي عواطف الحنان والتدليل من قبل بل كان يعاملني وكأنني رجل مسؤول ٠ ثم بدأ يتحدث :

ـ صالح : أنت رجل مثل أعمامك وأجدادك وانني فخور بك ٠ والدليل على ذلك أنك تسير مسافات على أقدامك مثل والدك ، واليوم سوف لا تركب الجمل بل ستسير الطريق بكامله على قدميك ، فعليك بالسير خلف الجمل مباشرة ولا تتأخر عنه مسافة طويلة ولا تسير الى جانبيه ٠

فقلت : حاضر ، سلمني رسن الجمل وبدأ يسير بجانبي وهو يتحزم بثوبه جيدا ، ثم أمسك بسيفه بعد أن أخرجه من غمده قليلا وتحسس خنجره الذي كان مربوطا في وسطه وأمرني بالرجوع والسير خلف الجمل، عدت الى مكاني وبدأت أفكر في أسباب هذه التعليمات التي تصدر لي من والدي ولأول مرة منذ بدء رحلتنا ٠ وأخيرا اقتنعت بيني وبين نفسي بأن للأمر علاقة بموضوع الجيش الذي نتوقع مقابلته ، وقد ضاعف هذا الاقتناع في خوفي وترقبي ٠

لم يستمر الأمر طويلا ٠٠ كما ان والدي لم يكن في حاجة لتنقل له والدتي ما تسمعه من أصوات ٠ فقد تناهى الى أسماعنا أزيز الطائرات

من بعيد ثم بدأ يقترب شيئا فشيئا ، وكنا في ذلك الحين نسير في وسط الوادي ، فأسرع والدي بجر الجمل الى طرف الوادي ثم دخل به تحت شجرة كبيرة وتوقف عن المسير • وفي لحظات مرت طائرتان فوق الجبال التي كانت تحيط بالوادي ، واتجهت نحو الشمال ، وأثناء ذلك كان والدي يحرك شفتيه بثلاث كلمات : (يا حفيظ ، يا سلام ، يا لطيف) • وبعد مرور الطائرات واصلنا سيرنا الا أننا كنا نسير بأطراف الوادي وبالقرب من الأشجار الكبيرة ، ولم تمض دقائق على مرور الطائرات حتى سمعنا دويا هائلا بدأت الجبال تردد أصداءه ، وعلق أبي على ذلك قائلا :

ـ اما أن تكون الملعونة قد قامت بقصف بعض القرى والمواشي كما تفعل دائما ، واما أن تكون قد أصابتها مدفعية الجيش الموجود على الحدود وأسقطتها •

وبعد قليل استمر الدوي لمرات عديدة ، وهنا أكد والدي بأن الملعونة لم تصب ، ولكنها هي التي تقوم بالقصف ، ثم هدأت أصوات الطائرات الى أن اختفت تماما •

سرنا لما يقارب الساعتين ، كنت خلالها لا أفكر بشيء سوى الحرب والطائرات وأقاصيص القتال التي رواها لنا الجندي العائد من ميدان القتال قبل أيام • وأستطيع أن أؤكد بأن والدي ووالدتي أيضا لم يكن لديهما ما يفكران به سوى هذه الأشياء • وفجأة قطعت علينا والدتي حبل تفكيرنا عندما قالت بصوت مرتفع ، لم الفه منها أمام والدي : هناك جيش بالقرب منا ، ثم أشارت باصبعها ، وتركزت أنظارنا جميعا باتجاه اصبع والدتي ، ولأول مرة تقع عيني على المنظر الذي كنت أحلم برؤيته طويلا ، فقد شاهدت سفوح الجبل الذي أمامنا مليئة بالجنود الجالسين تحت الأشجار ، حتى لم تبق شجرة واحدة الا وكانت تحتها مجموعة من الجنود • وفي مكان مرتفع من الجبل ، وعلى رأس صخرة

ضخمة كان هناك حوالي عشرة جنود واقفين على أرجلهم وهم يلبسون الخوذات على رؤوسهم وفي أيديهم بنادق طويلة ، والأمر الذي لفت نظري أن ألوانهم بيضاء لم أشاهد مثلها من قبل ٠

لمحت كل هذه المناظر في لحظات قليلة ، وقد استرعى انتباهي ان الجنود الجالسين تحت الأشجار لم يكلفوا أنفسهم حتى عناء النظر الينا ، أما الجنود العشرة الواقفون فوق الربوة فقد كانوا يشيرون الينا بأيديهم باشارة يفهم منها أنهم يطلبون منا الرجوع والابتعاد عن هذا الطريق ٠ وهنا توقف والدي عن المسير ، وألقى بالرسن على الأرض ، ثم أدخل يده في جيبه وأخرج منها مجموعة الحصى المربوطة ، وبعد أن حل الرباط عنها وضعها في يده وبدأ يتقدم بخطوات ثابتة باتجاه الجيش ، والى ذلك الحين كان الجنود يومئون لنا بالابتعاد ٠ وهنا توقف والدي ورفع يده عاليا في الهواء وبدأ يلقي الحصى باتجاههم ، وفي لحظات انهمر الرصاص باتجاهنا ، وتراجع والدي جاريا بينما علت صرخة مدوية من والدتي ، وأمسك والدي برسن الجمل وبدأ يجره ويجري به بينما كنت أعدو الى جانبه ، وحانت مني التفاتة باتجاه الجيش ، فرأيت الجنود العشرة وهم يقهقهون ويتمايلون يمينا وشمالا وينظرون الينا ، لم يتوقف والدي من الجري ممسكا برسن الجمل ، وسلك واديا صغيرا يتفرع من الوادي الكبير ، وبعد أن اطمأن بأننا ابتعدنا بما يكفي أوقف الجمل تحت شجرة ظليلة وأبركه ثم أنزل منه والدتي واخوتي ليتفقد الأحوال ٠

تفقدني أولا فوجدني سليما ، ثم تفقد اخوتي فوجدهم لم يصابوا بمكروه ٠ ثم سأل أمي ، فاذا بها مصابة بشظايا صغيرة في مواضع مختلفة من جسدها حيث كانت تنزف دما ، كما وجد أن قربة الماء الكبيرة قد شقت الى نصفين وانساب ماؤها في الأرض بعد أن اخترقتها عدة رصاصات حيث كانت مدلاة على الجانب الأيمن من الجمل ٠ بعد ذلك تفقد الجمل

في كل أجزاء جسمه فوجده سليما ، فرفع يده الى السماء حامدا الله على السلامة ، ثم أعلن أنه سيوفي عائشة ضاربة الرمل حقوقها كاملة لأن الحصى المباركة قد ساهمت في انقاذنا بعد رعاية الله ، وطمأن والدتي بأن الجروح خفيفة وليس منها أي ضرر ، ثم خلع حذاءه ووقف باتجاه القبلة وصلى ركعتين لله ، بعد ذلك أوقد النار بسرعة وطلب من والدتي اعطاءه قليلا من السمن ، فوضعه فوق النار الى أن غلى ، ثم ملأ منه فنجان القهوة وأعطاه لها وقال : اشربيه دفعة واحدة ، ثم أعطاها فنجان آخر وقال لها ضعيه في الأماكن المجروحة وامسحيها به جيدا ٠

بعد ذلك أعلن والدي بأننا سنواصل السير وسنسير بسرعة لأننا سنأخذ طريقا بعيدا لكيلا نقترب من أماكن الجيش وهذا يحتاج يوما كاملا وأماكن المياه غير مضمونة كما أنه ليس لدينا ماء والقربة قد تلفت ، بدأ يحث الخطى وهو مطرق برأسه الى الأرض ، ويحرك شفتيه بالأدعية وبتلاوة (آية الكرسي) مرات عديدة ٠ وسرنا حتى منتصف النهار ، وفجأة توقف والدي عن السير معلنا أنه يستمع لأصوات بشرية ٠ ثم بدأ يستدير ويضع أذنه باتجاه الهواء عله يتبين الأصوات ، ثم واصل سيره بهدوء ، وبعد قليل أعلن أنه يشم رائحة النار ! ولم أستغرب من هذا لأنني ألفته أثناء رحلة الشتاء والصيف التي كانت تقوم بها قريتنا، وكان يصدف أن يعلن أحد الرجال بأنه يشم رائحة النار ، وبعد مسيرة طويلة قد تستمر لنصف النهار ، تصادفنا النيران المشتعلة اما على جذع شجرة هائلة هرمت وسقطت فأصبحت وقودا ، واما تصادفنا قرية يتصاعد الدخان من بيوتها البرمشية ٠

واصلنا طريقنا ، وسرنا لساعات طوال ونال منا العطش ٠ وكان والدي يطمئننا ويحثنا على التحمل ، وبين حين وآخر كنا نستمع لصرخات عالية تستمر لبعض الوقت ثم تتوقف ٠ ولم نكن في حاجة لنتبين بأن هناك مأتما في احدى القرى القريبة ، خاصة وان أصوات النواح والنائحات من الاصوات التي لا تخطئها الأذن لأي من سكان البوادي ٠

وبعد فترة لاحت أمامنا القرية ، ورغم أننا كنا نسمع الصراخ والنواح لاعداد كبيرة من النساء ، وهذا يدل بأن المتوفى قد يكون عزيز عشيرته ، الا أننا جميعا لم نخل من الفرح ، فقد بدأت أحس بأننا قد وصلنا الى بر النجاة بعد أن مررنا بتلك التجربة القاسية في الصباح منفردين ٠

آناخ والدي الجمل بالقرب من القرية ، ثم سار الى مكان تجمع الرجال ، فقام بعضهم باستقباله وسلموا عليه ، فوقف معهم لدقائق معدودات يتحدث اليهم ، ثم سار معهم الى مكان التجمع وهناك رفع يده بالفاتحة ، ولم يجلس كما هو المألوف في بيوت المآتم بل ظل واقفا يتحدث الى عدد أكبر من الرجال ٠ وفي الحال تحرك أحد الرجال الى منزل قريب، ولم يغب بداخله كثيرا حتى خرج وعلى أثره بعض النسوة اتجهن الينا مباشرة ، كما تحرك بعض الرجال باتجاهنا وهم مسرعون ، وعندما وصلوا الينا لاحظت القلق على وجوههم ويرددون عبارة (لا حول ولا قوة الا بالله) ثم يتفرسون في وجوهنا ٠ أما النسوة وبمجرد حضورهن الى مكاننا قمن يسألن والدتي عما أصابها من الرصاص ، وبالرغم من أن والدتي كانت في حالة شبه اغماء من اثر الشظايا التي أصابتها الا أنها وقبل الاجابة على استفساراتهن وجهت لهن سؤالا واحدا : من الذي توفي ؟ فأجبنها بأنه : (علي ود عثمان) ، وهنا انفجرت أمي تولول حتى غابت عن الوعي ، فقامت النساء بحملها وأخذنها الى أحد المنازل ، وفي تلك اللحظة ، وعندما شاهدت والدتي على هذه الحال بدأت دموعي تنهمر وبصمت ، لقد ظننتها مشرفة على الموت بسبب الشظايا التي أصابتها ، أما اخوتي الصغار فقد انفجروا بالبكاء وبصوت عال ٠

في هذه الأثناء كان الرجال نقلوا عفشنا ثم قيدوا الجمل وتركوه يتحرك باتجاه الأشجار الخضراء ٠ أما والدي ومعه المستقبلين فقد تحركوا باتجاه ديوان كبير مصنوع من جذوع الأشجار ومغطى بالبروش، نصب خصيصا لاقامة المأتم ، وكان مكتظا بالرجال ٠ وما ان دخل والدي

حتى أخلى له الرجال مكانا وأجلسوه ، ثم بدأ الرجال يحيونه واحدا تلو الآخر ، وبعد التحيات بدأوا يوجهون له الأسئلة والاستفسارات عن حادث اطلاق النيران الذي تعرضنا له ، وكان يجيبهم باسهاب ودون أن يغفل شيئا ، وهم في كل مرة يحمدون الله على سلامتنا • ثم بدأ والدي يستفسرهم عن المتوفى ، وسبب مرضه ، والمدة التي قضاها بفراش المرض ، وأثناء ذلك حضر الماء ثم القهوة والأكل ، ولم يمض على حضورنا ساعة حتى كان خبر الحادث الذي أصابنا قد انتشر في القرية كلها • وكانت تتقاطر أفواج من الرجال بين حين وآخر الى الديوان ثم يسلمون على والدي ويبدأون بتوجيه الأسئلة والاستفسارات ، ولم تنقطع الأحاديث والتعليقات والاستفسارات حول الحادث وعن الحرب عموما ، وما أصاب القرى الأخرى من قتل للمواشي والأرواح البشرية ، الا أثناء تأدية صلاة العصر والمغرب والعشاء ، وكانت اللعنات تنصب على الحرب وعلى الطائرات وعلى ايطاليا •

بعد تناول العشاء أحضر الرجال آلات الربابة (الطنبور) وهي آلة موسيقية تصنع محليا وشبيهة بالعود ، ولكنها تختلف عنه بأوتارها الخمسة المصنوعة من الأسلاك الرفيعة بدءا من (العصب) الذي يستعمل للعود ، وتستعمل هذه الآلة الموسيقية في الأفراح ، كان الرجال قد خلعوا عمائمهم وأسدلوا قماشها على رؤوسهم ، وهذه علامة من علامات الحزن الشديد ، ثم تناول أحدهم الربابة وبدأ يعزف عليها ألحانا حزينة • وبعد برهة تناولها آخر واستمر في العزف ، ثم ناولها لوالدي الذي كان معروفا ببراعته في عزف شتى الألحان الحزينة ، اعتدل والدي في جلسته ، ثم بدأت الألحان تنساب من بين أصابعه ، وأثناء ذلك كان يهز رأسه ، وشاهدت الرجال وكلهم صامتون لا تبدر منهم أية حركة سوى تحريك رؤوسهم مع الأوتار الى الخلف والى الامام • وفي تلك اللحظة شعرت بنوع من الفخر والاعجاب بوالدي ، وتمنيت أن أكون ببراعته عندما أكبر ، وقد اكتشفت أن والدي يجيد ألحانا غير تلك التي

كان يعزفها لنا من ربابته أمام منزلنا بالقرية ، في بعض الأمسيات عندما تكون النار موقدة تتصاعد منها ألسنة اللهب ، والقهوة تغلي على الفحم، كنا دائما في مثل تلك الأمسيات نطلب منه أن يعزف لنا ، فكان يستجيب في أغلب الأحيان ، وكان يسمعنا ألحانا شجية راقصة ، ثم يتوقف لشرب القهوة وأثناء ذلك يحكي لنا قصة ذلك اللحن ، فهناك لحن الفارس الذي خرج لرد الأعداء وهزمهم وعاد منتصرا وتستقبله النساء بالزغاريد ، وهناك لحن المحبين ، حيث أن الفتاة التي أرادت أن تخاطب حبيبها ولم تتمكن لحيائها من اظهار عواطفها أمام الناس عزفت له لحنا تطلب فيه أن يقابلها في غير هذا المكان لأن هناك ما تود أن تتحدث به اليه ، فلم يفهم حبيبها معنى اللحن • ولكن صبيا صغيرا كان حاضرا قد فهم اللحن وأنتظرها بالمكان الذي حددته • هذه وغيرها من الألحان بأقاصيصها المتنوعة اعتدنا سماعها من والدي ولم نمل السماع اليها اطلاقا • أما ألحانه الحديثة التي عزفها في المأتم فكانت تلك هي المرة الأولى لسماعها، وهذا زاد في يقيني بأن والدي يعرف كل شيء ، وليس هناك ما يجهله ، فهو يعرف كل سكان القرى ، ويعرف كل من يصادفه في الطرقات ، بل ويعرف كل الألحان ، وبالتأكيد هناك أشياء وأشياء يعرفها والدي وأجهلها أنا •

تناوب العازفون ولم يتوقف العزف طوال الليل ، ولا أدري متى توقفوا لأنني نمت وأنا جالس وسطهم ، ولم أستيقظ الا صباح اليوم الثاني ، فوجدت نفسي في منزل وبقربي والدتي وكثير من النسوة •

كانت والدتي مستلقية فوق السرير الخشبي ومجموعة من النساء كن يقمن بعملية جراحية لها ، في تلك الأيام لم تكن هناك مستشفيات ، أو غرف عمليات ، ومباضع معقمة ، ووسائل التخدير للتغلب على الآلام كما هو اليوم ، ولكن الانسان ، وفي كل العصور قادر على التكيف مع ظروفه وأوضاعه • ان أولئك النسوة كن يقمن بعملية جراحية لوالدتي، وان وسيلتهن الوحيدة كانت الابرة •• ابرة الخياطة الصغيرة ، كن

يضعنها على النار حتى يصير لونها أحمر وتكاد تنصهر ·· ثم يغمسنها في ماء ساخن ، ويقمن بمسحها في خرقة بيضاء ، بعدئذ تبدأ الواحدة منهن في غرس الابرة في أماكن الجروح في محاولة لاخراج الشظايا المغروسة في اللحم · ونفس هذا الأسلوب يتبعه القرويون لاخراج الشوكة عندما تنغرس في قدم أحدهم · وبالفعل نجحت تلك النسوة في اخراج الكثير من الشظايا من جسم والدتي التي كانت ممددة ودون أن تبدي حراكا أو تخرج تأوهات · والظاهرة الوحيدة لمعاناتها للآلام كانت في تقطيب وجهها أو العض على شفتها السفلى ، والمكان الذي يتم اخراج الشظية منه كن يضعن عليه قطرات من السمن الساخن ، وقد تخلصت والدتي من كل الشظايا بهذه الطريقة البدائية كما أن جروحها قد برأت · ولكن ، شظية ملعونة كانت مغروسة في عنقها ولم تتمكن النساء من اخراجها لحساسية الموضع ، وقد عانت بعد ذلك ولسنوات طويلة من هذه الشظية وما كانت تسببه لها من آلام مبرحة ·

لم أعرف أننا قد عبرنا الحدود منذ أيام ، وتجاوزنا حشود الجيوش المتحاربة ، الا اثر مشادة كادت أن تحدث بين والدي وبعض القرويين بالقرب من طوكر ، ففي أحد الأيام ، وبينما نحن نواصل سيرنا مررنا بالقرب من احدى القرى ، وكانت تتوسط القرية مجموعة من الرجال تجلس تحت شجرة ظليلة • وعندما تنبهوا لمرورنا أتى أحدهم باشارة للكلب الذي كان رابضا بجانبهم ، فانطلق الكلب باتجاهنا وهو ينبح ، توقف والدي عن السير وتناول حجرا وظل واقفا في مكانه الى أن اقترب الكلب منا ، وهنا قذفه بالحجر الذي أصابه في رأسه فوقع على الأرض ، وقبل أن يتمكن من الهرب عاجله والدي بضربة من عصاه الغليظة أحسست أنها قصمت ظهره وصار عاجزا عن الحركة ، وأصبح يعوي بطريقة شبيهة بالعويل ، وهنا ربط والدي ثوبه جيدا في وسطه وتحسس خنجره وسيفه وهو ممسك بعصاه ثم تحرك باتجاه الرجال الجالسين وهو يصيح بصوت عال : « اذا كنتم رجالا فلماذا ترسلون الكلب ، لماذا لا تأتون بأنفسكم لتجدوا نفس المصير الذي وجده كلبكم •

وفي الحال حدث استنفار في القرية وتقدمت مجموعة من الرجال باتجاه والدي وهم يصيحون : (صلي على النبي ، واستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ولا تتقدم خطوة) ، فلم يستمع والدي وظل سائرا باتجاههم ، وصاح رجل مسن : (عليك النبي ، عليك تاج السر المرغني

أن نتوقف في مكانك) ، فتقدم الرجال اليه وهم يعتذرون عما حدث • وبعضهم يوبخ صاحب الكلب على فعلته ، وطلبوا من والدي أن يجلس معهم قليلا ، ولكنه نظر اليهم جميعا والشرر يتطاير من عينيه ، ودون أن ينطق بكلمة أو يتحدث معهم ، قفل راجعا وأمسك برسن الجمل ثم واصل طريقه •

أصبت بصدمة من مسلك هذه القرية ، وكنت أقارن بين كل القرى التي اعتدت عليها حيث كان الرجال يستقبلوننا ويلحون علينا بالبقاء معهم ، وبين هذه القرية التي أرسلت لنا كلبها ليستقبلنا بالنباح ، وضاق صدري بسؤال طرحته على والدي : لماذا أرسلت هذه القرية كلبها الينا ؟ هل كان بينك وبينهم خصام سابق ؟

ـ لا يا ابني ، فلم يسبق أن تعرفت بهم دعك عن الخصام ، ولكننا الآن في بلد آخر ، والذي لا يعرفك لا يحترمك •

واسترسل والدي في الحديث طويلا ، وفهمت من حديثه بأننا قد تجاوزنا الحدود منذ أيام خلت وأصبحنا على مقربة من طوكر بالسودان

وبالفعل وصلنا الى محطتنا الأخيرة في نفس اليوم ، وما ان أنزلنا العفش من على ظهر الجمل حتى منعتنا والدتي من شرب الماء ، وأخرجت من احدى الحقائب بصلة وناولتها لوالدي الذي قام بتقطيعها ثم قسمها علينا وطلب منا أكلها • وبعد ذلك شربنا الماء ، وتفسيرهم لذلك أن البصلة تمنع الاصابة بأي عدوى من الأمراض الموجودة بالمنطقة •

المنطقة التي نزلنا بها في طوكر كانت منطقة زراعية ، فعلى مد البصر تشاهد مزارع القطن والذرة والدخن ، وقد لاحظت منذ هبوطنا بهذه القرية الزراعية أنها تختلف عن كل القرى التي اعتدت عليها ، فلم يتحرك أحد لاستقبالنا رجالا كانوا أو نساء ، كما لم يتقدم أحد لأخذ الجمل ليرعى ، بل قام والدي بنفسه بانزال العفش ثم قامت والدتي

بنصب منزلها من البروش لوحدها ، وأثناء ذلك كنت أشاهد مجموعات من البشر تتحرك هنا وهناك دون أن يعيروننا اهتماما ، وقد أصبت بالانقباض من هذا المسلك والاستقبال المتسم بالتجاهل والذي أشاهده للمرة الأولى في حياتي ٠

مجتمع القرية الزراعية كان مجتمعا غير متجانس ، فلا تجمع بينهم اللغة أو الأصل أو المنبع ، ففيهم الأرتريون والفلاته ومن مختلف قبائل البجه السودانية ، والقاسم المشترك بين كل هؤلاء هو العمل الموحد الذي يؤدونه ، ونوع العمل الذي تؤديه القرية بكاملها ، نساء ورجالا وصبيانا هو جني محصول القطن والذرة ثم قيام الرجال بتأجير جمالهم ونقل المحصول الى سوق طوكر ٠

منذ اليوم الثاني لوصولنا ، وفي الصباح الباكر تحركت والدتي مع موكب النساء والصبيان المتجهين الى المزرعة وقمت أنا واخوتي بالتحرك خلفها ، أما والدي فلم يمارس « لقيط » القطن لأنه يعتبر ذلك من عمل النساء والأطفال ، واكتفى بالاشتراك في جمع الذرة وتأجير جمله وحمل المحصول الى السوق ٠ لم تكن لنا تجربة سابقة بلقيط القطن ، ولكن خلال أيام قلائل أجدناه اجادة تامة ، فقد كنا نجمع القطن ثم نخلطه مع الكمية التي تجمعها والدتي ، ثم نذهب الى (التايا) وهي مبنى كبير من الأخشاب وقصب الذرة ، وهناك تنتظر مجموعة من الرجال تستلم القطن من كل فرد وتدفع به للميزان ، ثم تدفع في يد العامل الزراعي أو العاملة بعدد من الملاليم حسب أرطال القطن التي جمعها ، وكانوا يدفعون مليما واحدا لرطل القطن ٠ ولم أحس بالاستغلال أو الغبن الا عندما كنت أشترك مع والدتي في جمع الذرة ، فقد كنا نجمع منه كمية كبيرة ونحملها الى (التايا) وعندئذ يتم استلامها ويقسمونها على أربعة أكوام ثم يستلمون الثلاثة أرباع ويرمون لنا الربع وهو أجرتنا ، وكنت أغضب لذلك ، فلم يستعملوا الميزان أو يحسبون قناديل الذرة ، بل

يأتي أحدهم بعصى كبيرة يمررها على كوم الذرة فيقسمه نصفان ، ثم يمررها مرة أخرى فيقسمه على أربعة ، ويزيح الكوم الرابع اليك لتستلمه .

في هذه القرية الزراعية افتقدت الكثير من المباهج وحياة اللهو التي اعتدتها في قريتي . فقد أصبحت بعيدا عن أقراني أطفال القرية، واللعب في الأودية وعلى رؤوس الأشجار ، فأطفال القرية الزراعية يعملون مثل الكبار في جني المحاصيل ، وحتى الكبار لا يعقدون مجالس الانس المسائية كما كنت أراهم في قريتي . فهنا ، الكل مشغول بنفسه وبعمله طوال النهار ، يأوون الى فراشهم مبكرا عندما يأتي الليل . ومما زاد من نفوري من الحياة في القرية الزراعية ، ان أطفالها يتحرشون بكل قادم جديد ويبادرونه بالعداء ، وقد مررت بهذه التجربة وعانيت منها كثيرا ، ففي أحد الأيام وعندما كنت واقفا في منتصف القرية مرت بجانبي مجموعة من أطفال الفلاته ، ونظر أحدهم الي وقال لي : (خاصاوي) ثم ضج الآخرون بالضحك ، ولم أفهم ماذا يعني بهذه الكلمة ، الا أن أحد الأطفال تطوع وفسر لي معنى الكلمة قائلا : انه يشتمك فلماذا تسكت .

ـ يشتمني ؟ وبدون أي سبب ! اذن فهو يحتقرني . ولم أتردد للحظة بل جريت باتجاهه واشتبكت معه بالأيدي وألقيت به أرضا وأخذت كمية من التراب وضعتها في فمه وعينيه وهو يصرخ ، ولم أتركه الا بعد أن شاهدت رجلا يجري باتجاهنا ، وتكررت الشتيمة من أطفال آخرين كما تكررت مشاجراتي معهم ، ولم تتوقف الا بعد أن اشتهرت بينهم بأنني لن أغفر الشتيمة ، وبعدها لم أعد أسمع من يعيرني بكلمة (خاصاوي) بل ان الكثيرين منهم أصبحوا أصدقاء لي ولو أنني لم أحس تجاههم بنفس المشاعر الصافية التي كنت أتعامل بها مع أقراني من أطفال قريتي ، بل تعلمت منهم شيئا لم أكن أعرفه في قريتي وهو السرقة . فقد كنا في الأمسيات نخرج الى المزارع ونقوم بغزوات لأماكن

زراعة البطيخ والشمام والخص ، ولا نأخذ من هذه الأشياء شيئا لمنازلنا ولكننا نأخذ نصيبنا منها بداخل بطوننا ونحن مختبئون وسط شجيرات القطن والذرة ، ونعود الى بيوتنا ونحن عازفون عن تناول وجبة العشاء لأن بطوننا تكون قد امتلأت بما تمكنا الحصول عليه بطيخا كان أو خصا أو شماما • أيضا تعلمت من هؤلاء الأطفال لعب القمار • ففي أثناء قيامنا بجني القطن كنا نتجمع ثم نبدأ لعب القمار بكمية القطن التي جمعناها ، والفائز يستولي على كل الكمية التي جمعها أقرانه ثم يذهب بها ، وبعدها ينتشر الخاسرون ليجمعوا كمية أخرى من القطن ويقامرون بها من جديد • ولم أقلع عن ممارسة هذه اللعبة الا بعد ان اكتشفت ذلك شقيقتي ووشت بي لوالدها ، ويومها نلت (علقة ساخنة) من والدي لن أنساها ، وكلما كنت أفكر في مشاركة الأطفال في لعب القمار كنت أتذكر ما أصابني من ضرب مبرح من والدي •

كانت حياتنا بالقرية حياة رتيبة لا تخرج عن دائرة العمل اليومي الذي نمارسه وهو جني المحاصيل • ولم أكن الوحيد الذي يحس بالضيق من هذه الحياة ، بل ان والدتي كانت أكثرنا شوقا للرجوع الى قريتها • فقد أجلستني في أحد الأيام بجانبها وأخبرتني أننا سنعود الى أهلنا بعد انتهاء الموسم الزراعي والذي لم يتبق منه الا شهران ، وقد فرحت لهذا النبأ وبدأت أسرح بخيالي بعيدا الى قريتي وما فيها من مباهج ، وكنت أحسب الأيام والليالي وأتعجل الرحيل والعودة الى القرية ، ولم أكن أدري بأن القدر يخبىء لي رحلة أخرى ولكن ليست باتجاه قريتنا •

في أحد الأيام أعلن في القرية بأن موسم جني القطن قد انتهى ، وفي مساء ذلك اليوم قامت مجموعة من المزارعين باشعال النيران في أعواد شجيرات القطن الجافة ، وفي الليل المظلم كنا نشاهد ألسنة اللهب تنتشر على مد البصر وفي كل الاتجاهات بحيث كانت القرية محاصرة بالنيران من كل الجوانب ، ومنذ صبيحة اليوم الثاني لم يعد هناك من يتحرك باتجاه المزارع ولكن الكل مشغول بالاستعداد للرحيل ، وازدحم دكان

القرية بالمشترين للملابس والبن والسكر ، وآخرون يحزمون أمتعتهم • ومن جانبي كنت أحس بسعادة وفرح خاصة بعد أن شاهدت والدتي وهي تشتري هدايا صغيرة لقريباتها وصديقاتها بالقرية •

في عصر هذا اليوم عاد والدي من السوق محملا بما اشتراه من ملابس وبن وسكر وبخور وعطور ، فازداد سروري وحبوري ولم يعد يعاودني أي شك بأننا سنترك طوكر ونتوجه الى أهلنا وأقراننا وقريتنا المحبوبة • ولكن ، ما ان استراح والدي في مجلسه على رأس القهوة وشرب فنجانه الأول حتى فجر قنبلته التي أطارت صوابي • فقد تنحنح ثم نظر الي والى والدتي وقال لها : سنرسل صالح الى عمه ببورتسودان ليدرس القرآن ويتعلم ، وسوف آخذه غدا الى السوق حيث اتفقت مع أحد أصدقائي ليحمله باللوري الى هناك ، أما نحن فسوف نتحرك الى بلادنا بعد غد •

وقع هذا الكلام كالصاعقة فوق رؤوسنا • فمن جانبي أخذت برهة من الوقت تنتابني أحاسيس غير واضحة •• فهي مزيج من الدهشة والغضب والحزن والخوف وأنا أنظر الى والدي ، فأشاح بوجهه عني لكيلا تؤثر نظراتي في قراره النهائي الذي اتخذه • أما والدتي فقد لاذت بالصمت ، ثم بدأت الدموع تنهمر من مقليتها ، فهي تواجه أمرا جللا ، فابنها صالح لم ينفصل عنها يوما واحدا منذ أن ولدته ، وقد اعتادت أن تراه طوال النهار ثم عندما يأوي لفراشه في الليل •• وتتفقده أثناء الليل لتطمئن أنه على ما يرام •• وفي الصباح عندما تصحو من نومها تنظر اليه ثم الى اخوته ويعلوها الفرح عندما تراهم جميعا يغطون في نومهم • والآن وفجأة تهدد بانفصاله عنها ، وقد يكون الانفصال الأبدي ، خاصة وأنه ما زال صغيرا ، وقد يمرض ولا يجد من يعتني به ، وهنا بدأت تجهش بالبكاء وشاركها اخوتي الصغار دون أن يعرفوا سبب بكائها ، فزجرها والدي وهو يحاول أن يطمئن نفسه قبل تطمينها قائلا :

ـ عجيب ! انكن حقا ناقصات عقل ودين ، فبدلا من أن تفرحي بأن

ابنك سيتعلم وستفاخرين به نساء القرية ، بدلا من ذلك تذرفين الدموع ؟ هل تريدين اعادته ثانية الى بطنك ! ألم تسمعي سيرة والده الذي ترك القرية صغيرا وعندما كان في سنه ودون أن يرافقه أحد ، وتجول وجاب البلاد ؟ ألم تسمعي عن رحلاتي الى كرن وطوكر وبورتسودان ولمرات عدة ولم يبلغ عمري الخامسة عشر ؟ يومها لم تبك والدتي ولم ينزعج والدي ، خاصة وأنني كنت صورة طبق الأصل منه • ألم تسمعي عن أخبار سفره الى الحج أيام الشريف حسين وكيف كان الحج مغامرة لا يلجأ اليها الا المؤمنون الصابرون ، يومها كان والدي هو أول رجل يقوم من قريتنا بتأدية فريضة الحج ، وقد غاب شهورا عديدة حتى يئسنا من عودته ، ولكنه عاد أخيرا وحكى لنا عن أهوال البحر وعن العصابات التي اعترضت طريقه محاولة تجريده من ماله ولكنه تغلب عليهم بفضل شجاعته • ألم تسمعي بكل ذلك خاصة وان القرية بكاملها تعرفه ، ان ابني صالح ليس أقل شجاعة من جده ومن والده ، ولو أنه الآن ذاهب الى مدينة ليس بها مخاطر وسوف لا يتعرض لما تعرض له والده وجده •

استمعت لحديث والدي باهتمام وبدأت أتصور مغامراته ومغامرات جدي مما أنساني موضوع رحيلي الى بورتسودان • أما والدتي فقد لاذت بالصمت رغم ان دموعها لم تتوقف ونظراتها مركزة باتجاهي •

وبالطبع لم تحاول مجادلة والدي أو اقناعه بالعدول عن رأيه • فمن خلال معاشرتهما الطويلة تعرف بأن قراراته غير قابلة للنقض أو المراجعة • وفي ذلك المساء أوينا الى فراشنا مبكرين على غير العادة ولكنني لم أذق للنوم طعما ، فقد تبعثرت أفكاري بين قريتي التي كنت أتشوق للعودة اليها وأتعجل الرحيل لهذه الغاية ، وبين استمراري في الرحيل الى عالم مجهول •• عالم المدينة الكبيرة التي سمعت والدي يتحدث عنها كثيرا في مناسبات عدة ، وبين حين وآخر كنت أسمع نحيب والدتي بصوت مكبوت ، أما والدي فلم ينم تلك الليلة ، كان يتقلب

يمينا ويسارا في مرقده ولم أسمع شخيره المعتاد ، والوحيدون الذين نعموا بالنوم العميق كانوا اخوتي الصغار الذين لم يفقهوا شيئا مما يدور من حولهم ٠

في الصباح كانت القرية الزراعية في حركة دائبة ٠ فالكل مبتهج ومسرور بعد ان عمل بجد واجتهاد طوال الموسم وحصل على كمية من الذرة تكفيه حتى الموسم الجديد ، كما حصل على كمية من الجنيهات مكنته من شراء الملابس والضروريات وتبقى منها القليل في جيبه ٠ وها هم الجميع يستعدون للرحيل الى أرضهم وقراهم كل يمني نفسه بفترة من الهدوء والراحة والاسترخاء حتى حلول الموسم القادم ٠ أما في بيتنا فقد كان الوجوم يخيم على كل الوجوه ٠٠ حتى اخوتي الصغار شعروا بحدوث شيء غير عادي ولهذا لم يستمروا في ضجيجهم الذي اعتادوا عليه في الفترة الصباحية ، وكانت والدتي تعد طعام الافطار وتنظر باتجاهي من حين لآخر ثم تنساب دموعها فتمسحها بطرف ثوبها ٠ أما والدي فقد كان جالسا يشرب قهوته وينظر بعيدا ٠ وكان الفطور دسما في ذلك اليوم ، فقد أعدت والدتي عصيدة كبيرة وعليها كمية من اللبن ، وفي منتصفها حوض مليء بالسمن الزكي الرائحة ، وبعد أن أخذنا ما يكفينا منها قدمت لي كمية من اللبن فشربت وكلما هممت بترك اناء اللبن كانت تستزيدني حتى أتيت على اللبن بكامله ٠ بعدئذ أحضر والدي جمله ثم بدأنا نستعد للتحرك ، مرة أخرى بدأت والدتي تجهش بالبكاء وبحرقة لم تتمكن أن تكتم صوتها حتى ارتفع وأصيبت بحالة هستيرية وبدأ جسمها بكامله يهتز ، وشاركها اخوتي الصغار في النواح وبصوت عال ٠ أما أنا فقد كنت واجما وفي حالة أشبه بالذهول ، وحين جر والدي رسن الجمل وأمرني بالتحرك خلفه فانني لم أتمالك نفسي وانفجرت باكيا ، لحظات الفراق التي لم تدم طويلا خلتها وكأنها دهرا ، ومنظر والدتي الباكية ، واخوتي الصائحين وبكائي أمامهم كالطفل الصغير ، ان هذا المنظر لم يفارقني لشهور ، وكنت أجهش بالبكاء كلما استعدت في ذاكرتي احداث ذلك الصباح حتى أثر هذا على

عيوني ، لأنه لم يمر يوم دون أن أنزوي في أحد الأركان وأظل أبكي حتى تجف دموعي ٠

ما ان ابتعدنا عن القرية حتى امتطى والدي الجمل وأركبني خلفه، ثم دخل معي في حديث طويل بدأه قائلا :

ـ صالح ، ان والدتك لها الحق أن تبكي لفراقك ، فليست هناك أم ترضى أن ينفصل عنها ابنها ، وحتى أنا لا أرضى انفصالك عنا ولا للحظة ، ولكني أتحمل ألم فراقك دون أن أبكي ، فالرجال لا يبكون ، ولكنهم يتألمون بصمت ، ولهذا فهم يعانون أكثر ، عكس النساء فهن يبكين ويولولن وبالتالي يخففن من الآلام بهذه الطريقة ، كما قلت لك أنني لا أرضى بابتعادك عنا ورغبتي أن تكون دائما بجانبي خاصة وأنك ابني الأكبر وفي مكانة أخي ، فأنت تعرف أنني وحيد ومولود وسط عشرة من البنات وليس لي أخ سواك ، ولكن ، كل هذا لا يساوي شيئا بالنسبة لمستقبلك ، انني أفكر بمستقبلك ، ففي زمننا وزمن آبائنا وأجدادنا لم نهتم بالتعليم لأننا لم نكن في حاجة له ٠ أما الآن فقد بدأ الزمن يتغير وأصبح المستقبل للعلم والمتعلمين ، انني سافرت كثيرا كما تعلم ، وشاهدت كيف يعيش المتعلمون بالمدن ، وان حياتنا صعبة وشاقة اذا ما قارناها بحياتهم ٠ انني لا أريد لك حياة مثل حياتنا ، بل أريدك أن تتعلم وبالتالي تعيش مثل حياة المتعلمين بالمدينة الذين شاهدتهم بملابس نظيفة يخلعونها قبل أن تتسخ يرتدوا ثيابا أخرى غيرها ٠٠ ويأكلون أنواعا مختلفة من الأكل في كل وجبة ، وقلما تجد جيوبهم خالية من القروش فهم يتقاضون مبالغ كبيرة من المال في نهاية كل شهر ٠٠ ويرسلون بأبنائهم الى المدارس بملابس نظيفة وجديدة ٠٠ وان زوجاتهم يرتدين أفخر الملابس ويضعن كميات من الذهب في أيديهن وأصابعن وآذانهن وأنوفهن ٠٠ ليت والدي كان قد أدرك كل هذا وأرسلني للتعليم ، لو حدث هذا لكان الأمر اليوم مختلفا ولما اضطريت للانفصال عنا وعن والدتك ، بل كنت اليوم بجانب والدتك ووالدك واخوتك

بالمدينة ولذهب للمدرسة دون أن تضطر للانفصال عنا ٠

وهنا أخرج والدي زفرة من أعماقه واسترسل في الحديث وصوته يعبر عن هيامه بحياة المدينة التي يتحدث عنها ، وتبرمه بحياة القرية الشاقة ، ثم استمر قائلا :

ـ هل سمعت يا صالح ؟ ان هذه هي الحياة الحقيقية ، وانني أحلم بأن تتعلم حتى تكون واحدا من أولئك الذين يعيشون حياة سعيدة ٠٠ وتتقاضى مبلغا كبيرا من المال شهريا ٠٠ ويومها سأكون قادرا على السفر الى الأراضي المقدسة لأداء الفريضة ٠٠ ووالدتك التي تركتها تبكي في هذا الصباح ستأسف على بكائها لانك ستعمل لها مصاغا من الذهب وستكسوها الملابس الحريرية ، وعندها ستشكرني من أعماقها وستعرف أنني أحسب لمستقبلك ومستقبلها أكثر من تفكيرها المحدود ٠

بعد ذلك استمر والدي بنصائحه قائلا :

ـ عليك بالصلوات الخمس ، وعندما تأوي الى فراشك فاقرأ الفاتحة والمعوذتين وقل هو الله أحد ، ثم نم بعد ذلك دون أن تتحدث مع أحد ، بعد المغرب لا تغادر المنزل ، واحفظ القرآن وأكثر من تلاوته ٠

عندما وصل الى هذا الحد من النصائح ، أخرج والدي (حجابا)

من جيبه وناولني اياه وطلب أن ألبسه في ذراعي الأيمن وان أحافظ عليه جيدا حتى لا يضيع ، كما طلب مني المحافظة على الأحجبة (التمائم) المعلقة برقبتي التي يربو عددها على الثلاثين ، والى هنا سكت والدي عن الحديث ، بينما بدأت التفكير في كل ما قاله لي ، ولبرهة من الوقت نسيت لحظات الفراق الأليمة ونواح والدتي واخوتي واتجهت بكل تفكيري الى العالم الجديد ٠٠ عالم المدينة ، الذي رسمه لي والدي ٠٠ وذهبت بعيدا بخيالي الى المستقبل وقد حفظت القرآن وتعلمت ثم حققت

كل أحلام والدي ، وعندئذ انتابني شعور بالرضا وابتسمت بسمة عريضة ، ولكني فجأة عدت الى عالم الواقع ، وتذكرت كل أحداث الصباح ، ثم قريتي التي أرحل باتجاه معاكس لها والتي قد لا أراها ثانية ، وهنا شملني احساس بالكآبة والحزن ، ودارت برأسي أسئلة كثيرة وددت أن أطرحها على والدي ، الا أنني لذت بالصمت خوفا من أن تخونني شجاعتي وأنفجر باكيا ، فمنذ ساعات قال والدي ، ان الرجال لا يبكون ولكنهم يتألمون بصمت ، وربما كان بهذا الحديث يشير الى بكائي غير اللائق في هذا الصباح ، ورغم أنني بكيت رغما عني ، فربما يحدث هذا مرة أخرى ، اذا تحدثت وبالتالي يؤدي لغضبه • اذن فمن الخير أن أصمت حتى أؤكد له أنني أيضا مثله أتألم بصمت ولا أبكي مثل النساء •

قبل الظهر بقليل وصلنا الى السوق وتوجهنا الى مكان صديق والدي الذي سيأخذني الى بورتسودان ، وقد استقبلنا الرجل مرحبا ثم أخذنا الى أحد المطاعم لتناول طعام الغداء ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أزور فيها سوق طوكر وأعرف بأن هناك مكانا لبيع الطعام ، لهذا كنت أعيش حالة اندهاش دائمة ، فكل شيء جديد بالنسبة لي ، لهذا كنت متلهفا لتذوق الطعام ، وما ان جلسنا ، حتى صفق الرجل بيديه فجاءه عامل المطعم يحمل أكوابا من الصفيح مليئة بالماء البارد ، فطلب منه ثلاثة صحون من الطبيخ مع ثلاثة أرغفة ، ايضا كانت هذه هي المرة الأولى التي أتذوق فيها طبيخا ورغيفا ، ولكني لم أستسغ مذاق هذا الأكل واشتقت لعصيدة والدتي ، ثم كان الشاي الاحمر بعد الطعام ، واستسغته لأنني شعرت بمذاق السكر فيه وتمنيت أن يطلبوا لي منه قدحا كبيرا وليس هذا الكوب الصغير الذي ينتهي برشفتين أو ثلاث •

بعد تناول الطعام والشاي أعلن الرجل بأن وقت رحيلنا قد حان فيجب أن نتحرك الى مكان اللوري . وهنا بدأ قلبي يدق بعنف •• اذن

فقد حانت لحظة الفراق الثاني ·· ففي الصباح انفصلت عن والدتي واخوتي والآن سأنفصل عن والدي ، وهنا بدأت عضلات وجهي تتحرك، تتشنج تارة وترتخي تارة أخرى ، وأنا أحاول التشاغل بالنظر بعيدا كي لا يفلت الزمام مني وأبكي ، وما ان اقتربنا من مكان اللوري حتى ركزت انتباهي على هذا الجسم الغريب الذي طالما سمعت عنه كثيرا ولم أشاهده من قبل · اللوري الذي سمعت أنه يحمل كميات من « الجوالات » المليئة بالذرة ، وعددا كبيرا من البشر ، ويسير بسرعة أكبر من سرعة الحصان ، ها هو رابض أمامي ، وبعد قليل سأستقله الى بورتسودان · وقف والدي بجانب اللوري ويمم وجهه شطر القبلة ، ثم رفع يديه الى السماء عاليا وبدأ يحرك شفتيه بالدعاء ، بينما أمسك الرجل بيدي ودفع بي فوق اللوري وجلس بجانبي ، وعندما تحرك اللوري لم ينطق أبي الا بكلمة (في حفظ الله ورعايته) قالها بصوت عال ثم تحرك باتجاه جمله ، أما أنا فلم أتمالك نفسي وبدأتَ أبكي بصوت منخفض ، ولم أكف عن البكاء الا عندما شاهدت البيوت والأشجار وخلتها تجري الى الوراء بينما اللوري يجري بنا الى الامام ، وبدأت أفكر كيف تحدث مثل هذه الأشياء الغريبة ·

هذا هو يومي الأول بمدينة بورتسودان ، كنت في حالة انبهار دائم، فكل شيء بالنسبة لي يعتبر اكتشافا جديدا ، فاللوري الذي كنت أعتبره عالما من الطلاسم أشاهد العشرات مثله دون أن يلتفت اليها الناس ·· وعربات صغيرة كثيرة تنطلق بالشوارع ·· والدراجة التي أشاهدها للمرة الأولى ، أرى الاطفال من أمثالي يركبونها وينطلقون بها مع أنني كنت أخشى الاقتراب منها · الناس كثيرون وملابسهم نظيفة ، كما قال والدي ، ولكنها تختلف عن ملابسنا · أما المنازل فكثيرة ومتلاصقة وليس بها منزلا من البروش مثل منازلنا بالقرية ·

الأشياء التي شاهدتها بداخل المنزل ، ومنذ الوهلة الأولى ، جعلتني أحس بالفارق الكبير بين الحياة بالمدينة والقرية ، فالماء الذي تجلبه والدتي من البئر أو الترعة أو الوادي وفي قربة كبيرة تحملها على ظهرها ، أراه هنا موجودا داخل المنزل ، فما عليك الا أن تلف رأس الماسورة الى اليسار حتى يتدفق الماء الصافي الذي لا يحتاج للتنقية ، وتضغط زرا ملصقا بالحائط الى تحت فيتملىء المنزل نورا ويضيء بكامله ، وعندما تضغط نفس الزر الى أعلى يسود الظلام أرجاء المنزل · بالمنزل أسرة كثيرة من الخشب والحديد وليس سريرا كبيرا واحدا يحمل الأسرة بكاملها كما ألفت بقريتنا ، وان هذه الأسرة كلها مفروشة بمراتب وأغطية بيضاء وملونة · وعجبت لهذا الغنى الفاحش ، فهنا

يكسون الأسرة بأحلى الأقمشة بينما في القرية تشاجر والدي مع والدتي لانه عجز عن احضار ثوب واحد لها لتلبسه • النساء بداخل المنـــزل يتحركن وهن يلبسن الفستان فقط ورؤوسهن عارية ، وهذا أمر لا يمكن أن يحدث بقريتنا لأنني لم أشاهد لا والدتي ولا أي من قريباتي بمثل هذه الملابس ، ولهذا كنت أخجل من النظر اليهن ، وقد لفت نظري خواتم الذهب على أصابعن وكذلك الأقراط الذهبية على الآذان •• وقلت في نفسي : كم كان والدي صادقا عندما وصف لي حياة المدينة !

أما الأكل فقد كان كثيرا ومتنوعا ولذيذا • ففي أول وجبة أتناولها في منزل عمي وضعوا أمامنا صينية مليئة بالصحون المليئة بأطعمة لم أميز منها سوى صحن اللحم ، وفي أطرافها كمية مـــن الخبز ، وجلس الجميع من حولها وبدأوا يتناولون الخبز ، فشاركتهم ، وقبل أن أمد يدي الى الصحن قلت بصوت مرتفع : (بسم الله) وكنت الوحيد الذي يبدأ طعامه باسم الله ولهذا لاحظت بعض الابتسامات ، وبدأت أسرح وأمرح وسط الصحون وبالذات صحن اللحم دون أن أكترث لما يفعله الآخرون • وبعد فترة بدأ الجالسون ينفضون من حول الصينية واحدا تلو الآخر حتى أصبحت الوحيد الذي انفرد بها ، وكان هذا لسببين : فأولا ان تقاليد القرية لا تسمح للصغير أن يترك المائدة قبل الكبار حتى ولو شبع ، وثانيا أليست هذه الصينية من نصيبنا ، وهي ما زالت مليئة بالأكل فلماذا نتركه ؟ ولهذا استمريت في ابتلاع كميـــات غير محدودة وشاهدت عيونا تنظر باتجاهي وكأنها تستنكر شيئا لا أعرفـــه ولهذا لم أكترث اليها حتى أتيت على آخر قطعة خبز وآخر قطعة لحم موجودة بكل الصحون ، وبعد ذلك لم أغسل يدي كما يفعل الآخرون ، فهذه من عادات المدينة ، ولهذا مسحت فمي بيدي اليمنى ثم مسحت اليد اليمنى باليسرى ومررتها فوق وجهي ثم فركت ذراعـــي الأيمـــن والأيسر ، وعندئذ لم يتمالك البعض نفسه وبدأ يضج بالضحك حتى تقاطرت الدموع من عيونهم • أما أنا فلم أدرك أسباب هذا الضحك ،

ولكن عندما رأيت الجميع ينظرون باتجاهي وبعضهم يقهقه ضاحكا والآخرون يبتسمون ، علمت بأن الأمر يخصني ولهذا غضبت وظهر العبوس على وجهي وتحركت بعيدا عن الصينية ، وفي نفسي غصة لأنني شعرت بأنهم يحتقرونني والا لما ضحكوا بدون سبب • وهنا أمسك عمي بيدي وأخذني الى ركن من المنزل وبدأ يشرح لي آداب الأكل وغسل اليدين قبل الأكل وبعده ، وقد كان يتحدث لي بتودد لأنني كنت ضيفا • أما في الايام اللاحقة فقد استعمل معي وسائل العنف الممقوتة متصورا أنه يعمل لتأديبي وتهذيبي مع أنه ترك في نفسي جروحا لم تبرأ •

من المفارقات العجيبة ، أنني في الوقت الذي كنت أندهش أمام كل شيء في المنزل لأنه جديد بالنسبة لي وأستغرب أحيانا وأستنكر أحيانا آخرى لأي حركة يأتي بها سكان المنزل لأنني غير معتاد عليها ، في نفس الوقت لم أكن أدري بأن سكان المنزل جميعهم كانوا يستغربون هم أيضا ويندهشون بل ويستنكرون كل ما يبدر مني من حركة أو كلمة ، لأنه أمر غير مألوف لديهم • بل الأدهى والأمر أنني كنت أمامهم بمثابة (المسلسل السينمائي) الذي يتفرجون عليه مجانا ، ودون أن أدري • وكنت مثار اهتمامهم في الوقت الذي كانوا هم أنفسهم مثار اهتمامي • في المساء عندما استعد للنوم ، كنت أجلس وسط السرير ثم أخلع قميصي وسروالي وأطويهما جيدا وأضعهما تحت المخده وأغطي جسمي بثوب الدموريه بعد أن أكون قد تعريت من كل ملابسي تماما ، بعد ذلك أرفع يدي الى السماء وأقرأ الفاتحة والمعوذتين وقل هو الله أحد ثم أمسح جسمي بيدي وأتغطى بالثوب وأمتنع عن الكلام وعن الاجابة على أي نداء أو كلام ، أثناء كل هذه الحركات ؟ فقلت : ان والدي كان يفعل هكذا وهو الذي علمني ذلك ، وفي أحد الأيام ، بعد تناول طعام الغداء ، جلس عمي مع بعض أصدقائه يشربون الشاي ، أما النساء في المنزل فقد كن جالسات سويا يثرثرن بأحاديث متنوعة ، فقمت بدوري وجلست وحيدا وثارت أشجاني وتذكرت رفاق القرية ، وهنا انطلقت

أغني وبصوت رخيم عال احدى الأغنيات التي حفظناها في القرية ، وهي أغنية غرامية على لسان زوجة أحد القرويين الذين ساق الايطاليون الى التجنيد الاجباري زوجها في ليلة الزفاف ثم الليالي التي تلتها ، وكيف كانت تحس بالدفء بجانبه في السرير ، ثم تدعو الله ان يكتب على الايطاليين حياة التوحش والحرمان التي يكابدها ، وجدت تلك الأغنية صدى في نفسي في تلك اللحظات ولهذا استمريت في ترديدها وتنغيمها بصوت عال ، وأثناء ذلك تلفت لأجد النساء يتغامزن وينظرن باتجاهي وعلامات الخجل ترتسم على وجوههن ، أما الرجال فقد سكتوا عن الحديث وركزوا كل اهتمامهم للكلمات التي أرددها دون وعي ، لأنني لم أكن أفقه شيئا عن المسائل التي تتحدث عنها تلك الأغنية • وبعد الاستماع الطويل صاح عمي بصوت عال : صالح : « اسكت يا قليل الأدب » ، فسكت ونظرت اليه والى الرجال ، ثم تلفت باتجاه النساء وأنا حانق ، وقمت من مكاني وانتقلت الى ركن منزو بطرف المنزل وجلست أفكر في الأسباب التي أغضبت عمي وجعلته يصفني بقلة الأدب ، مع أنني لم أقم بشيء مخل بالآداب ، وان انس فلن أنس ذلك اليوم الذي ألهب فيه عمي ظهري بالكرباج وكان هذا يمثل المرحلة الثانية من عملية (تأديبي) و (تهذيبي) بالقوة ، فقد كانت المرحلة الأولى بالكلمات العنيفة ، فبعد مرور عشرة أيام من وصولي لبورتسودان تعرفت على عدد من الأطفال وكونت صداقات من بينهم • وفي احدى الأمسيات كنت ألعب مع هؤلاء الاصدقاء من الأطفال بالشارع بالقرب من منزلنا ، ولمحت من بعيد بنت الجيران وهي مقبلة باتجاهنا ، وهنا طرأت لي فكرة وهي أن ننادي تلك البنت لنقيم عرسا ، وصارحت الأطفال فوافقوا على ذلك ، واقترحت أن أكون العريس وأتزوج من هذه البنت ، وفي الحال ناديناها فجاءت الينا ، وقلت لها : العبي معنا ، وسوف نقيم زواجا على أن تكوني العروسة وأقوم أنا بالزواج منك ، فنظرت البنت الي ببلاهة دون تعليق • وهنا تقدمت منها لأمسك بيدها مبتدئا مراسيم الزواج ، كما كنا نفعل بالقرية ، ولكنها ولت هاربة

باتجاه منزلها ، فنسيت الأمر وواصلنا لعبنا ، ولكن بعد برهة جاءت والدة البنت وهي تولول واقتربت منا وسمعتها تقول (يا خاصاوي يا سفيه) وعندئذ غلى الدم في عروقي وقلت في نفسي : أيضا هذه المرأة تحتقرني ! وقمت جاريا لأحضر العصا وأسفك دمها ، اندفعت الى داخل منزلنا وأنا مهتاج وحملت عصاتي وعدت جاريا باتجاه الباب ، وهنا وجدت المرأة قد دخلت الى فناء المنزل وهي مستمرة في سبابها ، وعندما رأتني رافعا العصا لأضرب رأسها تراجعت باتجاه الباب وأولتني ظهرها، وهنا ، وبكل ما أملك من قوة ، أنزلت العصا على ظهرها ، فصرخت بأعلى صوتها ، في هذه اللحظة جاء عمي جاريا وأمسك بيدي مستفسرا المرأة ، فحكت له كل شيء والدموع تنهمر من عينيها ، هنا طلب منها الانتظار وأخذ مني العصا ورماها بعيدا ثم عاد وفي يده الكرباج وأشبعني ضربا مبرحا دون شفقة أو رحمة ، وأنا أصرخ بأعلى صوتي والمرأة تنظر الي بشماتة وهي تبتسم • يومها وددت أن أترك هذه المدينة الملعونة التي أتذوق فيها طعم الكرباج والكلمات الجارحة لأول مرة في حياتي ، وفي سري غضبت من والدي الذي رمى بي في هذا الجحيم وفكرت تفكيرا جادا بالهرب والعودة الى قريتي وأهلي حيث لا ضرب بالكرباج ولا كلمات جارحة دون سبب ، ولكني عدلت عن الفكرة لأنني عاجز عن تنفيذها ، ولا أعرف طريق الرجوع والعودة الى القرية •

اذن الحل الوحيد هو الانتقام من عمي ، ولكن كيف ؟ فهو قوي ولا أستطيع منازلته كما لا أجرؤ على ذلك ، وأثناء ذلك شاهدت زوجته في المطبخ وهي تعد له طعام العشاء فاقتربت منها متظاهرا بأنني أبحث عن كوب الماء ، وبينما هي مشغولة باعداد صحن الأرز جمعت البصاق في فمي وألقيته في صحن الملوخية الذي كان وسط الصينية وغادرت المطبخ وأنا مسرور متوهما بأن البصاق الذي خلطته بالملوخية سيؤدي لقتله ، وما ان وضعت زوجته الطعام أمامه حتى بدأ ينادي : (تعال الى هنا يا صالح) وبدأت أرتجف خائفا ، فربما يكون قد اكتشف البصاق ، أو

تكون زوجته قد لاحظت فعلتي وتظاهرت بعدم الاهتمام ثم حكت له ما جرى ، لهذا تباطأت وترددت في تلبية ندائه ، ولكنه كرر النداء بصوت عال مما اضطرني أن أتوجه اليه ، وهنا طلب مني الجلوس والأكل معه محاولا استرضائي فزال خوفي وجلست ولكني تحاشيت الاقتراب من صحن الملوخية وبدأت أتناول لقمات من الرز محاولا أن أشبع بسرعة وأترك المائدة ، ولكنه لفت نظري قائلا : اخلط الرز بالملوخية ، وعندما لم أستجب أخذ كمية من الملوخية وخلطها بالرز وطلب مني أن آكلها ، وما ان وضعت اللقمة في فمي حتى جريت بعيدا أتقيأ ، فقد تخيلت بصاقي الذي أجبرت على ابتلاعه ، أما عمي وبعد أن أتى على صحن الملوخية والرز شرب كوبا من الماء ثم الشاي بعد العشاء ودون أن يموت، مما زاد في حنقي ٠

في تلك الليلة لم أنم نوما هادئا ، فقد كنت أتقلب يمينا ويسارا وأستعرض أحداث هذا اليوم والأيام السابقة والمشاكل العديدة التي واجهتني دون أن أكون سببا فيها ، واذا كانت هذه هي البداية لاقامتي في هذه المدينة فان النهاية قد تكون أسوأ ، وقبل الفجر بقليل أخرجت آهة وزفرة ولعنت الحرب كما لعنت الطليان والانجليز الذين أثاروها وكانوا سببا في تركنا لقريتنا وبالتالي رموا بي في هذه المشاكل ٠٠ وأغمضت عيني ثم رحت في نوم عميق ٠

بعد شهور من اقامتي ببورتسودان ، بدأت أفهم أشياء جديدة عن هذه الحرب الملعونة الممقوتة فى نفسي والتي كانت تأخذ حيزا كبيرا من تفكيري . وهي قد سارت بحياتي في نمط جديد ، وجعلتني أسافر وأطرق بلادا لم يكن واردا أن أرتادها • في مدينة بورتسودان كنت أشاهد معسكرات الجيوش وبها أشكال وألوان من الجنود ، منهم الاسود والابيض والاصفر ، علمت بأن الحرب لم تعان منها في قريتنا وحسب ، ولم أعان منها شخصيا فقط ، بل ان جميع سكان مدينة بورتسودان تضرروا ويتضررون منها باستمرار • كنت أشاهد الخنادق داخل فناء كل دار ، حيث يأوي اليها السكان عندما يسمعون صفارات الانذار ، كما ان الناس يحكون عن ضحايا القصف ، بل شاهدت الناس وهم يتذمرون من النقص في الضروريات ، فكل شيء بالتموين ، بدءا بالبن والسكر والشاي والدقيق والزيت والصابون وحتى الكبريت ، فكل أسرة لديها (كرتة) يحوي اسم رب الأسرة وعدد أفرادها ،وبموجب هذا الكرت يصرف ما هو مقرر لها من الضروريات • سمعت عن انعدام السكر وكيف اضطر الناس لتناول الشاي والقهوة بواسطة البلح ، لتخفيف المرارة • بل شاهدت بعيني بعضا من الأسر الفقيرة التي بدأت تجمع نواة البلح وتطحنها ثم تصنع منها القهوة •

كان الناس هنا يتحدثون عن الحرب أكثر مما كان يتحدث عنها أهل قريتي ، والأقاصيص التي سمعتها عن الحرب في قريتي لا تساوي شيئا

مما سمعته هنا في مجالس الرجال والنساء والأطفال • في قريتي كان الناس يحنقون على ايطاليا التي تجند أبناءهم اجباريا وتسوقهم للحرب • أما هنا فيحكون باعجاب عن المجندين السودانيين وبطولاتهم ، فلان بن فلان قال : (الموت الاحمر أو الذهب الاحمر) ، ثم تجند في الحرب رغم معارضة أهله ، وبعد مدة طويلة عاد من الحرب وهو ضابط كبير يحمل النجوم الذهبية على كتفيه مما جعل أهله يفاخرون ويتباهون به •• فلان الذي اشتهر بالتسديد الدقيق في المدفعية ، فعندما جاء الطليان الى حدود كسلا كان فلان على رأس القوة الموجودة هناك من قوة دفاع السودان ، فقام فلان ونحى الجاويش المدفعجي واستلم المدفع بنفسه وسدده باتجاه بيش الايطالي وانطلقت قذيفة واستقرت بداخل ماسورة المدفع الايطالي مما نشر الخوف والهلع وسط الجيش الايطالي واضطر للتراجع ، وقد أنعم عليه بنيشان الجدارة والشجاعة• كل هذه الأقاصيص التي لا تنتهي عن بطولات الجندي السوداني ، كانت هناك (عائشة الفلاتيه) وأغانيها التي تمجد بطولات الجندي السوداني وتتمنى عودتهم سالمين •• أولئك الضباط المهندسون الذين فتحوا كرن، وقد أعجبت بهذا اللون من الأغاني وحفظته سريعا وكنت أترنم به بالشارع والمنزل دون أن يزجرني أحد ويصفني بـ « قلة الأدب » ، أيضا في تلك الأيام بدأت أسمع عن الذين اغتنوا بالحرب •• فلان كان معدما لا يملك شيئا ، وفي أحد الأيام غرقت احدى بواخر البضائع ، وعندما تم انتشالها وعرضت البضائع للبيع تردد التجار عن شرائها ، فما كان من فلان الا أن تجاسر وقامر بشراء تلك البضائع التي لم يكن يمتلك ثمنها البخس ولكنه استدانه من أحد التجار • وعندما فتح الصناديق وجدها كلها من الأقمشة الحريرية التي لم يصل اليها ماء البحر ، وقد باعها بعشرة أضعاف ثمنها فأصبح ثريا بين عشية وضحاها، وفلان تمكن من جمع كل عربات الجيش التالفة وقام باصلاحها وبيعها وبيع بعضها خرده فأصبح بذلك من أثرياء المدينة •

في تلك الأيام ازدادت معلوماتي عن الحرب ، وبجانب الطليان

والانجليز عرفنا أسماء دول أخرى هي ألمانيا وروسيا ، كما حفظت أسماء موسوليني وهتلر وتشرشل وستالين ، وبالرغم من كل هذا لم أغير رأيي عن الحرب وكراهيتها كما لم تتبدل مشاعري نحو الطليان والانجليز • وتشاء الصدف ان كنت جالسا في أحد الأيام مع بعض الصبية في الشارع وكانوا يتحدثون عن الحرب ، وفهمت منهم بأن هتلر يقود جيشا قويا يكاد أن يهزم جيش بريطانيا ، وكانوا يرسمون في التراب العلم الألماني ذي (الصليب المعقوف) ، وفي الحال وجدت نفسي متعاطفا مع ألمانيا وبدأت أرسم الصليب المعقوف مرات عدة حتى أجدته ، وكانتقام من بريطانيا وتعبيرا عن كراهيتي للانجليز والطليان بدأت يوميا آخذ في جيبي كمية من الفحم ثم أرسم الصليب المعقوف في كل حائط يصادفني ، وعندما كان عمي يشتري بطيخة من السوق ويطلب مني توصيلها للمنزل ، كنت ألتقط مسمارا صدئا من الارض ثم أجلس وأحفر مجموعة من الصلبان المعقوفة على جوانب البطيخة • ولكي أقنع نفسي بأنني شجاع ولن أخاف ، كنت أحمل البطيخة وأمشي بها أمام نقطة البوليس •

في أحد الأيام من عام ١٩٤٥م بدأت المدينة بكاملها تتحدث عن نهاية الحرب العالمية الثانية ، وكان الفرح يعلو كل الوجوه ، والجميع يتحدثون عن هزيمة ألمانيا وانتصار بريطانيا ؛ وبقدر ما كنت فرحا بنهاية الحرب مثل الآخرين الا أنني كنت أحس بحزن على هزيمة ألمانيا وكنت أتمنى هزيمة بريطانيا التي لي قضية شخصية معها ، في ذلك اليوم تجول شيخ السوق في كل الأماكن طالبا من المواطنين اظهار فرحهم برفع الأعلام على واجهات محلاتهم • ولم ينقض الظهر حتى كانت الأعلام ترفرف في جميع أنحاء المدينة وبالذات في منطقة السوق ، وفي العصر جاء المعتمد البريطاني راكبا حصانه الأبيض ومن خلفه باقي المسئولين كالمفتش والمأمور ، وكان موكبهم يسير وسط الشوارع ، والمعتمد أمامهم يختال فوق حصانه يمينا وشمالا ، أما المواطنون فقد اصطفوا على جانبي

الطريق وهم يصفقون للموكب . كان منظرا لن ينمحي من الذاكرة ، الأعلام ترفرف ، والمواطنون يصفقون بشكل متواصل ، والمعتمد البريطاني يختال فوق حصانه ويسير الخيلاء كالفاتحين المنتصرين العائدين من ميدان القتال . وبعد ذلك اليوم بدأت حشود الجيوش التي كانت تعسكر بالمدينة تختفي شيئا فشيئا حتى اختفت نهائيا ، ولم يبق اثر لتلك الجيوش الا بعض المباني الحجرية المبعثرة هنا وهناك والتي أصبحت مأوى للاغنام والحمير تستظل بها وقت الظهيرة .. ايضا ان آثار الحرب بدأت بالاختفاء رويدا رويدا الى ان تم الغاء نظام الكروت والتموين بالبطاقات ، ولم يبق للحرب أثر سوى أغاني عائشة الفلاتيه التي أصبحت رمزا لشجاعة الجندي السوداني ولم تعد لها علاقة بالحرب أو ببريطانيا .

دخلت مرحلة جديدة من حياتي ، ففي أحد الأيام أعلن في المنزل بأنني سألتحق (بالخلوة) لأبدأ تعلم القرآن والقراءة والكتابة ، وفي مساء ذلك اليوم أحضر لي عمي لوحا جديدا ، وكنت في غاية السرور لهذا الحدث ، خاصة وان أحاديث والدي عن العلم والمتعلمين كانت أصداؤها تتردد دوما في نفسي ، ومن شدة الفرح لم أنم من الليل الا قليلا ، حيث كانت الصور والخيالات عن حياتي الجديدة وعن الخلوة وأجوائها تتمثل أمامي .

في الصباح الباكر اصطحبتني عمتي ممسكة بيدي ، بينما كنت أحمل في اليد الأخرى (اللوح) متباهيا به ، وسرنا باتجاه الخلوة ، وما ان اقتربنا منها حتى سمعنا أصوات الأطفال وهم يقرأون بصوت عال . كان الباب مفتوحا فدخلنا الى فناء الدار الذي كان مليئا بالأطفال الذين يربو عددهم على الخمسين . كان الأطفال جالسين على الأرض في ظل المصباح .. بعضهم يقرأ وكأنه يصيح حتى لا تميز كلمة مما يقرأه .. وآخرون يكتبون بقلم (البوص) بعد غمسه في (الدوايه) وهو نوع

من الحبر يصنعه الاطفال بأنفسهم من الكربون والصمغ ، أما (الشيخة) وهي امرأة مسنة تتولى تعليم الاطفال فقد كانت تتوسطهم وهي تجلس فوق كرسي صغير وفي يدها كرباج صغيرا وبجانبها عصا ، وكان الاطفال يتناوبون بالوقوف أمامها ثم يتلون السورة أو أحرف الهجاء المكتوبة بألواحهم غيبا ، وهذا يؤكد أنهم قد حفظوها ، وفي هذه الحالة تسمح لهم (الشيخة) بمسح اللوح وكتابة سورة جديدة ، وبالطبع فانها تطلب منهم اعادة الحفظ والتسميع في اليوم التالي ·

ما ان اقتربنا حتى بدأ الأطفال يتلفتون باتجاهنا ولاحظت الشيخة ذلك فالتفتت الى الخلف ، وعندما رأتنا اشارت للاطفال بيدها ، فصمتوا جميعا ، وقفت الشيخة على رجليها بعد ذلك واستقبلت عمتي بالترحاب ثم أجلستها تسألها عن أحوالها وصحتها واستمرت تثرثر معها حول شئون خاصة ، فقد كانتا صديقتين ، وبعد فترة بدأت عمتي تدخل في الحديث الجاد ، حيث قالت :

ـ يا شيخة أنت معروفة للجميع ، فكل الشبان الناجحين قد تعلموا على يديك قبل أن يلتحقوا بالمدارس ، والكثيرون منهم ما زالوا يشكرون فضائلك ، واليوم أحضرت لك هذا الولد ليتعلم القرآن ، أما لحمه فهو لك وعظامه فلنا ·

كانت الشيخة أثناء حديث عمتي تبتسم ابتسامة عريضة تعبر عن الرضا والسرور لهذا المديح الذي كيل لها أمام هذه الجمهرة من الاطفال ، ولم تجد كلاما ترد به سوى عبارة (ان شاء الله) قالتها وبسمتها بالفخر والرضا تزداد اتساعا حتى برزت أسنانها التي لم تكن الا ثلاثة ، اثنان في الفك الأسفل وواحد بالفك الأعلى ·

أثناء هذا الحديث كنت أعيش حالة من الهواجس والخوف ، ووجدت نفسي أردد كلمة (يا لطيف) في سري ، وكان ينتابني احساس

بالاستياء ، فأولا لم أكن أتصور انني سوف أتتلمذ على يد امرأة ٠ وثانيا ستكون المصيبة أكبر عندما أجد هذه المرأة تجلدني بالكرباج وأنا أرتعش خوفا أمامها وأصرخ ، فهذا عار لا يمكن أن أتحمله ،ورنت كلمات عمتي التي تقول فيها (لحمه لك وعظامه لنا) رنت هذه الكلمات في أذني وتخيلت نفسي عاريا من اللحم وأسير في الطرقات وأنا هيكل عظمي ، وهذا المنظر ملأني رعبا حتى وجدت نفسي أهمس : ليتني لم أحضر الى هذه المدينة ولم تخطر لوالدي فكرة ارسالي للتعليم ٠٠ كل هذه المخاوف جعلتني أصل الى قرار بيني وبين نفسي ، وهو ان أكون مطيعا والا أقوم بأي عمل من شأنه أن يغضب الشيخة ، تفاديا للاهوال التي تصورتها وبالذات مسألة (اللحم والعظام)

مع مرور الأيام اعتدت على الشيخة والخلوة وأطفالها ، وزال الكثير من هواجسي وخوفي ، فقد شاهدت الشيخة وهي تزجر الاطفال وتهددهم بالضرب دون أن تستعمل الكرباج أو العصا ، واذا اضطرت أن تعاقب أحدهم فلا يتعدى العقاب جلدة أو جلدتين بالكرباج ، حينها يخرج الطفل صرخات عالية مزعجة ، فتتركه الشيخة ويعود لمكانه ويتظاهر بالبكاء ويغطي وجهه براحتيه ، وفجأة نجده يضحك وكأنه لم يكن ذلك الطفل الذي كان يصرخ باكيا قبل لحظات ، وبتكرار هذه المشاهد امامي اطمأنيت بأنني لا أواجه خطر انفصال لحمي عن عظامي وربما كان مقصودا من الامر تخويفي ، ولكن هذا الاطمئنان لم يدفع بي للتخلي عن العهد الذي قطعته بيني وبين نفسي وهو الالتزام بالنواهي والضوابط لأنني لم أطق مجرد أن أتخيل نفسي أقف أمام امرأة وهي تضربني وأنا أصرخ دون أن أرد لها الصاع صاعين ٠

رغم أنني كنت أتضايق من الساعات الطويلة التي أقضيها داخل الخلوة كالسجين ، ولا أطلق لنفسي العنان وأتصرف بعفوية الأطفال كالآخرين ، متحملا عواقب الضرب بالسوط ، الا ان هناك لحظات سعيدة كنت أنتظرها ، فقد لاحظت الشيخة مسلكي المتزن الذي كنت أصطنعه

أمامها ٠٠ فلا أقوم بالمشاغبة ٠٠ ولا أعتدي على أي طفل بالضرب كما كان يحدث يوميا وسط الأطفال ٠٠ واذا حاول أحدهم التحرش بي فأطلب منه تأجيل الموضوع لساعة الانصراف ، وبالفعل كنت أصفي حسابي معه خارج الخلوة بحيث لا يكرر ذلك ثانية ، ولهذه الصفات من الأدب المصطنع نشأت مودة بيني وبين الشيخة ، فقد كانت تناديني باسمي وتختارني دون الأطفال الآخرين لأشتري لها شيئا من الدكان ، وهنا كنت أحس بالفخر لأنني نلت ثقتها ، وفي أحد الأيام وعندما صفقت بيديها معلنة انصرافنا جريت نحو الباب مندفعا مع الاطفال الآخرين ، ولكن في تلك اللحظة نادتني الشيخة أن أعود وأنتظر ، وعندما انصرف الاطفال جميعهم أجلستني بجانبها وناولتني كوبا من الشاي الذي أحضره لها الخادم ، ثم سألتني عن والدتي وأين هي ، فاندفعت أحكي لها قصتي عن القرية وعن رحلتي الطويلة والطليان والانجليز الى أن استقر بي المطاف عندها في الخلوة ، ولم تحاول أن توقفني عن الحديث ، بل كانت تتابعني باهتمام ، فتبتسم أحيانا وتقطب جبينها أحيانا أخرى ٠ وعندما انتهيت من رواية المسلسل أمامها وسكت عن الحديث ، تذكرت أنها سألتني عن والدتي فقط ولم تطلب مني ان أحكي أمامها هذه القصة الطويلة ، ولهذا بدأت ألوم نفسي ، ولكنها في هذه اللحظة وضعت يدها على رأسي وهي تقول : ان أمك قاسية ، كيف سمحت لنفسها أن تتركك ترحل وأنت في هذا السن ، ثم ناولتني كوبا ثانيا من الشاي وبعد أن شربته سمحت لي بالانصراف ٠ عندما ابتعدت عن الخلوة كنت أفكر في عبارتها التي نطقت بها عن والدتي ، وقلت في نفسي : انها لم تدر كيف كانت حالة والدتي في لحظات الفراق ، وأنا تحاشيت ذكر ذلك اليوم لها في قصتي حتى لا أحكي عن بكائي ، لو تعلم لقالت : (ان والدك قاسي) ٠

انني أحتفظ بذكريات طيبة عن أيام الخلوة ، وبالذات عندما يختم أحد الاطفال جزءً من القرآن ، ففي هذا اليوم كان أهله يحضرون صحون اللحم بالأرز وصحون اللقيمات بالسكر وبراريد الشاي ، فمثل

هذا اليوم كنا ننتظره ونحن مستعدون لالتهام ما لذ وطاب ، ولم يعكر صفوي أثناء الفترة التي قضيتها بالخلوة الا حادثان ، كانت الاولى يوم وصلت الى سورة (قل أعوذ برب الناس) ، وقفت أمام الشيخة لأقرأها أمامها ، ولكن المشكلة كاني أنني أنطق حرف الـ (د) بدلا من ال (ذ) والـ (ك) بدلا من ال (خ) فأقـول (قل أعود) ، وأقـنول « الوسواس الكناس » ، وهنا تستوقفني الشيخة وتنطق الكلمة فأكررها محورة ، وأخذت هذه العملية فترة طويلة والاطفال يقهقهون والعرق يتصبب مني غضبا وخوفا ، ولو كانت الشيخة كررت لي الحرف لربما كنت قد تنبهت ولكنها كانت تنطق الكلمة بكاملها دون أن أنتبه لموقع الخطأ في نطقي ، أما [illegible] الحادثة التانية [illegible] في احد الايام وبينما كان الاطفال يقرأون كنت جالسا في الصفوف الخلفية أتجاذب أطراف الحديث مع احدى البنات الجالسات بقربي ، وكنت أحكي لها بعضا من أقاصيص قريتي ، وكانت البنت في حالة انبهار لأحاديثي ، وكنا في حالة انسجام تام ونسينا الخلوة والشيخة والاطفال الذين يصيحون ، وأثناء ذلك وشى أحد الاطفال للشيخة بزميله الذي بقربه ، فردت عليه الشيخة بصوت عال قائلة : « انني راقبت هذا الطفل الذي يضربك منذ فترة كما راقبت ذلك الخاصاوي والمصرية الجالسة بجانبه اللذين تركا القراءة منذ الصباح ليحكيا لبعضهما القصص » ، وهنا تنبهت لكلمة خاصاوي كأنما لسعتني عقرب والتفت باتجاه الشيخة لأجدها قد ركزت عينيها علي والشرر يتطاير منهما ، وفي الحال تناولت البنت الجالسة بجانبي لوحها وبدأت تقرأ فيه بصوت عال لتتفادى عقاب الشيخة ، أما أنا فقد تمنيت لو كانت الشيخة قد أشبعتني ضربا بدلا من توجيه كلمة احتقار لي . وحزنت ، وكنت أرتجف من الغضب ، فهذه هي المرة الأولى التي توجه لي فيها كلمة احتقار وأجلس عاجزا دون أن أتمكن من تأديب من يحتقرني ، كما كنت أحس بأنني فقدت صديقا ، فالشيخة كانت لي بمثابة الصديق وهاأنذا أخسرها للأبد ، فمن المحال أن تستمر صداقتنا بعد أن وجهت لي كلمة احتقار ، وبدأت منذ ذلك اليوم أتحاشى النظر

الى الشيخة أو الاقتراب منها رغم أنها كانت تحاول استرضائي ، وللأسف تركت الخلوة والتحقت بالمدرسة قبل أن تعود المياه الى مجاريها بيني وبينها ، وبعد ثلاث سنوات من التحاقي بالمدرسة سمعت بوفاتها ، فتقاطرت من عيني دمعات رغما عني ، لأنني لم أنس عاطفة الأمومة التي أشعرتني بها يوم أجلستني بجانبها وأعطتني كوبا من الشاي وكانت تمسح بيدها على رأسي بينما كنت أحكي لها مسلسل حياتي بالقرية ٠

واليوم ، عندما أتذكر هاتين (الحادثتين) أضحك من نفسي وأتعجب كيف كانت هذه الصغائر تكدر يومي وتجعلني مهموما وغاضبا، ولكني في الوقت ذاته أقدر اسلوب التربية الحديثة الذي يعتني بالطفل في مراحل حياته الأولى ، فالمراحل الأولى من حياة الطفل هي التي تؤثر فيه ، وربما يكون القرويون رغم تخلفهم علميا متقدمين في تنشئة الطفل أكثر من سكان المدينة ، فيعاملون الطفل معاملة الكبير ويسمحون له بحضور مجالسهم ويجيبونه على أسئلته التي يوجهها ، ولا يلجأون معه لاسلوب الضرب والزجر الا نادرا ٠

يوم التحاقي بالمدرسة كان يوما مشهودا ، فمنذ الصباح الباكر أخذتني عمتي الى الحمام بعد أن أعدت الماء والصابون ، وبدأت تغسل جسمي بالليف والصابون ، وبين حين وآخر كانت تدغدغني وتلمس أجزاء حساسة من جسمي وتقول : « ألا تخجل أن تسمح لامرأة بتعريتك من ملابسك وتلمس هذه الأجزاء الحساسة من جسمك ؟ وكيف ستبرر ذلك لأقرانك بالمدرسة التي ستلتحق بها اليوم ؟ » • وكنت آنذاك أقهقه ضاحكا وأشعر بسعادة غير متناهية ، بعد الاستحمام لبست ملابسي التي كانت جديدة وهي السروال والفنله ثم جلباب الدبلان والعمامة وحذاء الباتا الأبيض •

ذهبت الى المدرسة بصحبة عمي ، وكان فناء المدرسة مليئا بالطلاب المستجدين ، ولم تكن هناك لجنة للفحص أو مراجعة شهادات الميلاد والتسجيل ، الا أن مدير المدرسة ومعه مجموعة من المدرسين خرجوا من مكاتبهم وأمروا الطلاب المستجدين أن يصطفوا في طابور واحد ، وبدأوا بالمرور على الطلاب واحدا واحدا ، يسألون الطالب عن اسمه ، ثم يطلبون منه تلاوة بعض الآيات القرآنية من جزء (عم) ، فسؤال أخير في الحساب ، وبعد ذلك يقررون قبوله أو رفضه • وعندما اقتربت لجنة الفحص مني بدأ قلبي يدق بعنف ، كنت أخشى أن يطلبوا مني قراءة

سورة (قل أعوذ برب الناس) خاصة وأنني لم أكن أدرك الى تلك اللحظة الأسباب التي جعلتني مثار تهكم الاطفال وضحكهم عندما تلوتها أمام الشيخة بالخلوة ٠

وبينما أنا في هذه الحالة من الوساوس وقفت اللجنة أمامي ، وبعد السؤال عن اسمي طلبوا مني قراءة سورة (قل هو الله أحد) فانبسطت أساريري وبدأت أقرأها بصوت عال منغم وبنفس الطريقة التي تعلمتها في الخلوة ، ثم كان سؤال الحساب وهو : ٣ + ٤ تساوي كم ؟ وهنا سكت دون أن أرد عليهم وهم واقفون ينتظرون الاجابة ، فمن جانبي لم أكن أفهم حتى سؤالهم ، وماذا يريدون ، دعك عن الإجابة ، فشعرت بأن عمي الذي كان واقفا خلفي يضغط باصبعه على ظهري ويقول لي بصوت هامس : « قل سبعة » ، فأخرجتها من حنجرتي وبهوت مدو ، وهنا أعلن مدير المدرسة قبولي وكدت أطير فرحا ٠

بدأت الدراسة في اليوم الثاني ، فما ان دق ناقوس المدرسة حتى كنا بداخل الفصل ، ولسوء حظي ، فان الحصة الأولى كانت حصة الحساب والأستاذ الذي يقوم بتدريس الحساب اشتهر بقسوته في طول المدرسة وعرضها ٠ وكان الطلاب يتهيبونه ويتحاشون أن يقعوا فريسته ٠ كان عنيفا وقاسيا ازاء الطلاب وكان يستعمل الصفعات باليد والضرب الشديد بالعصى وحتى اللكمات لم يتردد من اللجوء اليها في معاقبة طلاب الصفوف المتقدمة من كبار السن ٠ جاء هذا الأستاذ ودخل الفصل وبدأ في القاء الدرس ، وكان ذلك في كيفية كتابة الارقام من واحد الى عشرين، كان يكتبها رقما رقما بطريقة الرسم على السبورة مستعملا الطباشير ، وبعد أن انتهى من الشرح والرسم مسح السبورة وطلب منا ان يقوم كل منا بكتابة هذه الارقام في الكراس وتقديمها له للتصحيح ٠

من جانبي كنت متابعا لشرحه ورسوماته ولكني لم أفقه منها شيئا ، ففي الخلوة لم أتعلم شيئا عن الحساب ، وليس هناك مكان آخر

من الممكن أن أتعلم فيه ، وبينما أنا حائر في الأمر شاهدت الطلاب وهم يكتبون بسرعة ثم يتوجهون للمدرس الجالس في الكرسي بجانب السبورة فينظر لكراساتهم ويؤشر عليها بالقلم الاحمر ثم يعودون لمقاعدهم وهم مبتسمون ، وكان معظم هؤلاء الطلاب من الذين أعادوا الصف لعدم توفقهم في الامتحان والانتقال الى الصف الثاني ، وهنا بدأ المدرس يلح على الطلاب الذين لم يتقدموا للتصحيح أن يسرعوا ، والى ذلك الحين كنت حائرا دون أن أكتب رقما واحدا ، عندئذ عدت لمعلوماتي في الحساب التي استقيتها من بائعة الفحم ، كانت هذه العجوز تسكن بالقرب من منزلنا تبيع الفحم والحطب ، وكنا نستدين منها بالشهر ، وكانت تضبط حساباتها بتسجيلها في الحائط ، فاذا اشترينا فحما بفرشين كانت ترسم خطين رأسيا في الحائط ، واذا اشترينا بشلن كانت ترسم خمسة خطوط أفقية ، وعندما تريد جمعها تدمج كل خمسة خطوط سويا بخط أفقي ، عندما تذكرت ذلك لم أتردد في أن أمسك بقلمي ثم رسمت عشرين خطا ، وأخذت كراستي واتجهت نحو المدرس ووقفت أمامه ووضعت الكراس بين يديه ، نظر المدرس الى الكراس ، ثم نظر الي ، وفي لمحة بصر رأيت يده اليمنى ترتفع ثم تهوي على وجهي ، وللحظات كنت في حالة ذهول ، لا أدري ماذا جرى ، كنت أسمع طنينا في أذني ، وأرى خطوطا رفيعة ملونة تتحرك أمام ناظري • عندها رأيت الأستاذ يقذف بكراسي على الأرض بعيدا في طرف الحجرة وهو يصرخ : (حمار) انسحبت من أمامه بهدوء ثم انحنيت والتقطت كراستي وجلست في مقعدي ، أما الأستاذ فقد كان جالسا في مقعده وفي حالة استرخاء وكأنه لم يفعل شيئا ، أما التلاميذ فقد كان بعضهم يلتفت تارة باتجاهي وتارة باتجاه الاستاذ والذعر والخوف باديا في وجوههم ، أما البعض وبالذات القدامى منهم فلم يكترثوا لأنهم اعتادوا على هذا النوع من المعاملة من الأستاذ • أثناء ذلك كنت في حالة من الغضب والخجل ، كنت خجلا لأنني الوحيد الذي يضرب أمام أربعين تلميذا وهذا يعني انني أبلدهم ، وكنت غاضبا من هذا الاستاذ الذي لا يعرف الرأفة وفي سري حمدت الله

لأن الاستاذ قد ضربني ووصفني بالحمار ولكنه لم يسترسل ليحتقرني ويعيرني بكلمة خاصاوي ، وفي الوقت ذاته اتخذت قرارا بيني وبين نفسي أن أجتهد وأكون أشطر طالب بالفصل بحيث أمحو هذا العار الذي لحق بي ·

ان قراري الذي اتخذته ، بالفعل نفذته ، فبعد مضي ثلاثة أشهر وفي امتحان الفترة ، كان ترتيبي الأول في الفصل ، واحتفظت بنفس المركز في امتحان نصف السنة ، كما قدمت لي جائزة التفوق والتي كانت عبارة عن علبة من الحلوى وفنله ، الا أن هذا التفوق لم يأت الا نتيجة جهد كبير ، وكانت وراءه ايضا دوافع قوية ، فبالاضافة لرغبتي في التفوق ، حتى أتجنب الضرب ولأثبت لهذا الاستاذ القاسي بأنه قد أخطأ عندما تصور بأنني حمار ، أيضا كان هناك دافع آخر للتفوق ، فمنذ اليوم الاول لالتحاقي بالمدرسة تأكدت بأن هذا جزء يتحقق من رغبة والدي ·· والمطلوب أن أنهي دراستي عاجلا حتى أحقق رغبته بالكامل· وثانيا ، وبانتهاء دراستي ستكون لي حرية العودة الى قريتي ، هذه الاسباب مجتمعة كانت وراء تفوقي بالمدرسة ، هذا التفوق الذي وصلت اليه بجهد غير عادي رغم المعوقات العديدة ·

كنت أستذكر دروسي يوميا ولساعات طويلة ، ولكن المشكلة التي كانت تواجهني هي مشكلة انعدام الأوراق التي أكتب عليها حتى يتحسن خطي ، وعمي لا يمكن أن يشتري لي كراسا غير الكراسات التي تطلبها المدرسة ، وهذه يدفع ثمنها بعد مماطلات وتسويف ، لهذا بدأت بالتمرينات الأولى للكتابة على التراب ، حيث كنت أجلس الساعات الطوال وأنا أكتب في التراب ، ولكن ، وكما يقولون ، ان الحاجة هي أم الاختراع ، اذ اكتشفت موردا ثابتا يمدني بما أحتاج اليه من أوراق ، فقد اكتشفت ان المحكمة الشرعية وبعض الشركات التجارية توجد بجانبها (براميل للقمامة) يلقون بداخلها كل النفايات ومن ضمنها كمية من الأوراق والكراسات الكبيرة مكتوب عليها من جانب واحد فقط،

لهذا كنت يوميا ، وبعد الانصراف من المدرسة ، أقوم جاريا وأنطلق باتجاه براميل القمامة ، التي أصبحت زبونا مستديما لها ، وهناك ألقي بحقيبة كتبي المصنوعة من القماش جانبا ، ثم أدخل الى قلب هذه البراميل وأظل أقلب بداخلها وأجمع ما تيسر من الأوراق المكتوبة بجانب واحد ، وأحملها وأتحرك بها الى المنزل ، وهناك أقوم بفرزها وترتيبها وأظل جالسا أكتب عليها الدروس المدرسية لمرات عدة حتى أحفظ دروسي عن ظهر قلب ، وأنني مدين لتلك البراميل من القمامة بتفوقي لأنها لم تخيب ظني في يوم من الأيام حيث كانت تنتظرني يوميا بما عليها من أوراق ، ولكن في أحد الأيام عدت خائبا من برميل المحكمة الشرعية ، فقد انتظرني بجانبه أحد المحامين ، وكان رجلا شبه مجنون ، وكان يبحث هو أيضا عن بغيته بداخل البرميل الذي تلقى فيه فضلات المطاعم القائمة بالقرب منه ، وما ان رآني قادما باتجاه البرميل حتى وقف متحفزا وأمسك عصاه ، وقف كل منا أمام الآخر ، ومرت فترة على هذا الحال ، وبسرعة فهمت سبب نظراته غير الودية ، فأوضحت له بأنني أبحث عن الأوراق وليس عن فضلات الطعام ، فعاد الى البرميل وجمع كل الأوراق وجلس فوقها ، وأنا أنظر اليه بغضب ، ابتعدت عنه مؤملا أن يترك الأوراق وينصرف ، وبالفعل تحرك بعد مدة الى داخل البرميل يبحث عن طعامه ، وهنا تحركت باتجاه البرميل محاولا أخذ الورق ، وما ان اقتربت منها حتى التفت نحوي ثم قفز خارج البرميل وأمسك بعصاه محاولا شق رأسي الى نصفين ، ولولا سرعتي في الجري لكان قد لحق بي وأودى بحياتي ، فقد ظل يجري خلفي ممسكا بعصاه وهو يصيح ، وأنا أجري أمامه لمسافة طويلة ، ولم يتوقف الا بعد أن اعترضه بعض المارة ، وبصعوبة فائقة ، ومنذ ذلك اليوم لم أقترب من تلك البراميل ، الا بعد أن أتأكد بأنه لا يوجد بجانبها أمثال هذا المجنون .

ان استمراري بالمدرسة ، واختلاطي بطلابها ، الذين كان يربو عددهم على الخمسمائة طالب ، رسب في نفسي احساسا عميقا بالتعاسة ،

واحساسي بالتعاسة الذي بدأ صغيرا ، ثم صار ينمو مع الأيام ، نتج من مقارنتي لأحوالي بأحوال الطلاب الآخرين • مثلا ، كنت أشاهد زملائي بالفصل يحضرون صباحا من منازلهم وكثيرون منهم يحمل في حقيبة كتبه مجموعة من (السندويتشات) المحشوة بالجبن أو المربى أو بالحلاوة الطحينية ، يجلس اليها وقت الافطار ويلتهمها واحدا بعد الاخر ، ثم بعد ذلك يذهب ليشتري حلوى أو فولا مدمسا أو كوب شاي •• وآخرون يفطرون في المطعم أو لدى كشك المدرسة ويطلبون الفول أو الكبده والكمونيه ثم أكواب الشاي بعد الافطار • أما فطوري فكان قرشا واحدا أستلمه من عمي في الصباح وأحتفظ به لوقت الفطور ، حيث أذهب (للحاجه) الجالسة على باب المدرسة وأشتري منها نصف رغيف وطعمية ويكون القرش قد تحول من جيبي الى جيبها وما زالت معدتي خاوية وعندها كنت أحسد هؤلاء الطلاب الذين يتمتعون بحنان أبويهم • كنت أشاهدهم يبدلون ملابسهم مرتين في الاسبوع ، أما أنا فلدي جلباب واحد أظل ألبسه طوال الاسبوع ثم يتم غسيله يوم الجمعة لألبسه يوم السبت، وهكذا طوال العام الدراسي ، وأثناء ذلك يكون هذا الجلباب قد تمزق عدة مرات ويتم ترقيعه في نهاية كل اسبوع •• وبعض الطلاب ينالون دروسا خصوصية على أيدي بعض المدرسين ، وأشاهد البعض منهم يحمل كراسات ضخمة اشتراها لهم ذووهم للاستذكار ، في الوقت الذي أعتمد فيه أنا على براميل القمامة لجمع الأوراق للاستعانة بها في المذاكرة • ان تفكيري في هذه المسائل ومقارناتي المستمرة بين حالتي وحالة الاخرين ملأتني احساسا بالمهانة والغضب واستعدادا للتمرد ، ولهذا كنت أدخل في معارك ومشاجرات دونما سبب أو لأسباب تافهة مع هذا أو ذاك من الطلاب ، ودونما تدبير وجدت نفسي متحالفا مع مجموعة قليلة في الفصل وكلهم من أبناء العمال ، وكان القاسم المشترك بيننا هو حقدنا على أبناء الأثرياء الموجودين معنا بالفصل ، وهؤلاء الذين كنا نطلق عليهم أيضا الأثرياء لم يكونوا سوى أبناء الموظفين أو ميسوري الحال ، أما وصفنا لهم بأبناء الأثرياء فكان من خلال ما يتناولونه من طعام

(دسم) في الفطور وما يلبسونه من الملابس النظيفة ، وكان قرارنا غير قابل للتراجع وهو أن نشاركهم فطورهم ، فبعضهم كان مشاكسا لم يقبل التنازل لنا عن جزء من فطوره الا بعد معارك قاسية ، أما البعض فقد كان مسالما بل وكريما ، ولهذا كان يرحب طواعية أن نشاركه فطوره .. عموما بعد فترة وجدنا أنفسنا نتناول فطورنا سوية ، فنحن نشتري الطعمية ونخلطها مع فطورهم ونأكل سوية ، وهكذا نشأت صداقات بيني وبين البعض منهم ما زلت أعتز بها ، وعندما نتذكرها اليوم نضحك من أعماقنا ونحس بأن هذه الذكريات تعتبر من أشد الروابط في علاقاتنا .. علاقات الطفولة والصبا .

رغم أنني كونت علاقات وصداقات مع الكثير من الطلاب ، إلا أنها لم تعوضني عن علاقاتي وصداقاتي مع أقراني من أطفال القرية ، ولهذا كنت أحس دائما بالغربة والاكتئاب ، كنت أشاهد الطلاب يلعبون ويتصايحون وتعلو البشرى وجوههم ، وهنا كانت تنتابني حالة من الكآبة لأنني أتذكر قريتي وعائلتي وزملائي الذين كنت أمرح معهم في الغابات والجبال وأتسلق واياهم الأشجار ونلتهم ثمارها ، وأظل منساقا مع هذه الأحاسيس لا أتحرك من مكاني لأشارك الطلاب ألعابهم ، كنت أقول: انهم سعداء ، ومن حقهم أن يفرحوا ويمرحوا ، لأنهم بعد ساعات سيذهب كل واحد منهم الى منزله وسيجد والده ووالدته واخوته في انتظاره . وفي المساء يواصلون ألعابهم مع أبناء الحي والذين هم بمثابة أبناء القرية بالنسبة لي . أما أنا فما هو السبب الذي يدفع بي للفرح والمرح معهم ؟ وهذا النوع من جلسات الكآبة لم يكن طارئا بل كان يحدث بالنسبة لي بشكل يومي ، وفي أحد الأيام وبينما أنا جالس أردد ذكرياتي وأنظر في الفراغ ، اقترب مني زميلي عبد الرحمن قائلا :

ـ ماذا جرى لك يا صالح ؟ هل هناك من تحرش بك أو ضربك من الطلاب ؟

ـ ومن الذي يجرؤ ليفعل لك ؟

ـ اذن لماذا أراك حزينا تجلس منفردا ولا تشاركنا في ألعابنا ؟

ـ يا عبد الرحمن ، أنا غريب عنكم وعن دياركم ، وأهلي وقريتي بعيدون بحيث لا أعرف كيف الوصول اليهم ، وبعد كل هذا تستغرب لماذا أنا حزين وجالس لوحدي ؟

ـ عيب يا صالح ان تقول هـذا الكـلام ، فنحن جميعـا زملاؤك واخوانك ، وما هو الفرق بيننا وبينك ؟

كان عبد الرحمن متأثرا رغم صغر سنـه ، ولهـذا ألح علي ثم سحبني يدي لأشترك معهم في اللعب ، فأذعنت لرغبته ، وفي نهايـة اليوم الدراسي أصر عبد الرحمن أن أصحبه الى منزله ، وهناك قدمني لوالدته واخوته ، حيث أعدوا لنا مائدة دسمة وأكلنا سوية ، وأثناء ذلك حضر والده فقدمني له أيضا باعتباري من أصدقائه الأعزاء بالفصل ، وبعد تناول الغداء والشاي أردت الانصراف ، فتقدم مني والد عبـد الرحمن وهو يقول : « انني مسرور أن يكون لابني أصدقاء من أمثالك من الطلاب المتفوقين وأرجو أن تحضر معه يوميا الى هنا واعتبر هذا منزلك واعتبرني في مكانة والدك » ، ثم دس يده في جيبي بورقة من قيمة خمسة وعشرين قرشا ، وفي اليوم الثاني عرفت من عبد الرحمن بأنه قد حكى لوالده ووالدته عن أقراني وقريتي وأهلي وغربتي ، وهم يلحون أن أزورهم يوميا .

بالرغم من الصداقات الحميمة التي تكونت بيني وبين الكثيرين من الطلاب ، الا أن هذا لم يبعد عني الاحساس بالغربة ، بل ان احساسي بالغربة كان يتعمق باستمرار ، فقد كنت أعرف أنني الوحيد من قريتي الذي أتيحت له فرصة التعليم ، وبهذه المدرسة التي يزيد عدد طلابها على الخمسمائة طالب لا يوجد أي طالب من أرتريا سواي ، وقد ازداد فضولي لأعرف ما اذا كان هناك طلاب من أرتريا في المدارس الأخرى من المدينة ، ولهذا بدأت أبحث وأتقصى لفترة دامت شهرين كاملين ، علمت

بعدها بأن هناك طالبا أرتريا من مدينة اغردات باحدى المدارس ، فذهبت اليه فرحا وتعرفت اليه في جلسة طويلة ، وكنت أحاول أن أفهم منه أخبار أرتريا وما يجري بداخلها ، خاصة وأنني كنت أستمع من القادمين عن نشوء أحزاب سياسية ، وللأسف وجدته غير مكترث وغير ملم بما كنت أنتظره من أخبار ، ولهـذا اختصرت الطريق ووجهـت له سؤالا محددا : ما هي مشاريعك وأحلامك للمستقبل بعد الانتهاء من الدراسة ؟ فأجابني دون أن يطيل التفكير : « مشاريعي هي أن أعمل بوظيفة ثم أقوم باسعاد والدتي التي لم تجد السعادة والاستقرار بعد أن هجرها والدي وتزوج بغيرها » ، وهنا شعرت بأن هذا هو الطالب الارتري الوحيد الذي وجدته بعد بحث طويل وما هي اهتماماته لا تتعدى أحلامه الذاتية ، وأردت الانصراف ، ولكنه ، وبدوره عاجلني بنفس السؤال قائلا : وما هي مشاريعك للمستقبل ؟ فرديت عليه فورا : « ان مشاريعي هي أن أنهي دراستي في أقصر فترة زمنية ثم أعود لوطني وأقوم بفتح مدارس للتعليم ، خاصة وانني الوحيد من منطقتي الذي يجد فرصة التعليم » • تركت هذا الأخ الأرتري وانصرفت ولم أحاول بعدها زيارته •

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية في أواخر عام ١٩٤٧م بدأت الحركة الوطنية بالسودان تتصاعد وبشكل سريع . فقد برزت المشاريع البريطانية مثل (المجلس الاستشاري لشمال السودان) و (الجمعية التشريعية) وكلها مشاريع كانت تطرح حسب المبررات البريطانية لتأهيل السودانيين (للحكم الذاتي) . وكان الشارع السوداني تحت زعامة المرحوم اسماعيل الأزهري والمرحوم محمد نور الدين وزعامة الختمية ممثلة في السيد علي المرغني ، يعارض تلك المشاريع ويطرح بديلا عنها وحدة وادي النيل والمناداة بالملك فاروق ملكا لمصر والسودان .

في تلك الفترة كنا (بالثالثة أولية) وعلى أبواب المرحلة الوسطى .

ورغم حداثة سننا ، كنا نختلف عن طلاب اليوم كثيرا . ففي هذه المرحلة المبكرة من التعليم كانت مداركنا أوسع من أعمارنا .. كنا نتابع الأحداث السياسية بالسودان ومصر والهند .. وكان مدرسونا يعينوننا على ذلك . فقد كانوا يختلسون جزءً من الحصص ويغلقون نوافذ الفصل ، ثم يبدأ المدرس بشرح الأحوال السياسية لنا . وأثناء ذلك يقترب بين حين وآخر من باب الفصل ليتأكد بأن مدير المدرسة موجود بمكتبه ، لأنه أحيانا كان يحضر المدير فجأة أثناء الحصص دون أن يشعر به أحد كأسلوب لمراقبة المدرسين . كما ان بعضا من المدرسين كانوا يقودون المظاهرات والكثيرون منهم تعرضوا للاعتقالات والتشريد ،

وكانوا يمثلون في نظرنا قمة البطولة والمثال الذي يجب أن يحتذى به ، ولهذا كنا نحترم هذا النوع من المدرسين ونتفانى في ارضائهم واشعارهم باحترامنا لهم ٠

في تلك الفترة بدأنا نخرج في المظاهرات بل ونقودها ٠٠ لم يكن لدينا آنذاك اتحاد للطلبة ، بل كانت لدينا جمعيات أدبية وفنية ، والذين كانوا ينظمون المظاهرات ويدفعوننا اليها ، كانوا طلاب المرحلة الوسطى، فقد كانوا يستدعون من كل فصل ، أكثر الطلاب شعبية ولا يزيدون عن الطالبين ، ويصدرون [illegible] بالتجمع خارج المدرسة بعد الافطار ويحددون لهم نقطة اللقاء ٠٠ وكان دائما يتم اختياري مع مجموعة من الفصول الأخرى ، ونعود نحن الى فصولنا وبدورنا نصدر أوامرنا للطلاب فردا فردا وكل على حدة ٠ وهكذا يتم التجمع دون أن يتخلف منه أحد وتخرج المظاهرة لتطوف بالمدينة ٠

أول مظاهرة قمنا بها كانت من النوع العنيف ، فقد كانت نقطة اللقاء (حديقة البلدية) ، ومنها تحركنا وعددنا فوق الخمسمائة طالب ، وما ان خرجنا الى الشوارع حتى كان هتافنا الخالد (الشجرة تسقى بالماء والحرية تسقى بالدماء) ، يشق عنان السماء ، وانضم الينا المئات من المواطنين ، فازداد حماسنا وبدأنا نتبع القول بالعمل ، فقد وجهنا المظاهرات الى منطقة (البارات) التي كان يملكها يونانيون ، وبدأنا بتحطيم البارات بالحجارة ، ثم واصلنا طريقنا الى السينما الوحيدة بالمدينة والتي كان يملكها ايضا أحد اليونانيين ثم حطمناها عن آخرها ٠ وفي هذه الأثناء جاءت قوة من البوليس تلبس الخوذات وتحمل العصي وعلى رأسها ضابط سوداني وضابط آخر بريطاني ، وهجموا علينا دون انتظار ، فقام الطلاب والمتظاهرون الآخرون يجرون باتجاهات متعددة ، وقد كان حظي سيئا فقد تم اعتقالي ومعي خمسة آخرون من زملائي ، وفي الحال أخذونا الى نقطة البوليس ثم أعلنوا الحكم وكان ثمانية جلدات لكل منا ٠ كان العسكري الذي تولى تنفيذ جلدنا بالسوط رجلا

قاسيا ، فقد ضربنا بكل قوته ، ورغم أننا كنا نصرخ بصوت عال ، الا أننا وبعد اطلاق سراحنا كنا نحس بحالة من النشوة متمثلين بأساتذتنا الذين تعرضوا للسجن والتشريد • وبعد رجوعنا الى المدرسة أصر المدير أيضا أن ينزل بنا العقاب المدرسي وهو عشرة جلدات لكل منا • ان هذا العقاب الصارم الذي نلناه في أول محاولاتنا لقيادة المظاهرات لم يثننا عن الاستمرار في هذا الطريق • بل أشعرنا بأهميتنا وكنا نحس بأن المدينة بكاملها تتحدث عن بطولاتنا ولهذا لم نتخلف عن المشاركة في أي مظاهرة خرجت بعد ذلك وهي تهتف بسقوط الاستعمار البريطاني •

وبالنسبة لي فقد تحركت في نفسي مشاعري القديمة المقرونة بكراهيتي للحرب وللطليان والانجليز •• ولهذا وجدتها فرصة مواتية للتنفيس عما في نفسي ، فقد سررت بهزيمة ايطاليا في الحرب العالمية الثانية ، وغضبت في نفس الوقت لانتصار بريطانيا ، وها هي الفرصة تتاح لي اليوم لأجد كل الطلاب وكل الشارع السوداني يهتف بسقوط الانجليز ، في تلك الأيام بدأ احساسي بالقرية يزول ، ورغم ارتريتي الا أنني أيضا بدأت أحس بالانتماء للسودان وللشعب السوداني •

أيضا لا أنسى في تلك الأيام أحد أساتذتنا الذى كان دوما يتصدر المظاهرات ويتم اعتقاله وسجنه بين فترة وأخرى ، كان هذا الأستاذ يختصر الكثير من الحصص ليحكي لنا عن فلسطين •• وبعد مدة بدأ تسجيل المتطوعين السودانيين وارسالهم الى مصر للالتحاق بالجيوش العربية التي تقاتل في فلسطين • وكلما جاء هذا الأستاذ الى الفصل لالقاء الدروس كنا نلح عليه أن يحدثنا عن أخبار القتال في فلسطين • ولم يكن يبخل علينا ، بل كان يتحدث الينا طويلا • وكنا ننظر اليه باعجاب وتبجيل لأنه لا يخشى الانجليز هنا بل وأيضا يرسل المتطوعين الى فلسطين •

كنت أتتبع أخبار الثائر الهندي المهاتما غاندي ونضاله السلبي ·· كنت معجبا بزهده وامتناعه عن ارتداء الملابس المصنوعة في مصانع لانكشير ببريطانيا ولجوئه الى الغزل وصناعة ملابسه بنفسه ·· وصيامه الطويل ·· واعتصاماته بالطرقات ، والشعب الهندي بكامله يقتدي بزعيمه ، وجواهر لال نهرو ذلك الوطني الثائر الذي انسلخ من طبقته الأرستقراطية وارتضى حياة السجون وذاق الجوع رافعا أماني الشعب الهندي المطالب باستقلاله ، بجانب زعيمه الروحي غاندي · ان اعجابي بغاندي ونضاله في افريقيا الجنوبية ·· وارتضائه لحياة التقشف بحيث لا يملك من الدنيا الا معزته التي يحلبها ويشرب لبنها ويصر على اصطحابها حتى ولو كان مسافرا بالطائرة ، وبثوب واحد يغطي جزءً من جسده يصنعه بنفسه ، كل هذا دفعني للاقتداء به · وكانت أول خطوة لي في تنفيذ تعاليم غاندي هي أن أتعلم الحياكة · وبالفعل وجدت نفسي وفي فترة وجيزة قد أجدت صناعة الفتائل الصوفية ثم صناعة (الطاقيه) و (الدكه) ، وكنت فخورا بذلك · كنت أحس في غاندي صديقا بل وحليفا ، فهو يناضل ضد الانجليز ولي مع الانجليز ثأر قديم عندما عكروا صفو قريتي ، وشظاياهم ما زالت آثارها باقية في جسم والدتي ·

في تلك الأيام حدثت لي قصة طريفة ·· ان خروجي في المظاهرات ، وترديدي لبعض الأخبار السياسية التي ألتقطها من هنا ومن هناك ، وتعلمي لصناعة الفتائل الصوفية والطواقي والدكك تيمنا بالمهاتما غاندي ، كل هذا أشعرني بحالة من الغرور بحيث توهمت في نفسي القدرة على فعل أي شيء والقيام بأشياء لا يستطيعها الآخرون · كنت آنذاك في (السنة الثالثة) أولية ، وكان طلاب المرحلة الوسطى يصدرون صحفا حائطية يحررونها بأقلامهم ويعلقونها أمام فصولهم · كنت معجبا بل ومغرما بتلك الصحف ، ولكن بشكلها اكثر من مضمونها ·· لم أكن أفقه كل ما ينشر بها ، الا أن الألوان والرسوم والخط الجميل (كالسلاسل الذهبية) ، كل هذا كان مثار اعجابي · يومها فكرت أن أصدر صحيفة

خاصة بي ، على أن يكون قراءها زملائي من (أبناء الحي) وهم من مدارس مختلفة ·· وما ان لمعت الفكرة برأسي حتى بدأت فورا بالاستعداد لتنفيذها · لأسبوع كامل لم أساهم مع زملائي (بقرش) في الفطور بحجة أنني لا أملك قرشا ، وكنت أفطر على حسابهم · وفي نهاية الأسبوع جمعت الحصيلة وكانت سبعة قروش ، اشتريت الأقلام الملونة وورقتين كبيرتين ، من ذلك النوع الذي كان يستعمل في المدرسة للصحف الحائطية · وفي يوم الخميس ، وبعد تناول طعام الغداء ، أحضرت الأوراق والأقلام والالوان والحبر وشرعنا في العمل ، علما بأنني ولتلك اللحظة لم أكن قد فكرت في موضوع واحد من المواضيع التي ستحويها الصحيفة ، سوى اختيار اسمها (صوت الطالب) · جلست ثم شرعت في كتابة اسم الصحيفة بخط كبير ثم ضخمته بالأقلام الملونة من أحمر وأخضر وأصفر ، نظرت اليه مليا فنال اعجابي ، فانتشيت وغمرني السرور ، وتأكدت بأن مشروعي الضخم قد رأى النور ، بعد ذلك قمت بتسطير الصفحات بحيث تتكون كل صفحة من ثلاثة أعمدة ، وحين بدأت أفكر في المواضيع التي سأكتبها ·· لم أهتد لأي موضوع ، وجلست لساعتين ساهما دون أن أصل لشيء ·

وفجأة لمعت في ذهني فكرة كتابة رثاء لأحد رجال الحي الذي مات في تلك الأيام ، فأمسكت بالقلم وبدأت أكتب : « بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد الصادق الأمين » وتوقفت هنا لأن هذه هي الجمل الوحيدة التي كنت قد حفظتها من خطباء الجوامع حيث كنت أواظب على حضور صلاة الجمعة بالجامع الكبير · بعد هذه الكلمات عجزت عن اضافة أي كلمة أخرى · جلست لما يقرب الساعتين واجما ويكاد اليأس يحطم حماسي ، وفجأة أقنعت نفسي بأنه ليس من الضروري أن أكتب في موضوع معين ، بل علي أن أكتب ما أحفظه من حكم وأشعار · أمسكت بالقلم وبدأت في تحرير الصحيفة بكل سهولة ويسر ، وكانت المواضيع من العينة التالية : « ان

كنت أسود فالمسك لوني ، وما لسواد جلدي من دواء ، ولكن تبعد الفحشاء عني ، كبعد الأرض عن جو السماء » • « يا سادة يا بني حمير ، أنا شيبوب وده عنتر • أنا باشتهي أكله وعنتر يشتهني عبله » • « السعودي سل سيفه وضيع العربان أمان أمان » • « تموت الأسود في الغابات جوعا ولحم الضان تأكله الكلاب » •• وهلم جرا •• مواضيع لا رابطة بينها ، فكلمة من هنا ومقطع قصيدة من هناك ، وشيء من المدائح النبوية ، وبالذات قصائد عبد الرحيم البرعي ، التي كنت أحفظ الكثير منها بحكم [illegible]دي على الموالد لما تزخر به من خيرات من أرز ولحم وشاي • ومن كل هذا الشتات حررت الصحيفة ثم علقتها على الجدار الداخلي للمنزل ثم بدأت في دعوة الأصدقاء من أبناء الحي للاطلاع عليها خلال مساء الخميس ونهار الجمعة • وفي صباح السبت وجدت ان الصحيفة قد اختفت ، ورغم بحثي عنها واستفساراتي لم أجد من يدلني على صحيفتي العزيزة التي حررتها بعصارة (فكري) •

وفي يوم الأحد وأثناء فترة الافطار جاءني طالب يقول أن أستاذ فلان ـ وهو المسئول عن فصلنا ـ يريدك بالمكتب • قرعت الباب قبل أن أدخل حيث كان بالمكتب مجموعة من المدرسين وكل منهم جالس خلف مكتبه ، وسمعت الأستاذ ، وبعد أن نظر الي يقول : (تفضل يا عنتر) ، وشاهدت المدرسين كلهم ينظرون الي ويقهقهون ضاحكين •• فلم أدخل للمكتب الا أن المدرس ناداني : (اتفضل ادخل يا صالح) • وما ان وقفت أمامه حتى فتح الدرج وأخرج منه (صحيفتي) صوت الطالب ، وقال :

ـ يا صالح ، انني معجب بطموحك في اصدار صحيفة حائطية ، ومثل هذه الفكرة من الممكن أن تطرح في الفصل ويشترك معك عدد من الطلاب في اصدار الصحيفة • ولكننا بحكم معرفتنا لمستواكم لم نطرح الأمر حتى تنتقلوا الى المرحلة الوسطى • ولكن قل لي لماذا لم تكتب موضوعا انشائيا بدلا من هذه الجمل المبتورة التي ملأت بها الصحيفة ؟

من جانبي شرحت له المعاناة التي مررت بها وعجزي عن التركيز في موضوع معين ، ابتسم وقال :

ـ أوصيك أن تقرأ كثيرا من القصص ثم حاول تلخيصها • أيضا قبل التفكير في تحرير صحيفة حاول أن تكتب مواضيع انشائية عن شتى الأمور ويومها سوف تكون قادرا على الاشتراك في تحرير الصحف الحائطية ، والآن أعددنا لك هذه القصة الممتعة لتقرأها • ولكن قل لي : هذا الرثاء الناقص هل كان لصحيفتك التي ماتت قبل أن ترى النور ؟

هنا انفجر المدرسون بالضحك • أما أنا فقد انصرفت مكتشفا جهلي ومصمما للأخذ بنصيحة هذا الأستاذ • وبينما أنا سائر نحو زملائي تذكرت مدرس الحساب الذي عاقبني على جهلي الذي لم يكن لي يد فيه ، وأحسست باحترام وشعور بالمحبة نحو هذا الأستاذ الذي لم يعاقبني ولم يسخر مني ولكنه وجه لي نصحا أبويا وبهدوء •

تمر الأيام والسنين ، وننتقل من فصل الى آخر الى أن توسطنا المرحلة الوسطى من التعليم ، وتتسع مداركنا ونلم بالكثير مما كنا نجهل • كنا مجموعة من الأصدقاء بالمدرسة ، وقد اعتدنا أن نتبادل الكتب والصحف التي نحصل عليها ، وأصبحت قراءاتنا تتعدى المقررات المدرسية • كما بدأنا نوفر جزءً من مصاريف الفطور لنشتري الصحف والروايات • وقد واظبنا على شراء بعضا من الصحف المصرية مثل المصري ، والكاتب والهلال • أيضا التهمنا معظم روايات جرجي زيدان التاريخية • أما كتابا عودة الروح لتوفيق الحكيم و"الأيام" لطه حسين فقد قرأناهما مرات عدة وكان تأثيرهما علينا كبيرا • أما كتب مصطفى لطفي المنفلوطي فقد كان بعض من أساتذتنا ينصحوننا بعدم اضاعة وقتنا في قراءتها • ولكن أستاذا مصريا للغة العربية ، كان له تأثير علينا وجهنا باستمرار لقراءة المنفلوطي قائلا : « مهما تستوعبون من معارف فان اللغة هي الأساس للتعبير والاستيعاب • والمنفلوطي يساعدكم في تحسين مستواكم اللغوي ويمدكم بحصيلة لغوية رفيعة ، فعليكم بالاستمرار بل بالاكثار من قراءته » • وقد أخذنا بتوجيه هذا الأستاذ •

لم نكتف بتبادل الكتب والصحف والمجلات والروايات • بل كنا نعقد جلسات نتناقش فيها حول ما نقرأه • ومعظم قراءاتنا كان من انتاج الأقلام المصرية • ولهذا كنا نحتفظ بأحاسيس متأججة نحو مصر ،

بل كنا من المتعصبين لوحدة وادي النيل ولحزب الوفد على وجه الخصوص · أما زعامات هذا الحزب أمثال النحاس ومحمد صلاح الدين وفؤاد سراج الدين ومكرم عبيد فقد كنا ننظر اليهم باعجاب مشوب بالتقديس · ومما زاد في ارتباطنا عاطفيا بمصر المجاعة التي اجتاحت شرق السودان آنذاك · وقد قامت مصر بجهود كبيرة لاغاثة المنكوبين بارسال الملابس والبطاطين والأغذية · وبقدر ما كان تأييدنا لمصر مطلقا فان معارضتنا لبريطانيا التي تحكم السودان آنذاك ، كانت مطلقة أيضا · ولكن حادثا جرى في تلك الأيام ، لم يغير أحاسيسنا الطيبة نحو مصر ولكنه فتح عيوننا على حقيقة كنا نجهلها ، وهي أن بمصر قوى معادية لأماني الشعبين في مصر والسودان وعلى رأس هذه القوى الملك وزبانيته من السياسيين ·

كانت الحادثة استشهاد الطالب السوداني صلاح بشرى · ذهب الى مصر لتلقي العلم ، وهناك التحق بالتنظيمات الثورية المصرية كمعظم الطلاب السودانيين الذين كانوا يدرسون بمصر ، تنفيذا لشعار الكفاح المشترك بين الشعبين السوداني والمصري · ولكن جهاز الجستابو المصري الرهيب الذي كان يعمل للمحافظة على العرش والمنتفعين به تمكن من القاء القبض على الطالب صلاح بشرى ، وكما كان يتعرض كل من يقع في أيدي هذا الجهاز من المصريين والسودانيين ، فان صلاح بشرى تعرض لمعاملة قاسية من التعذيب والاستجواب المستمر والحرمان من الغذاء ، وكانت النتيجة اصابته بمرض السل فلم يجد العلاج وأخيرا أسلم الروح · وكان ذلك في أيام حكومة ابراهيم عبد الهادي · وقد حمل جثمان الشهيد الى مدينته عطبره · وهنا انفجرت المظاهرات التي عمت السودان ، وخرجنا في تلك المظاهرات ونحن نهتف « عبد الهادي كلب الوادي » · ومنذ ذلك التاريخ بدأنا نحاول التمييز بين القوى التي يجب تأييدها في مصر والقوى التي يجب معارضتها بنفس معارضتنا للانجليز، وكان للقصيدة العصماء للشاعر المصري محمد كمال عبد الحليم التي

رثى بها الشهيد السوداني الطالب صلاح بشرى تأثيرا سحريا في نفوسنا، حيث يقول فيها :

« حسبوه سيساوم حينمـا يدنو المصير
وجدوا حرا يقاوم وهو في النزع الأخير »

وكنا نردد هذه القصيدة دوما في مجالسنا ونترنم بها منفردين ٠

شهدت مصر والسودان في تلك الفترة حركة مد ثوري وجماهيري ليس له مثيل ٠ ففي مصر اضرابات عمالية وطلابية ، وحكومات تسقط وحكومات تعتلي الحكم لترحل بعد فترة وجيزة ٠ وفي السودان يحدث أول وأطول اضراب عمالي من نوعه بقيادة عمال السكة الحديد ولمدة شهر كامل ، ويتضامن الطلاب مع العمال فتشمل الاضرابات كل المدارس الثانوية وهي حنتوب وخورطقت ووادي سيدنا وجامعـة الخرطوم ٠ وتختلط الحركة المطلبية للعمال مع الشعارات السياسية ضد الانجليز والمطالبين بالاستقلال الناجز الكامل ٠٠ وما أعظم التلاحم الجماهيري الذي برز في تلك الفترة ، فالشعب السوداني بكل فئاته متضامن مـع العمال ، والطلاب يعلنون الاضرابات والاعتصامات ويقومون بالمظاهرات والتجار يجمعون التبرعات للعمال المضربين ٠٠ وقادة العمال معتقلون وتهتف كل الحناجر في جميع المدن السودانية مطالبة باطلاق سراحهم ، والانجليز يحاولون تسيير القاطرات بأنفسهم ولكنهم يعجزون مما أصاب حركة النقل بشلل تام ، وكل المشاعر تتجمع باتجاه واحد هو المطالبـة بجلاء الانجليز عن السودان ٠

من المشاهد الخالـدة الراسخـة بذهني مـن أحـداث تلك الأيام المظاهرات التي عمت مدينة بورتسودان ولم يتخلف عن الاشتراك فيها حتى النساء والأطفال واستمرت أياما عديدة ٠ كانت هناك مظاهرة ضخمة تشق السوق الرئيسي للمدينة ، يتقدمها أحد أعيان المدينة حاملا سيفه ، وكانت تلك المظاهرة تهتف هتافات مدوية ضد الانجليز ٠ ومن

غريب الصدف أنها كانت تسير في نفس الشارع الذي شهدت فيه موكب المعتمد البريطاني قبل سنوات بمناسبة الاحتفال بنهاية الحرب العالمية الثانية وانتصار بريطانيا • وعادت الى ذهني تلك الصورة بينما كنت أسير وسط المظاهرة • في تلك الأيام تملأ الأعلام البريطانية واجهات المحلات التجارية ، والجماهير مصطفة على جانبي الطريق تصفق لموكب المعتمد البريطاني الذي يختال فوق جواده • أما في هذه المظاهرة التي أسير وسطها فان المحلات التجارية مغلقة •• ونفس الجماهير التي كانت تصفق على جانبي الطريق ، ها هي في وسط الشوارع تهتف بسقوط بريطانيا • وفي تلك اللحظة شعرت بنشوة طاغية وكأن كل من يسير في هذه المظاهرة متضامن معي وودت لو أعانقهم فردا فردا • وبينما المظاهرة سائرة في طريقها تصدى لها بوليس الطوارىء بهراواتهم وخوذاتهم الحديدية وكان على رأسهم ضباط بريطانيون ، وبدأت معركة طاحنة بين البوليس والمتظاهرين ، وكانت أسلحة المتظاهرين العصي والحجارة • وفي ذلك اليوم انتهزت فرصتي وبدأت أجمع الحجارة ثم أقذف بها في وجه البوليس بكل قوتي ، وكنت أصوب معظم الحجارة باتجاه الضباط الانجليز علني أصيب أحدهم • وقد تحمس بعض المتظاهرين والتحموا بالأيدي مع البوليس مما أوقعهم في الأسر • ولم تكن المعركة متكافئة لأن البوليس بدأ باستعمال الأسلحة النارية • وهنا تبعثر المتظاهرون ولذنا بالفرار ، بعد أن تم اعتقال العشرات وهم يهتفون بحياة السودان وبسقوط الانجليز •

وفي اليوم التالي استمرت المظاهرات ، وكنت متحمسا ومنتشيا لدرجة أنني بدأت أهتف بصوت عال والمتظاهرون يرددون من خلفي ، وهذا دفعني لأقفز أمام المظاهرة وأهتف « هاو هاو يسقط هاو » • وهاو هو الحاكم العام البريطاني آنذاك ، وكان هذا الهتاف تردده كل المظاهرات • وبينما كنت أهتف ويردد المتظاهرون من خلفي تذكرت حديثا قديما جرى بيني وبين والدتي ، فعندما كنت صغيرا حضرت في أحد الأيام مأتما بالقرية وشاهدت هناك النساء يتقاطرن على المكان •

وما ان تقترب احداهن من منزل المتوفى حتى تولول وتصرخ وتبكي بصوت عال وتنهمر الدموع من مآقيها ، وكانت والدتي من ضمنهن ، واستغربت لهذا أشد الاستغراب • فمن الممكن أن تبكي قريبات المتوفى أو اخوانه وأمه بهذه الحرقة ، ولكن كل هؤلاء النسوة كيف يبكينه بهذه الطريقة المعبرة عن ألم شديد • وعندما عدت للمنزل دار الحوار التالي بيني وبين والدتي :

ـ أمي ، انني شاهدت اليوم أمرا لم أجد له تفسيرا ، فقد كنت في مكان المأتم وشاهدت نساء كثيرات يبكين بحرقة على المتوفى مع أنه لم يمت اليهن بصلة ، فكيف يتمكن من اخراج كل هذه الأصوات العالية من الصراخ والدموع الكثيرة في لحظات ؟

ـ ان كل من هذه النسوة ، وعندما تقترب من مكان المأتم تتذكر كل منهن قريبا أو عزيزا توفاه الله ، وهنا تنفجر باكية عليه وليس على الشخص المتوفى والذي مات في هذا اليوم •

ـ اذن على من كنت تبكين اليوم يا والدتي ؟

ـ كنت أبكي على خالك ادريس الذي توفي في ريعان الصبا وقبل مولدك •• وهنا بدأت دموعها تنهمر مجددا •

لا أدري السبب الذي جعلني أتذكر هذه القصة بينما كنت أهتف في المظاهرة ويردد المتظاهرون من خلفي •• وتساءلت بيني وبين نفسي : هل أنا أهتف ضد الاستعمار البريطاني الذي يحتل السودان أم أهتف ضد الاستعمار الأثيوبي الذي يحاول ابتلاع بلادي أرتريا ؟ ودون أن أجد الاجابة على هذا التساؤل وجدت نفسي أندفع أمام المتظاهرين وأهتف : « يسقط الاستعمار في كل مكان » وردد المتظاهرون الهتاف بعدي مرات ثلاث •

تلك المرحلة من تاريخ السودان ، كانت من أروع المراحل ، بل انها كانت مثلا لعظمة أي شعب عندما يحدد هدفه ويتلاحم في كتلة واحدة لتحقيق هذا الهدف • كانت المظاهرات تعم كل المدن السودانية وجميعها تهتف بسقوط الاستعمار البريطاني •• تقام الندوات الأدبية والشعرية وبالذات في أندية الخريجين وتلهب الحماس الوطني بما تقدمه من روائع الفكر والأدب للانتاج السوداني والعربي •• الاضرابات العمالية والطلابية لا تتوقف •• وحتى أصحاب الطرق الصوفية وفي مقدمتها طائفة الختمية كونت اتحادات الشباب بزيها الخاص وتدريباتها وطوابيرها العسكرية •• الكل يهتف بحياة السودان وبسقوط الاستعمار حيث توحدت المشاعر والآمال والأهداف •• وجريدة (الصراحة) لصاحبها عبد الله رجب ظهرت الى الوجود كمنبر لكل الأقلام الحرة • ورغم أنها تعرضت للمحاكمات والتعطيل وتعرض صاحبها للاعتقال والسجن والغرامات الا أن تلك الصحيفة لم تتوقف ، بل انها كانت تمثل مدرسة الجيل ، وكنا نحن الطلاب شغوفين بقراءتها لأنها كانت تعبر عما يجيش في نفوسنا بمقالاتها السياسية والأدبية وقصائدها الوطنية ، وكانت تؤجج الحماس الوطني والعداء للمستعمر الأجنبي عن طريق كشفها لجرائم الاستعمار البريطاني ابان احتلاله للسودان وقمعه للانتفاضات الوطنية ، مثل ثورة ود حبويه بالجزيرة وثورة عام ١٩٢٤م لجمعية اللواء الأبيض وانتفاضة طلاب الكلية العسكرية أمثال الشهيد عبد الفضيل الماظ ورفاقه وعلي عبد اللطيف سجينا بالجنوب ، يتعرض للأوبئة ، وطريدا عن وطنه ثم شهيدا •

ان السلطات البريطانية كانت تواجه هذا المد الوطني بأساليب قمعية ، وكانت الاعتقالات والمحاكمات وفصل الطلاب عن المدارس والمستخدمين عن وظائفهم ومحاربتهم في أرزاقهم ، فالذي يفصل من الدراسة أو العمل كان يحرم من استيعابه في أي مكان آخر ، ولكن كل هذا لم يوقف المد الوطني • فالذي يدخل السجن في سبيل القضية الوطنية كان يمثل رمزا للبطولة ، وعبارة « السجن للرجال » كانت تتردد في كل

الأفواه • وكان الكثيرون من طلاب المدارس مطاردين من قبل بوليس المباحث ، والبعض منهم وضعت أسماؤهم في القوائم السوداء للملاحقة، وكان اسمي من ضمنهم ، وكنا نعرف ذلك الا أن هذا لم يدفع بنا للخوف والتراجع ، بل انه كان من أسباب شعورنا بالفخر والمباهاة وسط زملائنا الآخرين من الطلاب • وكنا نتعجل اليوم الذي يتم فيه اعتقالنا حتى نحس بأننا أدينا واجبنا كاملا • وهذا ما كان يدفع بنا للاشتراك في كل المظاهرات وتصدرها بالهتافات المعادية للاستعمار • وبالفعل لقد تم المنى •• واعتقلنا في احدى المرات ولكن الحكم كان بالسجن مع وقف التنفيذ لصغر سننا •

والاستعمار البريطاني عندما فشلت وسائله القمعية للحركة الوطنية لجأ لسلاحه المعروف وهو سياسة (فرق تسد) • وبدأت تظهر أسماء أحزاب وتشكيلات سياسية ولكنها كانت تختفي بنفس السرعة التي تظهر بها لأنها لم تجد من يهتم بها وينخدع بوعودها لأن الوعي السياسي وسط الشعب السوداني كان قد بلغ مستوى يمكنه من كشف الأيدي المحركة لتلك الأحزاب ، وكانت توصم فورا بأنها صنيعة بريطانية وكان هذا كافيا لموتها في مهدها •

رغم انغماسي في الحركة الوطنية بالسودان كأحد أبناء الشعب السوداني الا أنني لم أنس قضية بلادي أرتريا ، خاصة وفي فترة امتداد الحركة الوطنية السودانية كانت تجري بأرتريا أحداث جسام ، لأنها كانت فترة تقرير المصير ، لم تتوفر لي وسائل اعلامية للالمام بكل ما يدور في أرتريا من أحداث • فالصحف السودانية لم تكن تتناول أخبارها ، كما أن الصحف التي تصدر بأرتريا لم تصل للسودان • لهذا فان مصدري الوحيد لأخبار أرتريا هو ما كنت أستقيه من أفواه القادمين • وكنت أجد مشقة كبيرة في التعرف على القادمين من أرتريا كما ان الكثيرين منهم لم يكن لديهم المام كاف بما يدور هناك ، وآخرون ينقلون اخبارا تحتاج الى التمحيص لعدم دقتها • وباستمرار كنت أجمع ما

يتوفر لي من أخبار الرواة وأقوم بتسجيلها ثم أحاول أن أستشف من خلالها صورة عن الوضع السياسي هناك • وبمرور الأيام تأكد لي أن كل ما كنت أسمعه لم يكن بعيدا عن الحقيقة ، اذا لم يكن الحقيقة بعينها •

كل ما كان ينقل لي من أخبار لم يكن سارا ، بل كان يملأ نفسي بأحاسيس من الألم والحسرة والتخوف من المستقبل المظلم الذي تساق اليه أرتريا • وأبشع صورة كان ينقلها القادمون هي انقسام الشعب الأرتري بين مسلم ومسيحي ، وتروي الأقاصيص عن مظاهر هذا الانقسام وآثاره ، وكانت تدور بذهني أسئلة حائرة عن أسباب هذا الانقسام ودوافعه ومن الذي يستفيد منه ؟ أرتريا كانت مستعمرة ايطالية ، واليوم تقع تحت الاحتلال البريطاني • فلماذا ينقسم شعبها بين مسلم ومسيحي ؟ لماذا لم يتحد شعبها ويطالب باستقلاله الوطني ؟ ألا يعرف هذا الشعب ماذا فعل به الايطاليون ومن بعدهم البريطانيون ؟ وبدلا من أن ينقسم على أساس طائفي لماذا لم يتحد ويطالب بخروج بريطانيا ؟

كانت الأحزاب السياسية تنبت بشكل شيطاني وتتوالد مثل البكتيريا ، حتى يعجز المرء عن حصرها ، والشعارات التي ترفع متعددة ومتعارضة ، فمن مطالب بالاستقلال الى مطالب بالانضمام الى أثيوبيا •• هذا يطالب بتقسيم أرتريا •• وآخر يطالب بوصاية بريطانية •• فيرتفع صوت آخر يطالب بوصاية ايطالية •• تخرج مظاهرة بأسمرا تطالب بالاستقلال فتخرج مظاهرة مضادة لها تطالب بالانضمام وتصطدم المظاهرتان وتسيل الدماء • هذا الجو المشحون من التوجهات المتعارضة يتطور الى حرب أهلية ، تتواطأ قوات الاحتلال البريطاني مع الحكومة الأثيوبية ، فتمد أثيوبيا أنصارها بالسلاح حيث يشكلون عصابات من القتلة ويعيثون فسادا بالقرى الاسلامية الآمنة فينهبون ويقتلون ويحرقون • وكرد فعل تتكون مجموعات اسلامية مسلحة للدفاع عن

القرى الاسلامية ولرد هجمات العصابات المدعومة من أثيوبيا ·· الزعامات السياسية الخائنة تطير باستمرار الى أديس أبابا وتعود لأسمرا حاملة الأموال للرشاوى وشعارات الخيانة مثل « أثيوبيا أمنا ·· أثيوبيا أو الموت » ، وعندما يخاطبون الشعب الأرتري أو يتعرضون لذكر أرتريا فهم يتحاشون ذكر كلمة أرتريا أو الأرتريين ولكنهم يقولون : « يا شعب مأرب ملاش » وترجمتها (بلاد ما بعد نهر مأرب) وهذه هي التسمية الأثيوبية لأرتريا ، حيث أن نهر مأرب هو الحدود الطبيعية الفاصلة بين أرتريا وأثيوبيا ·

وتدلي الكنيسة والقساوسة بدلوهم في هذه اللعبة القذرة ، فكل من يعارض أثيوبيا من المسيحيين يعتبر خارجا عن ارادة الكنيسة وبالتالي يعد كافرا ويمنع من تعميد أطفاله بالكنيسة ، فجعلوا من الدين مطية لخدمة مطامح الأمبراطور هيلاسلاسي التوسعية ·

أثيوبيا تحرك عصابات القتل بالمدينة وتبدأ الاغتيالات السياسية لدعاة الحركة الاستقلالية بالقنابل والمسدسات وحتى بالتسميم وتنشر جوا من الارهاب ·· وسلطات الاحتلال البريطاني تشاهد كل ذلك وتتفرج عليه دون أن تحرك ساكنا ·

في كل دورة من دورات الأمم المتحدة تناقش القضية الأرترية ، وتذهب الى هناك وفود أرترية متعددة وليس وفدا أرتريا واحدا ، والمندوب الأثيوبي وهو وزير خارجيتها يقف متبجحا في أروقة الأمم المتحدة ويطالب باعادة أرتريا الى أثيوبيا باعتبارها جزءً منها ·· وتأتي لجان الأمم المتحدة الى أرتريا لتقصي الحقائق ·· وتطوف بالمدن والأقاليم الأرترية المختلفة وتستمع هنا وهناك الى أقوال متضاربة ومتعارضة حول رغبة المواطنين ومستقبلهم ·

وهكذا نجحت المخططات الأثيوبية المتواطئة مع المخططات الاستعمارية ، واختلط الحابل بالنابل ·· (وضاع القياس) كما يقولون ، فلأثيوبيا أصواتها وأبواقها ونفس الشيء لبريطانيا وحتى ايطاليا المنهزمة · ووسط كل هذا الضجيج ضاع الصوت الأصيل للشعب الأرتري في معارك انفصالية ووهمية دفعه اليها العملاء والخونة وقصيرو النظر ممن تصدروا قيادته في تلك المرحلة الدقيقة من تاريخه ·

كانت هذه هي الصورة القاتمة التي تجمعت لدي من أفواه القادمين، وكان الحزن والألم يحز في نفسي ، كنت أضع المقارنات ، أشاهد هنا الشعب السوداني قد حدد عدوه وحدد هدفه ، والشعب بكامله متلاحم ومرصوص في صف واحد لتحقيق هدفه الواحد الواضح ، ويسخر كل طاقاته ضد عدوه الواضح ، فلا مظاهرات ومظاهرات مضادة بل مظاهرات واحدة ضد الوجود البريطاني ·· ولا حرب أهلية وعصابات تنشر الموت وسط المواطنين ، ولا اغتيالات سياسية ، ومسيرة الجماهير العمالية والطلابية والسياسية تسير كلحن موسيقي جذاب لا يسمع من بينها صوت نشاز ، هذا ما كنت أشاهده وأعيشه في السودان ولهذا كانت قناعتي راسخة بأن استقلال هذا الشعب وتحرره من قيود الاستعمار البريطاني سيصبح حقيقة ملموسة في المستقبل القريب · أما في وطني أرتريا فقد كانت الصورة على النقيض من ذلك تماما ، ولهذا كنت أحس بحالة من الخوف والتهيب للمستقبل الغامض الذي ينتظر الشعب الأرتري ·

في عام ١٩٥٠م سمعت بأن الأمم المتحدة (قررت) النظام الفدرالي بين أرتريا وأثيوبيا ، وقد صعقت لهذا النبأ ، فقد كانت كل أحلامي وآمالي تتجسد في استقلال أرتريا . وفجأة وجدت هذه الأحلام تتسرب وتكون النتيجة ، النظام الفدرالي بين أرتريا وأثيوبيا . لم أكن ملما بتفاصيل هذه الفدرالية ، ولكن كون هذه الفدرالية مرتبطة بأثيوبيا فان الأمر لم يرق لي ، ألا يكفينا ارتباطنا بايطاليا ثم ببريطانيا ؟ وهل هو قدرنا أن نكون مرتبطين دوما بقوى خارجية ؟ ألم يكن من الخير لنا لو فزنا باستقلالنا ؟ وهل كان ارتباطنا بأثيوبيا فدراليا أمرا ضروريا ؟ وأثيوبيا التي نشرت بالأمس جوا من الارهاب والاغتيالات السياسية وعصابات القتل والنهب ، أثيوبيا التي فعلت كل ذلك ودون أن تكون بيننا وبينها أي رابطة ، كيف سيكون مسلكها معنا وهي مرتبطة بنا فدراليا ؟ هذه الأسئلة وغيرها من الأسئلة الكثيرة كانت تتردد دوما في رأسي دون أن أجد لها الاجابة الشافية .

وفي احدى المرات اتخذت قرارا لا رجعة فيه ، السفر الى هناك سيرا على الأقدام . وبالفعل بدأت في اعداد الخطاب الذي سأقوم بطبعه وتوزيعه على الجماهير ، وكان على النحو التالي : « أيها الأرتريون اتحدوا .. فالدين للديان والوطن للجميع .. انني لا أعرف ما هي

الفدرالية التي قررت لنا ولكن من المحتم أن الاستقلال هو طريقنا الطبيعي ، ارفضوا هذه الفدرالية وطالبوا بصوت واحد بالاستقلال • لماذا أنتم تختلفون ؟ ألستم شعبا واحدا ؟ ألا يكفيكم ما عانيتموه من ارتباطكم بايطاليا وبريطانيا حتى ترتضوا اليوم بالارتباط بأثيوبيا ؟ ولماذا أثيوبيا بالذات ، أثيوبيا التي جربتموها قبل أن ترتبطوا بها ورأيتم أفعالها المتمثلة في الاغتيالات والارهاب ؟ أيها الأرتريون اتحدوا، فالاتحاد قوة والانقسام ضعف ••• » وتلوت الخطاب أمام نفسي فازداد حماسي لتنفيذ الفكرة ، وفي الحال ذهبت لصديقي أحمد الذي كان لي بمثابة الشقيق والصديق وكانت لنا أحلام مشتركة في تحقيق الاستقلال والعدالة في ربوع السودان وأرتريا • وشرحت له الفكرة ثم دفعت اليه بالخطاب ليقرأه • قرأ أحمد الخطاب ثم التفت الي قائلا :

ـ الفكرة وجيهة وسامية ولكن تنفيذها صعب ، قد نستطيع الوصول الى أسمرا بأي كيفية كانت ، وقد نستطيع طباعة الخطاب وتوزيعه • ولكن صدقني أنك لا تستطيع أن تخلق أثرا يذكر • واذا قارنا ما تقدمه من تضحية بترك الدراسة ثم تحمل المصاعب للوصول الى أسمرا ، وكل هذا مقابل أن تطبع خطابا وتوزعه ، وقد تتعرض لمخاطر غير محسوبة ، كل هذا يبرر لي ان أطلب منك الكف عن هذه المغامرة ، وعليك باكمال دراستك والاستعداد لمعركة قد تطول • وعليك أيضا أن تستفيد من التجربة السودانية التي تعيشها معنا • هل تتصور أن طالبا سودانيا يدرس بالمرحلة الوسطى في بلد آخر غير السودان ، كان بمقدوره أن يأتي الى هنا ويحرك كل هذه الجماهير بخطاب مكتوب ؟ ان معركتنا بالسودان بدأت منذ عهد طويل • بدأت أيام محمد احمد المهدي وثورته ثم تكررت في ثورة ود حبوبه واستمرت في ثورة ١٩٢٤م ثم في مؤتمر الخريجين ومعارك شعبنا ضد الجمعية التشريعية • وها هي جماهيرنا اليوم تتوج كل هذه النضالات باصرارها وتماسكها لطرد الاستعمار البريطاني ، وأنتم أيضا في أرتريا لكم معاركم والتي لن تستطيع

الفدرالية أو أثيوبيا أن تنحرف بها عن مسارهـا • وفي اعتقادي أن معركتكم طويلة ولن يحسمها ذهابك الى أسمرا وتوزيع خطاب •

اقتنعت بفكرة هذا الصديق ، خاصة وأنه كان أكثر مني اطلاعا وثقافة وذلك لقراءاته العديدة وعلاقاته الحميمة بقادة بعض الأحزاب السياسية •

ان الخمسينات والستينات من هذا القرن كانت أعوام الشعوب ، وبنهاية الحرب العالمية الثانية بدأت الشعوب في افريقيا وآسيا تنهض وتنادي بحقها في تقرير المصير والاستقلال ، ولتحقيق هذه الغاية كان سلاح أكثرها هو النضـال السلبي باعـلان الاضرابـات والمظاهرات والاعتصامات ورفع العرائض والمذكرات ، وكانت الانتصارات متتالية ، كان انتصار الثورة الصينية ثم اعلان استقلال الهند والباكستان بعد انفصالهما ، وثورة الملايو والهند الصينية المشتعلة بقيادة المناضـل (هوشي منه) ثم حصار قلعة (ديان بيان فو) وهزيمة القوات الفرنسية واستسلامها على أيدي القائد الفذ الجنرال (جياب) • وفي مصر ثورة ٢٣ يوليو بقيادة عبد الناصر التي قضت على عرش آخر سلالة محمد علي باشا ، الملك فاروق ، ثم اتفاقية الجلاء المعروفة باتفاقية جمال ـ هيد والتي بموجبها جلت القوات البريطانية عن مصر وعن قناة السويس • وفي قلب افريقيا ثورة الماو ماو في كينيـا ضـد الوجود البريطاني ، وقائدها جومو كينياتا رمزا للثورة الافريقية ضد الاستعمار الأبيض وكل ما يمثله من مخاز عبر الأجيال ، بدءا من تجارة الرقيق ، ونهبا للممتلكات والخيرات ، والبعثات التبشيرية التي تأتي مثل حصان طروادة حاملة في داخلها الاستعمار بشكله التقليدي حيث يباشر بنهب المواد الخام ويستغل الأيدي العاملة الرخيصة • وتتوج كل هذه الانتفاضات بثورة الجزائر الفتية ، وانتفاضة شعبي تونس ومراكش بقيـادة كل مـن الحبيب بورقيبة حيث يودع السجن والسلطان محمد الخامس الذي يتم نفيه الى جزيرة مدغشقر ، ويستبدلهما الاستعمار الفرنسـي بعملاء

محليين ٠

كنا نعيش كل هذه الملاحم والمآثر البطولية ونتغنى ببطولات ثوار الجزائر وبجومو كينياتا لديان بيان فو ٠ وأذكر يوم سماعنا بسقوط قلعة ديان بيان فو ، كانت الفرحة تملأ جوانحنا وكنا نحتضن بعضنا البعض ، ونتصور أنفسنا وكأننا نحمل الرشاشات ونقتحم تلك القلعة متلقين أوامر الهجوم من الجنرال جياب ٠ كنا نتابع يوميا من خلال الاذاعات والصحف أخبار المعارك الدائرة في قارتي آسيا وافريقيا بدءا من ثورة الدكتور محمد مصدق في ايران ومرورا بثورة الملايو والهند الصينية والحرب الكورية وانتهاء بالجزائر والمغرب وتونس وكينيا ٠ والانتصارات التي تحدث هنا وهناك كنا نهلل لها باعتبارها انتصاراتنا وكنا نحزن عندما نسمع عن هزائم في هذه الجبهات حيث كان راديو لندن هو الذي يتطوع ويبادر بابلاغنا بأخبار الهزائم قبل غيره من الاذاعات الأخرى ٠

في تلك الأيام أصبت بحالة نهم للعلم والمعرفة ٠ ولذلك كنت أقرأ كل ما يقع بين يدي من كتاب أو مجلة ، أما المكتبة المدرسية المحدودة فقد قرأت كل ما فيها من كتب ٠ وأذكر أنني في أحد الأيام وكنت في السنة النهائية الوسطى ، سألت الأستاذ :

ـ كم من السنوات تكفي للانسان حتى يلم بكل العلوم والمعارف ؟

فنظر الاستاذ باتجاهي مليا دون أن يجيب ثم بدأ يمشي بين الصفوف يتمهل الى أن وقف بجانبي وقال :

ـ يا ابني ، لو اجتمع كل علماء الأرض السابقين والحاليين واللاحقين فانهم لا يلمون بكل العلوم ، ولهذا فمن المحال أن يلم شخص ما بكل العلوم والمعارف ٠ وما أوتيتم من العلم الا قليلا ٠

ان هذه الاجابة البسيطة من ذلك المعلم الجليل كانت بالنسبة لي درسا مفيدا بحيث لا أجهد نفسي للالمام بكل العلوم ، الأمر الذي يعتبر

مستحيلا · وتعلمت من هذا التوجيه أن أنظم قراءاتي ·

كما يقولون (تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن) ، فقد اضطرتني ظروفي العائلية أن أقطع دراستي بنهاية المرحلة الوسطى · فقد كان والدي يلح بأن أترك الدراسة حتى قبل الانتهاء من المرحلة الوسطى · وكان يقول لي : « لقد كبرت ونلت من التعليم ما يكفي ، وقد آن الأوان لتعمل وتتحمل عني جزءً من المسئولية العائلية كما أنني أفكر بزواجك لأرى أبناء أبنائي قبل أن أرحل من الدنيا » · وكان يضرب لي أمثلة عن أبناء معارفه وأصدقائه الذين بدأوا يعملون وحتى دون أن يلتحقوا بالتعليم وها هم قد تزوجوا ويتقاضون مخصصات شهرية يدفعون جزء منها لأسرهم · ولكني كنت دوما أتمكن من اقناعه لأستمر في تعليمي عندما أذكره بما قاله لي يوم أرسلني للتعليم ، والمستقبل الذي كان يحلم به لي · وفي نفس الوقت كنت أؤكد له بأنني سوف أحقق له رغبته بارساله الى الأراضي المقدسة لأداء الفريضة متى ما بدأت أعمل شرط أن يسمح لي على الأقل باكمال المرحلة الوسطى من التعليم · وهكذا استمر الالحاح من والدي والتسويف من جانبي الى أن انتهيت من المرحلة الوسطى ، وكانت لي رغبة جامحة للاستمرار في التعليم خاصة وأنني كنت متفوقا وناجحا وكان الطريق أمامي مفتوحا للعلم · ورغبتي في التعليم كانت مقرونة بالأهداف التي كنت أحلم بتحقيقها ، وكلها مرتبطة بتحرير بلادي · أما رغبة والدي فقد كانت لا تتعدى ايجاد حياة مستقرة لي وللعائلة · وكان لا بد مما ليس منه بد ، فقد كان والدي يشكو من الالتزامات العائلية المتزايدة وكذلك من الضرائب والعشور التي فرضتها عليهم الحكومة الجديدة بعد الفدرالية · وهنا اضطررت لتأجيل رغباتي وطموحاتي وبالتالي تركت فكرة الاستمرار في الدراسة ثم عملت بوظيفة لا بأس بها ·

لم يمر عام على عملي بالوظيفة حتى أصبحت عريسا · ففي أيامنا لم يكن للابن رأي في هذه المسائل ، وانها تعتبر من اختصاص كبار

العائلة وفي مقدمتهم الوالد الذي يستفسر ويبحث عن العروسة المناسبة لابنه • وعندما يقع الخيار عليها ، يقوم بابلاغ ابنه بأنه قد تم الخيار لزواجك من بنت فلان ، وعلى الابن أن يوافق دون مناقشة وأن يقوم بالاستعدادات اللازمة للزواج ، فهو يثق بأن والده لن يختار له عروسا دون أن يتأكد من ملاءمتها له من شتى الوجوه ، وتزف اليه عروسته دون أن يكون قد شاهدها من قبل • وهذا ما حدث لي بالضبط ، ولو أنني في البداية حاولت الخروج على هذه القاعدة عندما أبلغني والدي بأنه قد اختار لي شريكة لحياتي ، فقد اعترضت على فكرة الزواج قائلا : « أنني ما زلت صغيرا وبدأت حياتي العملية منذ شهور وأحتاج لبعض الوقت حتى أستعد ، ثم انني أفكر بارسالك للحج قبل زواجي ، وكما تعرف أن الزواج مسئولية » • وهنا رد والدي بكل حزم :

ـ اسمع يا ولد ، ان جدك الله يرحمه عندما زوجني من والدتك كان عمري سبعة عشر عاما ، وهو لم يستشرني ويطلب موافقتي ، وهذا من أعظم ما فعله لي لأن الله رزقني بك وباخوتك وأنا لم أزل شابا يافعا • أما مسئولية الزواج فالأرزاق بيد الله • ويقول الرسول (صلعم) تزوجوهن فقراء يغنيكم الله ، والحمد لله لقد أصبحت موظفا وتتقاضى مخصصا كافيا لك ولكل العائلة • أما موضوع ذهابي للحج فمن الممكن تأجيله لعام أو عامين بعد زواجك » •

أمام هذه الحجج الدامغة لم أستطع أن أتقدم بالمزيد من الاعتراضات على فكرة الزواج ولهذا لذت بالصمت • وعندما لاحظ والدي سكوتي ، استرسل في حديثه قائلا :

ـ أما عن مواصفات العروس فاطمئن • انني أعرف أنك أصبحت موظفا وتلزمك زوجة فاهمة ومتعلمة ، ولهذا اخترت لك زوجة من المدينة وتجيد الطهي والتطريز ونظافة المنزل ، أما المواصفات الأخرى والتي ربما تخجل من الاستفسار عنها فاطمئن أيضا ، فأنا لم أشاهدها بعيني ولكني تأكدت من كل شيء من خلال عماتك ، فأنا والدك وأنت

أبني البكر ولهذا لا يمكن أن أزف لك عروسا قبل أن أتأكد من مواءمتها لك من كل الوجوه ٠

وقد تم كل شيء كما أراده لي والدي وتزوجت ، وقد زفت لي شريكة حياتي قبل أن أشاهد وجهها ، وبالطبع لم يكن من حقها أيضا أن تحاول مشاهدتي وابداء رأيها في الزواج مني ، فقد كانت هذه هي التقاليد الموروثة التي سار عليها مجتمعنا ولم يكن من السهل التمرد والخروج عليها دفعة واحدة ٠

حياتي الجديدة ٠٠ حياة الوظيفة والأسرة والاستقرار لم تجعلني أنسلخ عن كل طموحاتي واهتماماتي في أيام الدراسة ٠ فقد حافظت على علاقاتي بزملاء الدراسة الذين انتقلوا للمرحلة الثانوية ، وبدأت أستعير منهم المقررات الدراسية وأقوم بدراستها في منزلي ، وكنت حريصا ومواظبا للاستمرار معهم بهذه الطريقة دون أن يفوتني عام دراسي واحد ، كما أن ظروفي المادية المتحسنة قد أتاحت لي فرصة شراء الكتب المتنوعة في الثقافة العامة والمجلات والصحف ٠ كما كانت هذه هي الفرصة الأولى التي أقتني فيها جهاز راديو خاص بي مما مكنني من متابعة كل الأحداث العالمية وأخبار الثورات وانتفاضات الشعوب الآسيوية الافريقية بشكل يومي ، وسيرا على هذا النهج من الحياة ، فلم يكن لدي وقتا لأضيعه في الملاهي ومجالس نزوات الشباب ، اذ كان يومي مليئا بالعمل والدراسة والقراءة والاستماع لنشرات الأنباء ثم تلخيص كل قراءاتي في كراسات صغيرة ، كما أصبحت لي علاقات وطيدة ببعض الأحزاب السياسية ٠

من قراءاتي التي تأثرت بها وتركت في نفسي آثارا ما زالت باقية حتى اليوم هي بعض الكتب التي كانت ممنوعة آنذاك ، وكان كل شخص توجد معه هذه الكتب يتعرض للاعتقال والمحاكمة من قبل السلطات البريطانية وجهاز مباحثها ، وأولى هذه الكتب قصة (والفولاذ سقيناه)

لأوستروفسكي ، وقد أعجبت ببطل هذه القصة (بافل) ، ذلك العامل الشاب والمناضل الجسور الذي لا يهدأ له بال في سبيل تحقيق قضيته التي آمن بها ، ولا يخشى في سبيل ذلك الاعتقال والتشرد والجوع وحتى الموت • والكتاب الثاني الذي تأثرت به كثيرا كان كتاب (الأم) لمكسيم جوركي ، تلك الأم العظيمة التي ساندت ابنها ووقفت الى جانبه في كل مراحل نضاله الشاق وهي لم تستوعب ابعاد القضية التي يناضل ابنها من أجلها ، ولكنها كانت تؤمن برجاحة عقل ابنها كما كانت وبحسها العفوي تدرك أن القضية التي نذر ابنها نفسه لها لا بد وأن تكون قضية عادلة ، ولهذا ساهمت معه في نضالاته بأدوارها المتواضعة حتى أجادت فنون العمل السري ومراوغة أجهزة مخابرات القيصر الروسي ، ولازمت ابنها في مسيرته حتى الانتصار •أما الكتاب الثالث فقد كان (الديمقراطية الجديدة) لماوتسي تونغ • ورغم أنني لم أستوعب الكتاب جيدا الا أنني كنت معجبا بالثورة الصينية وبالمسيرة الكبرى • والكتاب الرابع الذي أعجبت به كثيرا كان قصة (الأرض) للكاتب المصري عبد الرحمن الشرقاوي لما يتميز به من واقعية وبساطة بعيدا عن الخيال الجامح والانفعال في تصوير حياة الفلاح المصري •

في هذه الفترة تم استقلال السودان • وكان يوم الاستقلال يوما مشهودا ، فمنذ الصباح الباكر تدفقت الجماهير باتجاه مبنى المحافظة • كل تلك الجماهير التي كانت تجوب الشوارع ، قبل أعوام خلت ، في مظاهرات صاخبة تهتف بحياة السودان وبسقوط الاستعمار ، ها هي تفرض ارادتها • وها هي أحلامها بالفوز بالاستقلال تتحقق • فالجميع يلبسون أزهى ملابسهم البيضاء والبشر والفرحة تعلو وجوههم • فمنهم من دخل السجن وهو يهتف بالاستقلال •• ومنهم من تعرض للضرب بالهراوات •• وهناك ممن فقدوا أبناءهم برصاص الانجليز في المظاهرات الصاخبة ضد الجمعية التشريعية في عام ١٩٤٨م • ها هم جميعا يشاهدون اليوم وقد تحققت أمنيتهم التي ضحوا من أجلها ، ولهذا

كان من حقهم أن يفرحوا ويبتهجوا ، وقد كنت واقفا وسط هذه الجموع الهادرة ، ولم تكن فرحتي وسروري بأقل منهم • ومن جانبي كنت أحس بالفخر لأنني شعرت وكأنني قد ساهمت بوضع طوبة في بناء هذا الصرح العظيم وهو استقلال السودان • وبينما كنت واقفا وسط هذه الجموع كنت أستعرض شريطا طويلا من النضالات التي اشتركت فيها بدءا من أول هتاف رددناه (الشجرة تسقى بالماء والحرية تسقى بالدماء) •• اشتراكي في المظاهرات الطلابية ثم مساهمتي في تحطيم البارات والسينما، وعدد الجلدات التي أحس بها في جسمي والتي نلتها على أيدي البوليس ثم اعتقالي واصدار الحكم بالسجن مع وقف التنفيذ وتصدري للمظاهرات وترديد المتظاهرين من خلفي ما كنت أهتف به بسقوط الاستعمار وحياة السودان • كانت هذه الذكريات الحلوة تمر بمخيلتي وأنا أشاهد الجموع تتزايد حتى امتلأ الميدان ، والبعض لم تسعه الأرض فتسلق فوق الأشجار ، كما امتلأت المباني المجاورة للمحافظة بالجماهير التي صعدت اليها •

وبدأت مراسيم اعلان الاستقلال بقراءة خطاب ثم تم انزال علمي دولتي الحكم الثنائي وهما العلم البريطاني والعلم المصري ورفع مكانهما علم واحد فقط هو علم جمهورية السودان ، مشيرا بأن السودان أصبح للسودانيين • وهنا بدأت الدموع تنهمر من عيون الكثيرين وهم يهنئون بعضهم البعض بالعناق ، ولم أتمالك نفسي حيث وجدت نفسي أجهش بالبكاء ، وأعانق هذا وأحتضن ذاك وأهنيء كل من أصادفه • ان ما شاهدته في ذلك اليوم والأحاسيس التي كانت تنتابني والتي كنت أقرأها في وجوه الجميع ، تجدني عاجزا عن تصويرها والتعبير عنها ، فما أعظمه من مشهد ، وما أبرعه من انجاز عندما تنتصر ارادة شعب وتتحقق أمانيه التي رسمها في خياله وناضل من أجلها ثم جعلها واقعا ملموسا • ان يوم اعلان استقلال السودان كان انتصارا لكل الأجيال السودانية التي حلمت وناضلت من أجله ، كان انتصارا للامام محمد أحمد المهدي الذي أقام

أول دولة سودانية مستقلة ·· وكان انتصارا للخليفة عبد الله التعايش وقواته في كررى وهي تدافع عن استقلال السودان الذي يتعرض لغزو خارجي ·· انه انتصار عثمان دقنه الذي ينازل قوات الاحتلال بالشرق ثم يعتقل ويكبل بالحديد ويرفض أن يعترف بالسلطة البريطانية ويموت في سجنه ·· وود حبوبه الذي يحاول استئناف المسيرة ·· وثوار عام ١٩٢٤م الذين لم يستشهدوا عن آخرهم الا بعد أن لقنوا المستعمرين درسا عن كبرياء هذا الشعب وعظمته ··· كما كان انتصارا لحملة الأقلام والفنانين ومنهم خليل فرح الذي يتغنى بأغنية عزه ، والتي يترنم بقصيدته العصماء (وطني الحبيب) ·· وأخيرا كان انتصار لمؤتمر الخريجين ولشهداء الجمعية التشريعية وللعمال والطلاب في اضراباتهم ومظاهراتهم ولصلاح بشرى شهيدا في غربته بعيدا عن الأهل والديار على أيدي جستابو ابراهيم عبد الهادي · كل هؤلاء وأولئك انتصروا يوم اعلان استقلال السودان ، فاستقلال السودان لم يأت هبة من أحد ولم يحققه حزب سياسي منفردا ولكنه جاء نتيجة تضحيات وسلسلة نضالات متواصلة خاضتها الأجيال المتعاقبة من الشعب السوداني ودفعت الثمن كاملا ·

بعد انتهاء مراسم اعلان الاستقلال بدأت الجموع تنفض ، وكنت أسير باتجاه منزلي ، مكررا عبارة واحدة : « أيضا هناك في أرتريا كان يجب أن يحدث مثل هذا ، استقلال كامل واضح دون ألاعيب ومسميات غامضة مثل الفدرالية » ·

ان فترة استقلال السودان كانت مليئة بالأحداث الدولية والعربية الكبيرة والتي كانت تشكل الحيز الكبير من اهتمامنا ونعيشها لحظة بلحظة، وأبرز هذه الأحداث كان انعقاد مؤتمر باندونغ لدول عدم الانحياز · وقد كان هذا المؤتمر مظاهرة دولية ضخمة تقوم بها الدول الحديثة الاستقلال بعد أن تخلصت من قيود الاستعمار التي رزحت تحتها طويلا· وكانت الشخصيات البارزة التي تمثل نجوم هذا المؤتمر تحيط بها

هالة من التاريخ النضالي وتتجسد فيها آمال وطموحات الشعوب التي ما زالت تناضل في سبيل الاستقلال • فهناك سوكارنو بطل استقلال أندونيسيا وبشخصيته المرحة التي تروى عنها الأقاصيص •• ونهرو خليفة غاندي والمعروف بمواقفه المتفردة وتاريخه النضالي في سبيل استقلال الهند ومنازلته للاستعمار في كل الميادين ومساندته للشعوب المناضلة في سبيل حق تقرير المصير ، وكتاباته السياسية ، ورسائله التي كان يبعث بها من داخل سجنه لابنته أنديرا غاندي •• وشو ان لاي ومن خلفه المسيرة الكبرى وثورة الصين العظيمة والحرب الثورية الطويلة التي انتهت بالانتصار الساحق •• وعبد الناصر ، ذلك الفتى الأسمر العربي ، الذي لا ينتمي للأسر الحاكمة أو الأرستقراطية العريقة ولكنه ينحدر من أسرة من بين الفلاحين ، ويشغل رتبة بكباشي بالجيش المصري ويحارب في فلسطين ، ولكنه يزلزل عرش فاروق وينتصر لثورة عرابي وثورة ١٩١٩م ثم تتجسد فيه آمال شعبه في التخلص من ظلم كل العهود والأجيال على أيدي الباشاوات والاقطاعيين ، ويصبح قائدا لثورة ٢٣ يوليو الخالدة التي كانت من أبرز معالم هذا العصر في تاريخ المنطقة العربية • وتيتو أيضا من أبطال الحرب ضد النازية الهتلرية وقائدا لحرب الأنصار ثم حاكما لشعبه وهو الذي لم ينحدر من الأسر الحاكمة •

كل هذه النجوم اللامعة في مؤتمر باندونغ ومبادءه الخمسة المشهورة وتطويره لشعار (الحياد) الذي كان يرفعه جواهر لال نهرو بحيث أصبح (الحياد الايجابي وعدم الانحياز) ، كل هذا أعطى لمؤتمر باندونغ أهمية تاريخية ودورا فعالا في الهاب مشاعر كل الشعوب المتطلعة للتحرر والانعتاق • ومن جانبنا كنا نتابع أخبار هذا المؤتمر يوما بيوم من خلال الاذاعات والصحف ونتناقش في كل ما يدور بداخله نقاشا جادا وكأننا أعضاء مشتركون فيه •

أما الحدث الثاني والذي اشتركت فيه أطراف دولية عديدة فقد بدأ صغيرا ولكنه تطور بشكل سريع حتى صار يهدد السلام العالمي ، فقد كانت حلبة الصراع لهذا الحدث هي المنطقة العربية وبالتحديد مصر • أما المتصارعون فقد كانوا أطرافا دولية عدة ، وبحق يمكننا أن نطلق عليه صراع الجبابرة • كان هناك عبد الناصر ذلك الزعيم الوطني الجامح الذي لم يتم ترويضه بحيث يقبل بالحلول الوسطية ويرفع شعارات تهدد المصالح الاستعمارية بالمنطقة العربية •• وفي الطرف الغربي من الكرة الأرضية هناك جون فوستر دالاس وزير الخارجية الأمريكية وفي معيته نظرية (ملء الفراغ) حيث كانت الولايات المتحدة قد بدأت ترث مناطق النفوذ البريطاني والفرنسي على أسس تختلف شكلا عن الاستعمار التقليدي الذي عرفته الشعوب ، ومن ورائه الأحلاف والقواعد العسكرية ومكارثي الرهيب الذي نشر جوا من الرعب بداخل الولايات المتحدة ذاتها • وثالث الجبابرة كان المستر ايدن الذي خلف السير ونستون تشرشل في رئاسة الوزارة البريطانية ، ذلك السياسي المفتون والمعروف بصولاته وجولاته في وزارة الخارجية البريطانية ويتربع حديثا على أرفع منصب في الأمبراطورية التي لا تغيب الشمس عنها • أما رابعهم فقد كان المسيو جيمولي والذي يمثل فرنسا الجريحة بهزيمتها في الهند الصينية وسقوط قواتها واستسلامها في قلعة (ديان بيان فو) الشهيرة وتخشى تكرار هذه الهزيمة في الجزائر التي اشتعلت ثورتها حديثا وتجد في عبد الناصر خطرا مباشرا لتأييده المعلن لثورة الجزائر واذاعات القاهرة التي تلهب حماس الجماهير العربية وتعبئها باتجاه مساندة ثورة الجزائر • أما الخامس والأخير فقد كان المستر بن غوريون أحد مؤسسي دولة اسرائيل والذي يمثل قلق دولة اسرائيل الحديثة التأسيس من بروز ظاهرة عبد الناصر في المنطقة العربية •

كانت البداية هي محاولات المستر دالاس جذب عبد الناصر وجره

لقبول القواعد والأحلاف العسكرية ، تقابلها محاولات عبد الناصر للحصول على السلاح من أمريكا وتمويل بناء السد العالي • تتكرر الوفود والمباحثات دون الوصول الى نتيجة مما يضطر عبد الناصر لكسر احتكار السلاح ويلجأ للمعسكر الاشتراكي للتسليح • وكمحاولة أخيرة لاعادة عبد الناصر من هذا الطريق تبدي أمريكا استعدادها لتمويل بناء السد العالي • وفجأة وفي محاولة لتأديب عبد الناصر وترويضه يعلن جون فوستر دالاس تخلي أمريكا عن تمويل بناء السد، ويأبي عبد الناصر الا أن يرد على هذا التحدي ويكيل لهم الصاع صاعين فيعلن تأميم قناة السويس ويستولي عليها • وتتلاحق الأحداث وتكفهر الأجواء ، فأسهم عبد الناصر ترتفع للقمة كبطل أسطوري •• وبريطانيا تهدد وتتكون لجان دولية لحل الأزمة ، وفجأة يبدأ هجوم ثلاثي بريطاني ـ فرنسي ـ اسرائيلي على مصر ، ويقف عبد الناصر ويعلن من الأزهر (سنقاتل ـ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم) • ويرتدي بزته العسكرية ويوزع السلاح على الجماهير • وتستمر الحرب أياما أظهر خلالها الجندي والمواطن المصري آيات من البسالة والتضحية، وتعم المنطقة العربية والعالم أجمع موجة عارمة من الادانة للحرب العدوانية التي تشنها دولتان عظميان ومعهما اسرائيل على مصر ويقف بولجانين ليوجه الانذار السوفياتي الشهير لبريطانيا بصواريخه عابرة القارات والقادرة على الوصول للجزيرة البريطانية اذا لم توقف حملتها العسكرية على مصر • والشعب المصري بكامله يعلن للعالم الصرخة الداوية التي أطلقها عبد الناصر (سنقاتل •• سنقاتل) ونشيد (الجنة هي بلادنا وجهنم هي حدودنا) يتردد على كل لسان •

وهنا تتوقف الحرب ويخرج عبد الناصر منها وهو أقوى مما كان • أما بريطانيا ، فقد كانت هذه الحرب ، هي بداية نهايتها كأمبراطورية عظمى • وينتهي ايدن وينزوي من مسرح السياسة نهائيا ، ويندفع عبد الناصر في تأييده لثورة الجزائر وفي معاداته للاحلاف والقواعد العسكرية وفي مقدمتها حلف بغداد •

ما أروع تلك الأيام ، فقد كانت كلها انتصارات وتوثب للامام ·· وأحلام وردية بالمستقبل الزاهر ، فقد قدنا في تلك الأيام مظاهرات صاخبة لتأييد مصر وادانة العدوان الثلاثي وبالذات بريطانيا · كما أنني في تلك الأيام بدأت أكتب مواضيع سياسية وأرسلها الى الاذاعة المصرية ، وبالفعل أذيع بعضها من ركن السودان والبعض من صوت العرب ، وكان هذا يملأني فخرا وأشعر بأن دوري لم يعد قاصرا في الاشتراك في المظاهرات فقط ، بل بدأت أساهم في دائرة أوسع عندما أشحن بمقالاتي الحماسية التي تذاع على الأثير كل من يستمع اليها وأنجح في تعبئته باتجاه القضية التي أؤمن بها ، وهي قضية محاربة الاستعمار وتسليط الأضواء على ممارساته غير الانسانية ضد الشعوب·

وان السد العالي الذي انسحبت أمريكا من تمويل بنائه قام الاتحاد السوفياتي بالموافقة على تمويله ، وكان هذا ضربة وجهت لسياسة دالاس الأمريكي الذي حاول أن يجعل عبد الناصر يركع أمام سياسة الضغط الاقتصادي · ولم يقصر عبد الناصر في خلق تظاهرة متحديا المستر دالاس عندما دعا عددا من رؤساء الدول ليحضروا حفل وضع الحجر الأساسي لبناء السد ، وبهذا ضرب مثلا في مواجهة الاستعمار ، وأكد بأن الركوع أمام الاستعمار لن يحقق شيئا من أماني الشعوب ، والشعب المصري ومن ورائه باقي الشعوب العربية بدأت تصدح وتردد أغنية عبد الحليم حافظ والتي يقول فيها : « قلنا حنبني واحنا بنينا السد العالي » ، الى أن تم بناء السد الذي عاد بالخير الوفير على الشعب المصري ، وصار رمزا لصمود الشعوب وتحديها للاستعمار ·

أنا على أبواب أول اجازة سنوية بعد أن بدأت حياتي العملية ، وتجدني أحسب الأسابيع والأيام أتعجل حلولها ، فقد تضخمت أشجاني وازداد حنيني للوطن ·· للقرية ·· للأهل والأحباب ·· لمرتع الصبا ، فقد أخذت عهدا على نفسي بأنه لا اجازة للنزهة ولا للترويح عن النفس ، بل كل الاجازات للوطن ، تمهيدا للمساهمة في نضال قد يطول، كما قال لي مرة رفيق الدراسة صديقي أحمد ، وكنت أشاهد زملائي الموظفين وهم يستعدون منذ بداية العام لقضاء اجازاتهم بالقاهرة أو بيروت أو أوروبا ، والبعض عائد من الاجازة ويحكي عن مشاهداته ومغامراته · الا أن هذا كله لم يكن مغريا بالنسبة لي ، فقد طالت بي رحلة الصيف واستمرت لعشرة أعوام ، وها هي نفسي تتوق لرحلة الشتاء ·· رحلة العودة ، وكنت أضع برنامجا لهذه الزيارة وأدخل عليه تعديلا مستمرا كلما أعدت التفكير فيه ، كنت أحدد المدن التي سأزورها ، والأعمال التي سأقوم بها ، والحقائق والمعلومات التي يجب جمعها وفي مقدمتها الفدرالية ، ونقطة الضعف التي كانت في برنامجي والتي لم أكن غافلا عنها هي عدم معرفتي بتلك المدن التي قررت زيارتها في أرتريا · وثانيا انني لا أعرف شخصا يمكن أن أتصل به ليساعدني في الوصول الى ما أصبو اليه ·

حل موعد الاجازة ·· وكان والدي جاهزا لمرافقتي ، ولكنه ذهل عندما قلت له أنني سأسلك نفس الطريق الذي جئت خلاله قبل عشر

سنوات ، أي سأسافر باللوري الى الحدود ، ومن هناك سنواصل طريقنا بالجمل وسيرا على الأقدام ، ولم يستسغ والدي هذه الفكرة خاصة وان هناك أكثر من وسيلة للسفر سواء كان بالسيارات أو بالجو ولكنه رضخ أخيرا أمام اصراري • فقد قلت له أنني سوف أقرأ الفاتحة على قبر جدي المدفون على رأس الحدود وهذا الأمر نذرته منذ صغري • أما عن حقيقة اصراري فقد كنت أود أن أمتع ناظري بكل المناظر التي حرمت منها لسنوات ، وكنت أود أن أحتضن كل شجرة كنت أتسلقها صغيرا •• وأحيي كل الوديان التي كنت أمارس فيها اللعب واللهو البريء مع رفاق القرية •• كنت أحب أن تعيد الطيور على مسامعي زغردتها وأغاريدها التي كانت بالنسبة لي تمثل أشجى الألحان •• والقرود صغيرها وكبيرها والتي كنت أتشاجر وأتنافس معها حول ثمار بعض الأشجار ، كنت أود رؤيتها وأتأكد اذا ما كان قد أصابها التغيير مثل ما أصابني ، أم ما زالت على حالها يمارس معها نفس اللعبة أطفال آخرون •• كنت أود أن أتسلق الجبال وأصرخ بصوت عال لتعيد مجموعة الجبال الأخرى صدى صوتي كما كنا نفعل أيام الطفولة •• وحتى الذئب الذي كنا نرتعد خوفا من سماع عوائه ونحن في أحضان أمهاتنا عندما كنا صغارا اشتقت لسماعه •• وفوق كل هذا كانت نفسي تتوق لحياة الريف حيث البساطة والجلوس والأكل والنوم على الأرض بعيدا عن حياة المدينة المعقدة ، كانت هذه هي دوافعي للسفر بالجمل وسيرا على الأقدام ، وقد رضخ والدي لرغبتي ولهذا بدأت الاجازة وأنا في غاية السعادة •

نحن الآن على الحدود ، وقد أصريت على شراء خروف لذبحه أمام قبر جدي ارضاء لوالدي الذي أعرف اعتزازه بهذه العادة وارتياحه للجري عليها • وما ان وصلنا الى مكان القبر حتى خلعت حذائي ويممت وجهي شطر القبلة ثم رفعت يدي الى السماء وبدأت بتلاوة الفاتحة ثم سورة (يس) ووالدي واقفاً بجانبي ويردد الآيات من خلفي • بعد

ذلك ذبحنا الخروف ثم أوقدنا النار • وكلما مر أحد المسافرين بالقرب منا كان والدي يناديه ويجلسه بجانبنا حتى تكاثر العدد ، ومن ثم بدأنا جميعنا في التهام الخروف المشوي على الحجارة •

نواصل طريقنا ، وأصر أن أسير على قدمي ، ويصر والدي أن أركب الجمل • وأخيرا نصل الى اتفاق مفاده أن أركب الجمل عندما نسافر ليلا وأن أسير على الأقدام أثناء السفر نهارا ، كنت أحمل مجموعة من الدفاتر والأقلام وبعض الكتب ، وكنت أقوم بتسجيل الملاحظات التي تتراءى لي • أنظر الى الجبال الممتدة على مد البصر وأتأملها بشغف وحنين ، يا أيتها الجبال الشماء : كم من الدهور والأجيال مرت واندثرت وأنت كما أنت لم تصبك الشيخوخة والبلى ، حدثيني عن أقوام تسلقوا على رؤوسك ليرعوا مواشيهم أو احتموا بك أثناء معاركهم الأزلية التي كانت تدور في هذه المناطق • رأيتك وأنا طفل صغير ، وهأنذا أعود ثانية وقد أصابني التغيير في شكلي وفي تركيبتي النفسية وحتى في أحلامي وآمالي ، الا أنني لا أشاهد تغييرا أصابك • أيتها الجبال الشماء ماذا تخبئين في باطنك ؟ ألا تنطقين ؟ سيأتي يوم عندما يكون انسان هذه الأرض سيد نفسه وعندما يتخذ العلم كوسيلة لتغيير حياته الى الأحسن ، سيكشف ما هو مستور في باطنك ، والى ذلك الحين عليك بالمحافظة على ما تختزنين ولا تكشفيه لجماعة الفدرالية الذين سنكتشف أمرهم قريبا ، كما كان عهدنا بك عندما احتفظنا بأسرارك أمام الطليان والانجليز •

أيتها الأشجار : أنت لست كالجبال ، بل تدب الحياة في عروقك كالانسان ، تتناسلين وتولدين وتموتين مثله •• تتغذين ، تأكلين وتشربين وتتنفسين مثلنا ، تتأثرين بكل الأجواء : خريفها وصيفها وشتائها وربيعها • أراك تتمايلين يمينا ويسارا كلما هبت الريح فلربما كان هذا عبادة وتسبيحا للخالق وربما كان طربا وانتشاء • الان لا بد أنك تدركين مثل ما أدرك وقد تكون لديك لغة للمخاطبة • من هي

الأيدي التي قامت بغرسك لأول مرة على هذه الارض ؟ بالطبع أنك لم تغرسين عبثا ٠

أما الأرض الواسعة في الوديان وعلى امتداد النظر والتي لا تنبت فيها سوى الحشائش البرية فقد كنت أنظر اليها بحسرة وألم وتستفز مشاعري ، كنت أخاطبها قائلا : « أيتها الحسناء الفاتنة هكذا تتحلين بأزهى ثيابك السندسية الخضراء في مواسم الاخصاب ، مواسم الزراعة في كل عام ، وتنتظرين فارس الأحلام الذي يؤنس وحدتك ويضع في أحشائك البذار لتنتجي له الخيرات مؤكدة على مقدرتك في المساهمة في استمرار الحياة وازدهارها ، ولكن كم طال انتظارك كالفتاة العانس التي تترقب عريسا كلما سمعت من يهمس في أذن والديها ٠ أيتها الحبيبة : ان قومي ليسوا متبلدي الحس ، فهم يعشقون الجمال ويتوقون للخير والهدوء والاستقرار ، يحبون الأرض مثل حبهم لأطفالهم ، ولكنهم ابتلوا بالطليان والانجليز ومن قبلهم الترك ، واليوم بمرض عضال يدعى الفدرالية لم نعرفه من قبل ونجهل كنهه وعلاجه ٠ يا أمنا يا حبيبتنا يا مصدر الحياة والخير لنا : انني قد تغربت طويلا وتعلمت أشياء لم أكن أعلمها يوم كنت طفلا ألهو فوق رباك ٠ تعلمت أن شعوبا تشق الصخور وتصلح الصحارى لتجعل منها أرضا زراعية ، وأنت هنا جاهزة متهيئة تبرزين حسنك ومفاتنك ولا تجدين من يلتفت اليك !" .

نحن في اليوم الرابع من رحلتنا ، فسيرا على الأقدام خلال النهار وعلى ظهر الجمل ليلا ، وقد كان والدي مندهشا لتصرفاتي التي كانت شبيهة بتصرفات الأطفال ، يراني أعدو بأقصى سرعتي وأتسلق جبلا ٠٠ وفي مرة أخرى أقف ساهما أمام شجرة بعد أن أكون قد أمسكت بجذعها وأتخلف وراءه في السير ، وعندما نجلس للراحة كان يراني وقد أخرجت دفاتري وأقلامي وانهمكت في الكتابة ، وكان في كثير من الأحيان يزجرني مثلما كان يفعل عندما كنت صغيرا ، ويقول : « صالح ألا تخجل وأنت

تتصرف كالأطفال تجري هنا وهناك ·· صالح هل ما زلت تظن نفسك طفلا وأنت الذي قد تصبح أبا عن قريب انشاء الله ·· صالح ابتعد عن هذه الصخور فقد يكون تحتها ثعبان ·· صالح لا تبتعد عن الطريق وتختفي داخل الغابات فبداخلها حيوانات مفترسة وبعض العقارب السامة » · كنت أستمع الى هذا النوع من الزجر المحبب للنفس والذي يعكس حرص والدي وحبه لي ، وكنت أبتسم دون أن أعلق بكلمة ، وفي الليل عندما نستلقي على الأرض للنوم كنت أرى والدي وهو يتحسس جسمي ليتأكد أنني مغطى بالبطانية بينما أكون صاحيا أفكر في مسائل عديدة ·

ان مشاهداتي أثناء هذه الرحلة قد شملت الكثير ، وما أشاهده كنت أقوم بتدوينه في دفتر اليوميات الذي خصصته لهذه الرحلة ، واذا تيسر لأحد أن يتصفح هذا الدفتر لربما تصور أنني مخبول أو مصاب بلوثة عقلية ، لأنني وفي دفتر يومياتي كنت أخاطب كل ما أشاهده من الشجر والحجر والطيور وحتى القرود والحيوانات المتوحشة مثل الذئاب التي كنت أخشاها في صغري أجد نفسي مشدودا لحبها ، ولكن ما دونته كان عبارة عن مشاعر جياشة من الحب والهيام لكل مشاهداتي ·· وقد سجلتها في حالة صفاء عقلي ونفسي ، فالوديان والأخاديد العديدة بين الجبال التي تنساب فيها مياه عذبة رقراقة كنت أحن الى رؤيتها ، فعلاقتي بها منذ الصغر يوم كنا نمرح في أطرافها · لهذا وأثناء الرحلة بكاملها كنت أمتع نفسي بالنظر اليها وفي بعض الأحيان أخلع حذائي ثم أسير فوق المياه حافيا ولمسافة طويلة الى أن يزجرني والدي واضطر للخروج منها وكالمحب الذي يعجز عن الافصاح عن مشاعره عندما يلتقي بحبيبته فجأة كنت عاجزا عن تسجيل ملاحظاتي ازاءها بل أرجأت ذلك لنهاية الرحلة ·

أثناء هذه الرحلة التي استغرقت اسبوعا كاملا لم أجد شيئا قد لمسته يد التغيير ·· فكل شيء كما كان ، بدءا من الأرض التي لم يضاف

اليها حتى فدان واحد لزيادة الرقعة التي كانت تزرع منذ أجيال ، وحتى نمط الحياة بالنسبة للمواطنين وابتهاجهم لاستقبال الضيف واكرامه • وأكثر ما أثر في نفسي هي الحفاوة البالغة التي كنت أقابل بها من قبل القرى التي نزلت بها ، فكلهم كانوا على علم بذهابي للتعليم ثم بالتحاقي بعمل وظيفي ولهذا كانوا ينظرون لي نظرة اعجاب •

في مساء اليوم السابع لرحلتنا وعندما اعتلينا أحد الجبال العالية وبدأنا ننحدر الى سفحه لاحت أمامنا قريتنا فوق الأرض المنبطحة ، وكان نباح الكلاب يصل الى أسماعنا ، دون أن أشعر وجدت دموعي تنهمر حتى كدت أجهش بالبكاء ، ولحسن الحظ ولحلول الظلام ، لم يلاحظ والدي شيئا ، فتوقفت عن المسير وبدأت أتحدث الى نفسي قائلا : « الذي لا يحس بالحنين الى قريته لن يحس بالحنين الى وطنه الكبير ••• فيا قريتي البسيطة المتواضعة ، قسما بربي وبكل القيم والمثل ، لن أستبدلك بناطحات السحاب في أمريكا ، ولن أستبدل ذرة من ترابك بكل ذهب الأرض » • وهنا لاحظ والدي أنني أتحدث مع نفسي ، فاستفسر قائلا : « ماذا تقول يا صالح ؟ » فأجبته بأنني أتلو بعض الآيات •

ـ حسنا فعلت يا بني ، لتوي كنت سأطلب منك أن تفعل ذلك •

هذا هو يومي الأول في قريتي ، وبالأمس لم أنم في الليل الا قليلا ، فمنذ لحظة وصولنا ووالدتي لم تحتمل الفرح الطاغي بعودتي ولهذا أتمت فرحتها ببكاء متواصل ، وكانت تحاول أن تحتضنني في حجرها كما كانت تفعل بي عندما كنت صغيرا ، الا أن هذا لم يكن ممكنا لأنني توسعت طولا وعرضا ، ولهذا اكتفت باحتضان رأسي مرة في صدرها ومرة أخرى في حجرها وهي تطبع عددا من القبل لا حصر له في كل وجهي ورأسي ، وكان والدي يزجرها قائلا :

ـ أيتها المرأة ، هل أصبت بالجنون ؟ ها هو ابنك قد عاد اليك وسيمكث معك ، فاتركيه ليأخذ قسطا من الراحة فهو متعب من طول

السفر .

ولكنها لم تكترث له ، فكانت تعد العشاء وبين حين وآخر تختلس فرصة لتحتضنني ثم تقبلني وأياديها تتحسس كل أجزاء جسمي لتتأكد أنني قد عدت اليها كاملا ، ولم تتركني أخلد للراحة والنوم الا قبل الفجر بقليل .

وفي الصباح وبينما أنا نائم رفعت الغطاء عن وجهي ، ثم وضعت يدها على جبيني ثم طبعت قبلة في خدي ، وهنا صحوت من النوم فوجدتها تتفرس في وجهي ووجهها يطفح بالبشر والسعادة ، وبدأت تتحدث الي :

ـ « هكذا كبرت وصرت رجلا بعيدا عن والدتك؟ بالأمس وبوصولك الى المنزل لم أتعرف عليك وكنت أعتقد أنك أحد الضيوف القادمين مع والدك ، فلم أتصور أن ابني صالح قد كبر وصار أطول من والده . وشاربك أيضا بدأ ينمو . ما أسعد هذا اليوم الذي انتظرته طويلا » .

وهنا تحركت من فراشي وفتحت حقيبتي وأخرجت الهدية التي أحضرتها لها وهي مجموعة من الملابس التي ترتاح لها ، وقلت لها : انني أحضرت لك هذه الملابس والتي بسببها حدث شجار بينك وبين والدي قبل أكثر من عشرة أعوام ، فأرجو ألا يتكرر ذلك مرة أخرى ، وأي شيء يلزمك بعد الآن فان ابنك صالح موجود وكفيل بتوفيره . أيضا تلك المرأة التي تحايلت عليها وأخذت منها قليلا من الفلفل لارضائك فقد أحضرت لها ثوبا ورطلا من الفلفل ورطلا من البن والسكر فابعثيه لها تعويضا على كذبي عليها قبل أكثر من عشرة أعوام .

كنت أتحدث وأخرج الهدايا وأضعها أمامها دون أن أتنبه الى وجهها الذي كانت تبلله الدموع المنهمرة من عيونها ، وعندما رفعت رأسي اليها ووجدتها في هذه الحالة لم أتمالك نفسي فاحتضنت رأسها وقبلته ، وبينما طبيعة الأمومة تنفجر بالعواطف الدافئة والحنان الجميل دخل والدي ووقف يتفرج علينا للحظة ثم انفجر قائلا :

ـ ما هذه المساخر التي تمارسانها منذ الأمس أنت ووالدتك ؟ ألم تشبعا من القبل والعناق ؟ قم وارتد ملابسك فان أهل القرية سيحضرون للسلام بعد قليل ، وأنت أيتها المرأة لماذا لم تجهزي لابنك الفطور أم تريدينه يكتفي بهذه القبل الكاذبة بدلا من الفطور ؟

انسحبت والدتي وهي تقول : « يا حبيبي اذن كنت تتذكر والدتك ولم ينسها طوال هذه الأعوام ، وحتى الثوب الذي تشاجرت مع والدك بسببه لم تنسه » • وسكتت لحظة ثم أضافت : « كنت صغيرا آنذاك بحيث لم أكن أتصور أنك تفقه شيئا ، فكيف احتفظت بمثل هذه الهموم طوال كل هذه السنين مع أنني نسيت الأمر في اليوم الثاني » •

وهنا استفسر والدي عن الأمر فحكيت له القصة بكاملها فانفجر ضاحكا من أعماقه وهو يقول : « اذن كنت منحازا الى والدتك ولم أكن أدري • عموما ، فعلت خيرا بارضائها فالجنة تجري تحت أقدام الأمهات » •

بعد قليل بدأت النساء يتقاطرن الى منزلنا وكل منهن تسلم علي بحرارة وبعضهن يتحمسن ويقمن بطبع قبلات على خدي أو احتضان رأسي ، فكلهن يعرفنني منذ كنت طفلا صغيرا بالقرية ، ولكنني لم أتمكن من تمييزهن جميعا لأن السنوات التي قضيتها بعيدا قد غيرت الوجوه والملامح ، فمن كانت في سن الشباب بدأت الشيخوخة تزحف الى وجهها ، ومن كن صبايا قد تفتحت أنوثتهن عن مفاتن الشباب ، الا ان احداهن وهي عجوز شمطاء عرفتها منذ الوهلة الأولى ، وكيف لا أذكرها ولي معها فصولا من المتاعب كانت تسببها لي في صغري ، فقد كانت هذه المرأة صديقة لوالدتي وتزورها يوميا ، وكلما جاءت الى المنزل كانت تمسك بي ثم تطعن في رجولتي وتقول لوالدتي : « ان ابنك هذا ليس رجلا ، فقد أجريت معه محاولات عديدة لينام معي ولكنه يرفض ، فلو كان رجلا لجرب حظه معي » • وكنت أثناء ذلك أحاول الفكاك منها ،

ووالدتي تصرخ بها وتطلب منها أن تتركني وحالي ، وهنا تصر وتقول : « لا داعي للتهرب يا صالح اذا كنت رجلا فتعال وافعل معي ما يفعله والدك مع والدتك » • ومن صغري كنت أكره هذه المرأة السليطة وأحاول تفاديها ، وكلما رأيتها قادمة الى منزلنا كنت ألوذ بالفرار حتى أتفادى كلماتها الممقوتة ، وقد تذكرت كلماتها وحركاتها بمجرد دخولها لمنزلنا هذا الصباح ، أما هي فقد احتضنتني بحرارة ثم جلست الى جانبي وهي تمسح رأسي بيدها ، وأثناء ذلك كنت بيني وبين نفسي أتمنى أن تفتح أحاديثها اللاذعة معي في سالف الأيام حتى أكيل لها الصاع صاعين •

أثناء ذلك تجمع الرجال وكانوا يجلسون تحت شجرة ظليلة بالقرب من المنزل ووالدي يحييهم ، وعندها استدعاني والدي للخروج اليهم ، فخرجت اليهم محييا ومسلما ، والكثيرون من هؤلاء الرجال جاءوا وكل منهم يسحب خروفا أو يحمل اناء مليئا باللبن لضيافتي ، وكان كرمهم لي أكبر مما اعتدته ، فقد تجمعت أعداد من الأغنام والخرفان بحيث كنا نذبح منها بشكل يومي خلال اقامتي بالقرية • أما مظاهر الابتهاج والفرح التي كانوا يقابلونني بها فقد كانت تعكس مدى الترابط القوي الذي يجمع مجتمع القرية ، فكل رجل كبير بمثابة والدك وكل امرأة مسنة بالقرية في مكانة والدتك والصغير بمثابة الأخ وكل فتاة في مكان الأخت •

بدأ الرجال أحاديثهم معي ، وكلها كانت استفسارات لا تختلف عن تلك التي كانت توجهها لي النسوة ، ولو ان بعضها كان أكثر جدية ، وكنت حريصا لأتبين من بين وجوه الرجال والشباب الجالسين أمامي رفاق الطفولة • كنت أستفسر عنهم بالاسم لأنني كنت أتذكر أسماءهم ، وقد أخذت بهم الحياة مسالك شتى ، فمنهم من يعمل برعي الماشية وآخرون بالزراعة والبعض مثلي ترك القرية ، منهم من تزوج وصار أبا وقليلون منهم توفاهم الله • كنت أحس بنوع من الاحراج لعبارات

الاطراء التي كان يوجهها لي الرجال ، وكلها كانت تدور حول أنني ابن القرية الوحيد الذي نال العلم ثم صار موظفا ، وكان من بين الحضور رجل مسن قال : « انني تنبأت لصالح بمستقبل زاهر يوم قمنا بختانه ، ففي ذلك اليوم قمت بختان ثلاثة من أطفال القرية وكان صالح آخرهم ، فالاثنان لم يتحملا الألم وصرخا في لحظة الختان مما سبب الغضب والحرج لوالديهما ، وعندما جاء دور صالح كنت أخشى أن يحذو حذوهما ، ولهذا حاولت خداعه وأشرت له للسماء لينظر للطائر المحلق في الجو ، ولكنه فاجأني بقوله : « هل تظنني خائفا حتى تحاول خداعي ؟ استمر في عملك لتتأكد بأنني لا أخاف » • وفي الحال أتممت عملية ختانه ، ولكنه لم يبك بل أطلق بعض عبارات التفاخر ، وهنا بدأت الزغاريد تنطلق من حناجر النساء كما ان والده تبرع له في الحال ببقرتين لأنه لم يخذله مثلما فعل زميلاه • يومها تنبأت بمستقبل زاهر لصالح الشجاع » • حكى الرجل هذه القصة وقد تذكرتها بتفاصيلها ، وبالفعل كان من عادات القرية ان الطفل الذي يبكي في لحظة الختان يعار بين زملائه كما ان والديه يشعران بالحرج والخجل • واستمر الرجال في أحاديثهم المتنوعة من الذكريات والاستفسارات • وكنت أشترك معهم من حين لآخر بايماءة من رأسي للتأكيد على حديث البعض أو ببعض

العبارات المختصرة كتعليق على حديث آخر ، وكان والدي أثناء ذلك يعد القهوة مرات عديدة ويصب لكل من الرجال في فنجانه حتى جاء أوان الغداء فتناولنا كميات من اللحوم من الذبائح التي أعدها بعض الرجال • وكان معظم الحضور يثنون على والدي وعلى رجاحة عقله عندما فكر بارسالي للتعليم ، وكان والدي يرد عليهم قائلا : « انكم تعلمون بأنني سافرت كثيرا أيام شبابي وشاهدت المدن وحياة المتعلمين بها ، ولهذا كنت مقررا حتى قبل زواجي لأرسل أبنائي للتعليم حتى يبنوا لأنفسهم مستقبلا مضمونا ويحملونني في شيخوختي ، والحمد لله

فقد تحققت أمنيتي وهذا من فضل ربي » ٠

أثناء ذلك كنت أتابع أحاديثهم باهتمام وكانت لي رغبة لأتحدث اليهم مطولا الا أنني كنت أشعر برهبة ، ففي مجالس القرية اعتدت وأنا طفل صغير السماع لمن هم أكبر مني سنا ، كما كنت أنظر بحنان لبعض أطفال القرية الجالسين بالقرب منا والذين ينصتون للأحاديث وعيونهم متعلقة بي ، وقد عدت بذاكرتي الى الوراء ٠٠ الى أيام الطفولة عندما كنت أحضر مثلهم لهذه المجالس دون أن أشارك فيها بالحديث ٠ هكذا الأيام ! تذهب أجيال وتأتي أجيال أخرى وتشب وتكبر وتذهب ثم تأتي أجيال لتحل محلها ولتلعب نفس دورها دون أن يتوقف ينبوع الحياة المتدفق دوما ٠

بعد صلاة العصر والرجال يهمون بالانصراف جمعت كل ما لدي من شجاعة وتحدثت اليهم قائلا : « أشكركم على كرم ضيافتكم فكلكم آبائي وأنا ابنكم ، وأريد منكم أن تهتموا بتعليم الصغار من أبنائكم ، فنحن في زمن أصبح فيه العلم أمرا ضروريا للانسان ، فالطليان والانجليز لولا تفوقهم العلمي لما استطاعوا أن يحكموننا لعشرات السنين ، واليوم نسمع بما يسمى الفدرالية ، فلو كنا متعلمين لأخذنا استقلالنا مثل السودان بدلا من هذه الفدرالية التي لا ندري الى أين ستقودنا ، فعليكم بتعليم الصغار ٠ انني أعرف بحكم انتمائي اليكم بأنكم تفكرون دوما بالاستفادة من أبنائكم في الزراعة ورعي المواشي أو ارسالهم للسودان لجني القطن والذرة أو يعملون هناك في المقاهي والمتاجر والمنازل لقاء دراهم قليلة تسدون بها احتياجاتكم ، وهذا لا غبار عليه لأن الحاجة تدفع بالانسان الى أكثر من ذلك ، والعمل في حد ذاته لا يعتبر عيبا ، الا أنه من الأفضل لو أرسلتموهم منذ الصغر لنيل العلم وعندما يصبحون شبابا متعلمين سيفيدون أنفسهم ويفيدونكم أكثر ، بل سيخدمون وطنهم أيضا » ٠

استمع الرجال لحديثي باصغاء شديد واهتمام بالغ ، وعندما أتيت

الى نهاية كلامي بدأوا يعلقون عليه بعبارات الاطراء والثناء ، وأخيرا قلت لهم : « لي رجاء أخير ، وهو أن تنقلوا كلامي هذا أينما رحلتم أو حللتم ولباقي القرى ، فانني أنشد الفائدة للجميع ·· لكل القرى ·· للمنطقة بكاملها ·· بل ولشتى أرجاء الوطن » · أثناء حديثي كان والدي في حالة رضى ونشوة أكثر من الآخرين وهو يشاهد ابنه الذي لم يبلغ العشرين من عمره بعد ، يخاطب رجالا في عمر والده ، وهم يستمعون الى كلامه بامعان ، ولكي يؤكد على صحة كلامي ، خاطب الرجال قائلا : « لعلمكم ان صالح يصر أن يرسلني للحج في هذا العام لكي أقوم بتأدية الفريضة ، وكم كنت أتمنى أن يستطيع بعضكم من مرافقتي » ، وهنا بدأ الرجال يهنئونه مقدما ويدعون لي بطول العمر والتوفيق ·

في المساء وعند انفضاض الزوار من الرجال والنساء ، وبينما أنا ووالدي جالسين نشرب القهوة ووالدتي تعد طعام العشاء ، تنحنح والدي ثم قال : « اسمع يا صالح ، لي شكوى ضد والدتك ، فخلال فترة غيابك الطويلة نكدت عيشي ببكائها المستمر ليلا ونهارا ، واتهاماتها لي بقساوة القلب لم تتوقف ، وفشلت في اقناعها بأن حبي وشوقي لك لا يقل عن حبها وشوقها لك ، واليوم ليتها استمعت الى أحاديث الرجال الذين كانوا يحسدونني على ارسالك للتعليم ، لكانت قد اقتنعت بأنني أدرك مصلحتك ومصلحتها أكثر منها » ، فأجبته : « النساء كن يكررن على مسامعها صباح اليوم نفس العبارات التي كان يرددها الرجال · ولكن يا والدي لا تظلمها ، فالأم حتى لو كانت تدرك بأن مصلحة ابنها تقتضي أن ينفصل عنها لبعض السنوات فانها لا تستطيع أن تمنع نفسها من البكاء رغم هذا الاقتناع ، وهذا من طبائع النسوة وتكوينهن النفسي » ·

تكررت المجالس بالنسبة للرجال والنساء طوال فترة اقامتي بالقرية ، ومن جانبي كنت أوجه الأسئلة للرجال عن الفدرالية التي

حلت بديارنا ، ولكنهم للأسف لم يكونوا ملمين الماما كافيا بما كان يجري ، ولذا لم أجد لديهم أجوبة شافية عن إستفساراتي الكثيرة • وخلال تلك الفترة لم أترك مكانا من تلك الأماكن التي كنا نمارس فيها لهونا البريء أيام الطفولة الا وزرته ووقفت أمامه متأملا ومستذكرا الأيام الخوالي ، ومن بين تلك الأماكن أحد جذوع الاشجار اليابسة والتي كانت شبيهة بظهر الحصان ، حيث كنا نضع تحتها حجرا كبيرا نصعد فوقه ثم من فوق ذلك الحجر نصعد الى جذع تلك الشجرة • عندما وصلت الى ذلك المكان وجدت بعض الأطفال يمارسون نفس اللعبة وبنفس الطريقة مع أن طول هذا الجذع وجدته لا يتجاوز ركبتي ، فوجدت نفسي أردد : هكذا سنة التطور •• فالأحياء وحدهم هم الذين ينمون •• أما الأموات حتى ولو كانوا من أموات الشجر فلا ينمون بل ينقرضون •

في أحد الأيام كنت أتجول منفردا بالتلال المحيطة بالقرية لأتمم زياراتي لمراتع الطفولة العزيزة على نفسي والتي كنت أرى لزاما علي أن أزورها جميعا ودون استثناء ، وأثناء ذلك صادفت أحد رجالات القرية عائدا من الحقل ، فجلسنا فوق صخرة وبدأنا نتجاذب أطراف الحديث ، فوجهت له سؤالا عن الفدرالية وما يعرفه وما سمعه عنها ، فانطلق يتحدث طويلا وبلغة الجمع ، وكان حديثه بمثابة شكوى وتذمر وملخصه أنه لا يعرف كثيرا عن هذه الفدرالية ولكن منذ حلولها فرضت عليهم ضرائب باهظة على قطعان الماشية والأرض ، الأمر الذي لم يكن معروفا أو مألوفا لديهم قبل حلول الفدرالية ، وهذه الضرائب تسبب لهم متاعب كثيرة لأنهم يعجزون في بعض الأحيان عن دفعها مما يضطرهم لبيع بعض المواشي لتسديدها ، أو الضغط على أبنائهم العاملين بالسودان ليرسلوا لهم المال لتسديد هذه الضرائب التي فتحت بندا جديدا من بنود مصاريفهم منذ حلول ما يسمى بالفدرالية •

كان هذا الرجل يتحدث على سجيته ودون ترتيب أو تنميق ، الا أن حديثه كان يحوي الكثير مما كنت أسأل عنه ، ووجدتني أردد مع نفسي : اذن هذه هي الفدرالية ، ضرائب باهظة على قطعان الماشية والأرض والتسبب في ضائقة للقرويين ! أليس هذا هو الاستعمار الذي قرأت عنه في الكثير من الكتب ؟

انقضت سبعة أيام كاملة منذ وصولي للقرية ، وقد مرت هـذه الأيام كالحلم ، كانت كلها شبه أعياد ·· ذبائح يومية ·· وأواني اللبن المليئة تحمل الى منزلنا صباحا ومساء من رجالات القرية ·· ومجالس الأهل والأقارب والاحباب من سكان القرية منعقدة طوال النهـار ·· والقهوة على النار منذ شروق الشمس حتى بعد المغيب بكثير · وكم كانت أمنيتي أن يطول بقائي بالقرية حتى نهاية الاجازة ، ولكني كنت مضطرا لمغادرتها حسب البرنامج الذي وضعته للاجازة ، فهناك الكثير من الأسئلة الحائرة ، ولن أجد الأجوبة عليها الا في المدن الكبيرة وفي مقدمتها أسمرا، ولهذه الاعتبارات أعلنت لوالدي بأنني سأغادر غدا ، وقد أصر والدي أن يرافقني الا أني أقنعته بأنني عائد لعملي لأن اجازتي تكاد أن تنتهي ولم أفصح له عن اتجاهي · أما والدتي المسكينة فقد عادت لحالتهـا القديمة من البكاء ، وكانت تقول لي : « تغيب عني أكثر من عشـرة سنوات ، والآن ترحل ولم تمكث حتى عشرة أيام معنا » ثم تجهش بالبكاء ثانية ·

في الصباح استيقظت مبكرا الا أنني فوجئت برجال القرية مجتمعين مع نسائهم والكثيرون منهم رجالا ونساء كانوا مهيئين وصايا شفويـة لأبنائهم أو اخوانهم ومعظمها تدور حول مطالب من المال أو الملابس ·

وعندما تحركت من القرية رافقني الرجال الى مسافة طويلة من الطريق وفي مقدمتهم والدي ، وكنت بين حين وآخر أتوقف وأطلب منهم أن يعودوا الا أنهم لم يستمعوا ، وأخيرا وعندما سرنا أكثر من ساعة توقفت وطلبت منهم العودة باصرار ، وهنا وقفوا جميعا ورفعوا أياديهم الى السماء وقرأوا الفاتحة ، ثم عادوا بينما واصلت طريقي ومعي مرافقان حتى مدينة نقفه سيرا على أقدامنا بينما كانت أمتعتي على ظهر الجمل ٠

تمثل مدينة نقفه خليطا من مجتمع القرية والمدينة في كل شيء ، فهناك المباني الحجرية وبجانبها منازل قروية من البروش وهذا ينطبق على طريقة معيشة سكانها وملابسهم والأعمال التي يزاولونها وحتى على الأخلاقيات والمعاملات التي تتجمع بين القروي المحتفظ بفطرته وابن المدينة الذي اكتسب أخلاقيات جديدة ٠ أما الطبيعة فقد حبت هذه المدينة بجمال أخاذ ٠ فهناك التلال الصغيرة المحيطة بالمدينة والجبال الشاهقة الخضراء ، وفي الصباح الباكر وعند الأصيل يكسوها الضباب ، ولارتفاع المنطقة فتمتاز بالبرد القارس ٠

بوصولي الى مدينة نقفه ومنذ اليوم الأول تركز بحثي عن مكتبة علني أجد فيها كتبا عن تاريخ أرتريا أو أي مطبوعات أخرى من صحف ومراجع وبالذات عن هذه الفدرالية التي أقلقت راحتي لأنني كنت أجهل كل شيء عنها ، ولكن من المؤسف لم أجد حتى مكتبة واحدة بهذه المدينة وكنت مستغربا لذلك ٠ فنقفه هي عاصمة اقليم الساحل ولا توجد بها مكتبة واحدة كما عجزت من الحصول على أي صحيفة أو كتاب ممن سألتهم مستفسرا ٠ وأخيرا أفادني أحد المواطنين بأن هناك أحد الأمريكان يبعد عن المدينة بحوالي ثلاثة كيلومترات ، وهو يقيم في منزل فخم ومسئول عن البعثة الصحية السويدية وتوجد بمنزله مكتبة كبيرة ، فطلبت من هذا المواطن أن يدلني على المكان ٠

عند اقترابنا من المنزل كان الرجل واقفا خارج منزله ، ولم يكترث لوجودنا قريبا منه خاصة كنت وزميلي نرتدي الملابس الوطنية وهي

السروال الطويل والقميص القصير ثم الصديري والعمة والطاقية على الرأس وكل منا يحمل عصاه في يده • وقفنا الى جانبه دون أن يلتفت الينا ، فاضطريت أن أحيه باللغة الانجليزية ، فاذا به يلتفت نحونا بسرعة ويرد التحية وأساريره منبسطة وهو يقول :

ـ تفضلوا بالدخول •

كان المنزل يقع في واد بين جبلين وهو (فيللا) بديعة تحيط بها الأشجار الباسقة وزهور مختلفة الألوان • أما من الداخل فالارض مفروشة بالسجاد والمقاعد الوثيرة على أطراف غرفة الجلوس ، ومدفأة بالحطب على أحد الأركان ، وما ان استوينا في جلستنا حتى بدأ الرجل بعبارات المجاملة التقليدية :

ـ مسرور لرؤيتك والتعرف بك •

ثم جاءت زوجته وطفله فقدمهما الينا ، وهنا بدأت حديثي قائلا :

ـ انني زائر جديد لهذه المدينة وقد سمعت المواطنين يتحدثون عنكم ، ولذا أردت أن أسجل لكم هذه الزيارة •

كنت حريصا ألا أجعله يعرف شيئا عن شخصيتي وهدفي من المجيء الى أرتريا خاصة وأن معلوماتي عن أمريكا ونشاطاتها لم تكن تشجعني لأبادل الثقة أحد رعاياها قبل أن أستوثق من سريرته ، وبدأ هو الحديث قائلا :

ـ قلت أنك سمعت المواطنين يتحدثون عني ، فماذا سمعتهم يقولون ؟

ـ يقولون أنك رجل طيب وتهتم بهم وبعلاجهم •

ـ من أي بلد أتيت ؟

ـ أتيت من السودان •

ـ وماذا تعمل بالسودان ؟

ـ السودان هو وطني وأعمل موظفا هناك •

ـ ما هو الطريق الذي سلكته في قدومك من السودان الى هذه المدينة ؟

ـ ركبت الطائرة من الخرطوم الى أسمراومنها بالسيارة الى هنا ٠

ـ كيف الأحوال بالسودان ؟ وعن الاستقلال كيف استقبله الشعب ؟

ـ على ما يرام ٠ أما الاستقلال فقد استقبل بترحاب وفرح خاصة وأنه كان أمنية كل الشعب ٠

ـ ألا تعتقد بأن عبد الناصر يفكر بغزو السودان خاصة وأنه يفكر باقامة امبراطورية واسعة ؟

ـ لا أعتقد بأن عبد الناصر يفكر في مثل هذا العمل ، وما أعلمه أنه ساهم بموقفه المرن ازاء دعوة وحدة وادي النيل بالتعجيل باستقلال السودان ٠ أما عن امبراطوريته التي قلت أنه يفكر باقامتها فانني أجهل كل شيء عن هذا الأمر ٠

وهنا جاءت زوجته تحمل فناجين القهوة ، فتوقفت أسئلته ، وكنت خائفا أن أنفجر ويفلت مني الزمام لأوضح له من هو الذي يعمل لاقامة امبراطورية ، هل هو عبد الناصر الذي يقاوم عدوان بريطانيا وأمريكا وفرنسا واسرائيل أم الولايات المتحدة التي تتزعم معسكرا استعماريا بكامله ٠

وما ان وزعت علينا فناجين القهوة حتى أسرعت أنا بتوجيه الأسئلة هذه المرة :

ـ من أي بلد أنت ؟

ـ من الولايات المتحدة ، من كاليفورنيا ٠

ـ ما هو عملك بالتحديد ؟

ـ أعمل بالتدريس ، وقد تمت اعارتي للخارج حيث عملت فترة باسرائيل ومنها تم نقلي وعملت أستاذا أنا وزوجتي بجامعة أديس أبابا، والآن أعمل بهذا المركز ٠

وسكت للحظة ، ثم قلت :

ـ وما هي علاقة التدريس بهذا المركز الذي علمت بأنه يقوم بتقديم العلاجات الصحية ؟

ـ يقوم بهذا أحد الممرضين العاملين تحت أمرتي ٠

ـ حسب معلوماتي فان كاليفورنيا من الولايات الجميلة بأمريكا ، وبالتأكيد يتمنى أي شخص أن يعيش هناك ، ولكن ما يحيرني هو كيف تستبدل حياة كاليفورنيا السهلة بالعيش في هذه البقعة النائية من افريقيا وتعيش في عزلة ؟

ـ بالاضافة لعملي وهو الاشراف على هذا المركز أيضا لدي أعمال أخرى هنا ، فأنا أقوم بعملية مسح شاملة للمنطقة بدراستها من كل النواحي ، والهدف من ذلك هو كيفية تطويرها واسعاد شعبها ٠ وهذه المهمة السامية لا بأس أن أضحي في سبيلها ببعض الوقت من راحتي والابتعاد عن حياة المدن الكبيرة ٠

ـ كم عاما قضيت بهذه المنطقة ؟

ـ ثلاث سنوات كاملة ٠

ـ ألم تكن كل هذه السنوات الثلاث كافية لاتمام مهمتك ، ومتى تتوقع أن تثمر جهودك ليعم التطور هذه المنطقة ؟

ـ للآن لم أنته من عملية المسح وما زلت مستمرا بها ٠ أما متى يتم تطوير المنطقة فهذه مسئولية أجهزة حكومية أخرى ، ومهمتي تنحصر في المسح والدراسة وتقديم التقارير بذلك لجهات الاختصاص فقط ٠

وهنا أردت أن أنهي الجلسة حتى لا أتحمس وأتورط في المزيد من الأسئلة ٠ ولهذا شكرته على القهوة والحديث الشيق وقلت له :

ـ انني سمعت بأنك تقتني مكتبة ضخمة ، وأنا أبحث عن كتب ومراجع عن أرتريا ، فهل يمكنني أن أجد شيئا منها بمكتبتك ؟

قام من مكانه ووقف بجانب الحائط المواجه لنا وضغط على أحد

الأزرار ، فانفرجت الستارة التي كانت تغطي الحائط واذا بي أشاهد مكتبة ضخمة وكتب مرصوفة في الرفوف ، وأشار الى صفين من الرفوف قائلا :

ـ هذه الكتب كلها عن أثيوبيا ، أما باقي الرفوف فكل منها يختص باحدى الدول الافريقية ٠

ـ أرجو أن يكون بينها كتاب واحد عن أرتريا لأن الأمر يهمني جـدا ٠

ـ انني قد اطلعت على جميع محتويات هذه المكتبة من الكتـب وأعرف بأنه لا يوجد بينها أي كتاب عن أرتريا ٠

بعد أن أغلق مكتبته تحرك وعرض لي بعض التحف وقطع الآثار قائلا :

ـ انني أحضرت هذه الأشياء من اسرائيل عندما كنت هناك ، وهنا ، رأيت من الأفضل أن أنصرف ، فاستأذنته قائلا :

ـ شكرا على الضيافة ، وعندما أعود الى السودان سأحكي لأصدقائي وأقول لهم أنني شاهدت أمريكيا قد ترك كاليفورنيا الجميلة وجاء الى هذه القفار ليقوم بتطوير المنطقة وشعبها !

فظهرت الابتسامة على وجهه وشكرني ثم انصرف ، وفي نفسي غصة وفي رأسي عديد من علامات الاستفهام ٠

لم تدم اقامتي بمدينة نقفه أكثر من يومين لأنني لم أجد بها شيئا مما كنت أريد ، ولهذا واصلت طريقي في جولة واسعة وسريعة شملت كل من كرن وأسمرا ومصوع وأغوردات ٠ في هذه الجولة صادفت عددا من المصاعب وأبرزها عدم معرفتي السابقة بمن يمكن الاتصال بهم ٠ ولهذا كنت أدخل المدينة الكبيرة وأملي أن أتعرف على شخص أو شخصين وأبدأ معهم علاقة أتمكن من خلالهـا معرفـة الأحوال الدائرة بأرتريا وبالذات الفدرالية التي كانت تأخذ حيزا كبيرا من تفكيري واهتمامي ٠

فعندما وصلت الى أسمرا وجدت بها عديدا من المكتبات ولكني فشلت في الحصول على أي كتاب عن أرتريا ، وأثناء بحثي وجدت في أحد دكاكين اليمنيين نسخة واحدة من الدستور الأرتري باعها لي بعشرة دولارات أمام الحاحي ، لأنه كما قال يحتفظ بها لنفسه ، فوجدت سعرها على الغلاف دولاران فقط ٠

أخذت هذا الكتيب وأسرعت الى الفندق وبدأت في قراءته سريعا ، ثم أعدت قراءته ثانيا حتى تمكنت من استيعابه ، وكانت هذه أول وثيقة عن أرتريا تقع في يدي ٠ وأثناء ذلك حضر النزيل الذي كان يشغل غرفة الفندق معي والتي كانت تتكون من سريرين ، وبدأت أحلل مواد الدستور بيني وبين نفسي فوجدت به أبوابا عديدة لا بأس بها ومن ضمنها باب الحريات ، فقلت في نفسي أن الدستور في مجمله جيد ٠ الا ان السؤال الهام هو : هل ان هذا الدستور مطبق كما هو مكتوب ؟ وعندئذ التفت الي النزيل الذي كان مستلقيا في سريره ، ولم يكن بيني وبينه أي حديث سابق رغم أننا قضينا يوما كاملا سويا بالغرفة ٠ قلت له :

ـ كيف الحال يا أخ ؟
ـ الحمد لله ٠
ـ انشاء الله أحوالكم طيبة ؟
ـ الحمد لله ٠
ـ كيف أحوال الشعب الأرتري وماذا فعلت الفدرالية بكم ؟
ـ الحمد لله ٠

وهنا تضايقت من هذه الأجوبة المختصرة والتي لا تسمن ولا تغني من جوع ولا تتجاوز كلمتي (الحمد لله) ٠ ولذا أردت أن أسلك أسلوبا آخرا في توجيه الأسئلة فقلت له :

ـ يا أخ أنا زائر لبلادكم ، ومن العيب أن أعود دون الالمام بشيء عنها ، ولذا اعذرني لتطفلي وتوجيه الأسئلة لك قبل أن تكون بيننا معرفة سابقة ٠

ـ ومن أي بلد أنت أيها الأخ ؟

ـ انني قادم من السودان ٠

وهنا قفز الرجل من سريره وأخذني بالأحضان وهو يضحك ويقول: « لماذا لم تقل لي هذا من قبل ؟ انني أيضا سوداني ولكني ولدت بأرتريا وترعرعت بها وأعتبرها وطني ، واعذرني لأجوبتي القصيرة لأنني كنت أخشى أن تكون تابعا لأحد أجهزة التجسس التي انتشرت مؤخرا بهذا البلد » ٠

طلبنا أكواب الشاي ثم جلسنا نتحدث وكنت أمطره بسيل من الأسئلة لأنني أود أن أفهم كل شيء دفعة واحدة ٠ وكانت معظم أسئلتي حول هذا الدستور وبنوده ، فقال لي :

ـ ان هذا الدستور المكتوب بعبارات منمقة وجميلة مكتوب للزوار من أمثالك حتى يتوهموا بأن الرفاهية والعدالة انتشرت في أرتريا مع حلول النظام الفدرالي ٠ أما الحقيقة فهي عكس ذلك تماما ٠ فأولا ان هذا الدستور مطبق بشكل عكسي ٠ وكل ما فيه من مواد جيدة يطبق نقيضها تماما ، والحريات التي سألتني عنها مطبق بدلا عنها عدم الحريات والكبت ٠ وعلى هذا المنوال باقي المواد ٠ انني أعتبر نفسي أرتريا مع أنني سوداني الأصل ، فقد ولدت في هذا البلد وعشت فيه وأعرف فترة الحكم الايطالي والبريطاني ، وأقول لك أن تلك الأيام أحسن من أيامنا الراهنة بآلاف المرات ٠ والآن تتقهقر أرتريا للخلف بخطوات سريعة ٠ واذا استمرت الحالة على هذه الشاكلة فان مستقبلنا سيكون مظلما ٠ أما الفدرالية التي تستفسر عنها كثيرا ، بكل اختصار انها استعمار جديد بل ومن أسوأ أنواع الاستعمار الذي عرفته أرتريا في مختلف الحقب التاريخية ٠

استمر حديثنا لساعة كاملة ، وبعدها استأذن النزيل قائلا :

ـ مما يؤسفني أنني مضطر الآن للسفر الى مصوع حيث تنتظرني غدا أعمال تجارية هامة ، كما أن أسرتي تنتظرني مساء اليوم حسب

اخطاري السابق لهم ، والا لكنت انتظرت معك يوما آخرا ، ونصيحتي لك اذا كنت تود الرجوع سالما الى السودان عليك أن تكون أكثر حذرا في توجيه الأسئلة ، لأن أثيوبيا نشرت الكثير من جواسيسها في الفنادق والمقاهي والاسواق والذين يستدرجون الأبرياء عن طريق توجيه مثل هذه الأسئلة البريئة المظهر ، وعندها يقودون الأبرياء للمعتقلات ويمارسون معهم أساليب تعذيب وحشية ، ويكون من الافضل ألا توجه أي أسئلة واستفسارات سياسية ، بل يمكنك أن تستفسر عن مسائل أخرى كثيرة ٠

سافر هذا الصديق الطارىء ، وقد تأسفت كثيرا ، فلو بقي معي يوما آخرا لأفادني كثيرا ، فقد شعرت بأنه ملم بالأوضاع بل لديه موقف محدد مما يدور في أرتريا ٠

هكذا أجد نفسي وحيدا للمرة الثانية في هذه المدينة الصاخبة بعد أن سافر هذا الصديق الطارىء ، فارتديت ملابسي وخرجت الى الطريق دون أن أحدد الاتجاه ، وأصبحت مثل السواح أتوقف أمام المحلات التجارية ثم أسير خطوتين وأتوقف لأتفرج هنا وهناك ٠ وبالفعل كنت منبهرا للكثير من المشاهد ، فأسمرا شبيهة ببعض المدن الأوروبية التي كنت أشاهدها في الأفلام السينمائية ولم يكن سبق لي أن شاهدت مدينة مثلها على أرض الواقع ، فواجهات المحلات مضاءة بأنوار (النيون) ذات الألوان المختلفة والطرقات مزدحمة بالمارة المسرعون دوما ٠٠ والسيارات الكثيرة والمتنوعة تزحم الطريق ٠٠ وأبرز ما يميز المدينة هي النظافة للمحلات والطرقات ٠٠ والموسيقى التي تصدح وتنبعث من معظم المحلات ٠٠ والملابس الافرنجية هي اللبس الشائع لأغلب المواطنين وقد لفت نظري وجود الأوروبيين بكثرة سواء أولئك الذين يسيرون في الطرقات أو أصحاب المحلات التجارية وبعض البارات ، بالاضافة لجاليات أخرى توجد بكثرة ملحوظة ٠

كنت أسير وحيدا وأنا أستعرض هذه المشاهد ، وكنت أتفرس في

وجوه المارة علني أتمكن من قراءة ما يدور بداخلهم وذلك دون أن يلتفت الي أحد ، وبدأت أتحدث الى نفسي سرا : « اذن هذه هي عاصمة بلادي وهذا هو شعبي وأنا الغريب المجهول وسطها » • وهنا انتابتني مشاعر الكآبة لبرهة انشغلت عنها بالتفكير في الشارع الذي أسير عليه وتاريخه• الشارع هو شارع الأمبراطور هيلاسلاسي ، وأثناء الاستعمار الايطالي كان يعرف باسم شارع موسوليني • اذن ما الفرق ؟ بالأمس موسوليني واليوم هيلاسلاسي ، وهذا يؤكد بأن الفدرالية مـا هي الا استعمار جديد • ولو كان الأمر عكس ذلك لكان سمي هذا الشارع ـ شـارع الحرية أو الاستقلال ، والا لسمي باسم أي شهيد أو بطل أرتري • أما أن يسمى الشارع الرئيسـي في العاصمـة وفي كـل مرة باسم الغازي الأجنبي فهذا عار على الشعـب الأرتري يجب أن يمحـى • وطرأت لي فكرة أن أبدأ معركتي من هذه النقطة وأقوم بكتابة منشور عن هذا الشارع وأهمية تغيير اسمه ، ولكني صرفت النظر عن الفكرة في الحال لعجزي عن تنفيذها •

شاهدت البارات المنتشرة هنا وهناك وما أكثرها ، فخامرتني فكرة الدخول لأحد هذه البارات رغم أنني لم أذق الخمر ، فلربما أكـون محظوظا وأجد من أتعرف عليه ، وكانت مشكلتي هي طيش الشبـاب والاندفاع ، فكلما طرأت فكرة في ذهني تجدني قد بدأت في تنفيذهـا دون عناء تفكير ، ولهذا وجدت نفسي أندفع بالدخول الى أقرب بار • وما ان جلست على المائدة حتى أقبلت نحوي احدى الساقيات وعلـى شفتيها بسمة داعرة وهي تتمايل يمينا ويسارا كغصن البان ، مرتدية فستانها القصير والضيق الذي يبرز مفاتن جسدها ، وما ان توقفـت أمامي حتى وقفت مرحبا بها وأجلستها قائلا :

ـ اطلبي ما تشائين من الشرب •

ـ وماذا تشرب أنت حتى أطلبه لك ؟

ـ اطلبي لنفسك ويسكي أما أنا فلا أشرب شيئا •

فظهرت علامات الدهشة على وجهها لبرهة من الوقت ، ولكن بعد قليل انبسطت أسارير وجهها اذ خامرتها فكرة • فقد ظنت أنني أبحث عن موعد غرام معها لأن هذا هو الأسلوب المتبع كما فهمت مؤخرا • أحضرت المشروب بعد أن دفعت لها ثمنه مقدما وجلست قبالتي ، فبدأت أمطرها بأسئلتي التي كانت تدور بذهني عن الأحوال المعيشية والسياسية • وهنا لاحظت أنها تتلفت يمنة ويسرة ، وأمام الحاحي مدت رأسها الى منتصف المائدة بعد أن مالت بكل جسمها حتى كادت تلامس وجهي وهمست لي قائلة :

ـ اترك هذا الحديث وتلك الأسئلة لحين ذهابنا سويا الى المنزل في منتصف الليل لأن نوبتي تنتهي في الثانية عشر ليلا •

فقمت من فوري واقفا واندفعت باتجاه الباب دون أن أستأذنها أو أتحدث اليها ، وبينما كنت خارجا التفت اليها فوجدتها تنظر الي ووجهها خال تماما من أي تعبير ، فلربما ظنت أنني مجنون •

عدت من توي الى الفندق ، وبعد تناول طعام العشاء استلقيت على السرير وبدأت في اعادة قراءة الدستور الأرتري حتى كدت أن أحفظه عن ظهر قلب • بعدها بدأت أستعرض أحداث هذا اليوم •• يومي الأول بمدينة أسمرا وأحاديثي مع صديقي الطارىء •• وكنت أستعيد في ذاكرتي كل كلمة قالها لي ، وعندما تذكرت تحذيره لي بعدم توجيه الأسئلة السياسية ، وانتشار الجواسيس الأثيوبيين ووسائل استدراجهم ، عندئذ فقط تأكدت بأنني قد أسأت لتلك البائسة ، فتاة البار ، بتوجيه الأسئلة التي قد أعود ثانية وأعتذر لها • وفي تلك اللحظة تذكرت صديقي أحمد وازداد احترامي وتقديري له ، وتذكرت نصيحته لي يوم قررت قطع دراستي والسفر على الأقدام الى أسمرا لتوزيع خطابي الساذج على المواطنين • فماذا يا ترى كان سيحدث لو نفذت تلك الفكرة المجنونة دون أن أستشير أحدا ، وهأنذا اليوم أكثر وعيا ونضجا ومعي ما يكفي من مصاريف وبالرغم من ذلك تجدني عاجزا حتى عن التعرف

على صديق يشرح لي حقائق الأمور دعك عن طبع خطاب وتوزيعه • ولا أدري كيف كنت سأنفذ من تلك المغامرة لو قدر لي المجيء الى أسمرا آنذاك •

في صباح اليوم الثاني استيقظت مبكرا في السادسة صباحا وتناولت طعام الافطار ثم ارتديت ملابسي وخرجت الى الطريق وكأنني ذاهب للعمل • وبينما أنا أتمشى في الطرقات دون هدف شاهدت على البعد صديقي تسفاي الذي تعرفت عليه أثناء زيارته للسودان ضمن فريق حماسين الرياضي ، وعندما كنت يومذاك حريصا لمقابلة كل قادم من أرتريا لتقصي الأخبار والمعلومات • وقفت فترة مشدوها أمام هذه الفرصة الذهبية التي لم أكن أتوقعها • ثم انطلقت جاريا باتجاهه الى أن أمسكت بكتفه ، ولم يكن تسفاي أقل مني دهشة لهذه المفاجأة • وبعد السلام والعناق والقبل الكثيرة على الخدين كما هي العادة هنا ، أفادني بأنه ذاهب الى عمله حيث يعمل موظفا بمطار أسمرا ، وطلب مني أن أنتظره بالفندق مساء •

عدت في الحال الى الفندق وأنا أحس بأنني حققت انتصارا كبيرا في بداية هذا اليوم ، فقد وجدت أخيرا أحد أبناء أسمرا ومن الشخصيات الاجتماعية ، وهذا يعني أنني وجدت أحد المفاتيح الهامة ، وقضيت نهاري بكامله وأنا أعد الأسئلة والاستفسارات التي سأوجهها له • وهذا يعني أنني سأجد بغيتي من المعلومات خلال يوم واحد ويمكنني بعد ذلك أن أغادر أسمرا خاصة وأن اجازتي لم يتبق منها سوى أيام قلائل •

منذ العصر كنت مرتديا ملابسي في انتظار تسفاي الذي لم يحضر للفندق الا في تمام السابعة مساء • بعد أن جلسنا قليلا وقبل أن أبدأ (تحقيقاتي) معه بادرني قائلا :

ـ ما رأيك أن نقضي أمسية ممتعة ؟ عندي صديقة أخبرتها أن تدعو احدى صديقاتها لك •

ـ اعذرني فانني لا أشرب • أما عن قضاء الأمسية الممتعة فانني متزوج حديثا •

ـ دعك من هذا التعفف • اذن لماذا جئت الى أسمرا ؟ وعندما تعود لأصدقائك بالسودان ماذا ستحكي لهم ؟

ـ دعنا نؤجل هذا لأمسية أخرى ، أما أمسية اليوم فلنخصصها للدردشة ، فانني أود أن أعرف الكثير عن أرتريا في زيارتي هذه ، وربما كان هذا هو الغرض من زيارتي لأسمرا •

ـ اذن فلنذهب لنادي الضباط وهناك سوف أقدمك لأصدقائي لتتعرف عليهم •

فوافقت في الحال على هذا الاقتراح واتجهنا الى هناك • وما ان عرفوا بأنني صديق لتسفاي وقادم من السودان حتى بالغوا في الترحيب والاحتفاء بي • وخلال أقل من ساعة كنت كواحد منهم وكأننا نعرف بعضنا منذ وقت طويل،ولكن هذا لم يغرني بالتسرع بالبدء في تحقيقاتي، فقد كانت نصيحة صديقي الطارىء بالأمس ومسلك فتاة البار درسا مفيدا لي ، كما أن هذا هو نادي الضباط ورواده من كبار موظفي الدولة الأثيوبية ولهذا فالحذر واجب ، وقد خصصت لقاءاتي وجلساتي بهم لدراسة هذا المجتمع •• مجتمع الموظفين لأنهم من المتعلمين كما أنهم أكثر الطبقات التصاقا بالدولة الأثيوبية ، ولهذا يمكن معرفة الكثير من خلالهم •

خلال أمسيتين متتاليتين من الجلسات والأحاديث العامة مع رواد نادي الضباط تمكنت من الالمام ببعض اهتمامات هذه الفئة ، فقد شاهدت أولا اهتمامهم الفائق بلعبة (البلياردو) التي يقضون الساعات الطوال في لعبها وبعضهم بالتفرج على اللاعبين • أما في جلساتهم فان معظم أحاديثهم تدور حول شخص ما تمت ترقيته لوظيفة أكبر لعلاقة القربى التي تربطه بالمدير أو الوزير ، وفلان الذي سافر في بعثة الى أمريكا أو بريطانيا ، أو ذلك الذي عاد مؤخرا ويحمل شهادة ستؤهله

لاحتلال موقع رفيع ، وقليلا من النميمة لرؤسائهم واحتلالهم لوظائف أكبر من مؤهلاتهم ومقدرتهم ولا يفقهون في عملهم كثيرا سوى وضع امضاءاتهم على جهود الموظفين الآخرين المغمورين ، والبعض يتحدث عن مغامراته النسائية وعن فلان الذي يجيد رقصة (الروك أند رول) أكثر من غيره • كانت معظم الأحاديث تدور حول هذه الاهتمامات الصغيرة • أما السياسة فلم يكونوا يقتربون من الحديث عنها اطلاقا • لهذا رأيت أنني سأضيع وقتي دون الاستفادة بارتيادي لهذا النادي ، ورأيت أن أختصر الأمر مع زميلي تسفاي الذي توطدت علاقتي به خلال هذه الأيام الثلاثة التي عشناها سويا ، كما أنني أصبحت أثق به لدرجة الاطمئنان بأنه سوف لا يشي بي لدى السلطات الأثيوبية حتى ولو كان عميلاً لها ، وما ان صارحته بما يدور في ذهني حتى وجدته أكثر مني كرها لهذه الفدرالية التي كنت أكرهها دون وعي والمام بتفاصيلها • أما هو فقد وجدته ملما بكل شيء ، وبدأ حديثه معي قائلا :

ـ ليتك صارحتني منذ البداية ، فلو حدث ذلك لما أضعت من وقتك يومين في هذه الجلسات الخاوية من أي معنى ، ولتمكنا من جمعك بنوعيات أخرى من الشباب ، وأرجو ألا تحكم علينا من خلال هذه القشرة الزائفة التي شاهدتها ، بل من الأحسن أن تحتفظ بحكمك حتى تغوص في أعماق المجتمع ، وعندئذ ستكتشف نوعيات أخرى من الشباب واهتمامات غير تلك التي استمعت اليها خلال اليومين الماضيين • ربما تكون مستاء لما تشاهد من بارات ورقصات وحياة المجون وموائد (البلياردو) وأشياء أخرى ربما لم تشاهدها ، وعليك ألا تعتقد أن هذه هي أسمرا الحقيقية •

ما ان استمعت الى هذه الكلمات الصادقة من صديقي تسفاي حتى غمرني شعور كبير بالفرح ، اذن فان أسمرا ليست هؤلاء فقط ، هناك أسمرا أخرى ، أسمرا التي أسعى اليها ، خاصة وأنني ظننت تسفاي لا يختلف عن نوعيات الشباب المنغمس في حياة اللهو والمجون • ولهذا لم

أتردد في فتح الحديث الذي يسعدني فتحه :

ـ قل لي يا تسفاي لماذا انقسم شعبنا الى مسلم ومسيحي في فترة تقرير المصير ؟ وأنتم معشر الشباب لماذا سمحتم بمثل هذا الانقسام ولم تقاوموه ؟

داعب تسفاي لفترة علبة الدخان بين يديه ، ثم قال :

ـ ليس شعبنا هو الذي انقسم على أساس طائفي ، ولكن المستفيدين من انقسامه هم الذين ساقوه لهذا الطريق المسدود ، ودون وعي وجد شعبنا نفسه وهو يسير في هذا الطريق • وأول المستفيدين من انقسام شعبنا كانت أثيوبيا الطامعة في توسعات اقليمية والوصول الى البحر الأحمر • ولو كنت درست تاريخ أثيوبيا وأحلام أباطرتها للتوسع لاكتشفت حقائق مذهلة ، ولأضرب لك مثلا واحدا هو الامبراطور منيليك الثاني الذي حكم أثيوبيا في الفترة ١٨٨٩ ـ ١٩١٣م • ان هذا الامبراطور قام بغزوات ووسع حدود الامبراطورية الاثيوبية مرتين • وبالرغم من ذلك ها هو في مذكرته التي وزعها في عام ١٨٩١م الى ملوك أكبر خمس دول في أوروبا في زمانه وهي بريطانيا وفرنسا وألمانيا وايطاليا وروسيا القيصرية ، في هذه المذكرة يوضح حدود الامبراطورية الاثيوبية لاعتمادها لدى هذه الدول • ويقول في نهاية المذكرة بعد أن وضح حدود بلاده : « ففي الوقت الذي أوضحت فيه معالم حدودنا كما هي حاليا فقد عقدت العزم اذا ما عوفيت وأمد الله في عمري على استعادة الحدود القديمة وممتلكاتنا حتى الخرطوم ولغاية بحيرة نيانزا بما في ذلك مواطن قبائل فالا » •

هذه هي عقلية كل أباطرة أثيوبيا • وفي كثير من الأحيان يلمحون بأن حدودهم الطبيعية تقف عند أراضي النوبة جنوب مصر ، وهذا يعني رغبتهم في ابتلاع السودان بكامله • وبعد هذا لا تستغرب اذا لجأوا لتمزيق شعبنا على أساس ديني كوسيلة لابتلاع أرتريا • ومسلكهم هذا ليس حبا في المسيحية وكرها للاسلام ، فهم لا دين لهم الا مصالحهم

وطموحاتهم التوسعية ، ولكي تتأكد من صحة حديثي فانهم في فترة تقرير المصير فرقوا شعبنا على أساس مسلم ومسيحي • أما الآن وفي فترة الفدرالية فيحاولون تمزيق المسيحيين على أساس اقليمي ويضربون هذا بذاك مستغلين نغمة حماسين ـ أكلي قوزاي ـ سراي • وفي الوقت ذاته يمزقون المسلمين على أساس قبلي واقليمي بنفس الصورة ، والهدف من كل ذلك هو أن يدعوننا ننشغل ببعضنا البعض في الوقت الذي يعملون فيه باندفاع شديد للقضاء على الفدرالية وابتلاع أرتريا نهائيا » •

« ربما تراني استرسلت في جوابي ، ولكن دعني أوضح أكثر فان سؤالك قد لمس أوتارا حساسة في نفسي • المستفيد الثاني من انقسام شعبنا على أساس طائفي كان فئة من المنتفعين وتنتمي لأرتريا اسما ، وهي من الطرفين المسلم والمسيحي • وهذه الفئة ليس لها هدف في الحياة سوى مصالحها الذاتية والتمسح بأعتاب كل سيد جديد يحل بديارنا • ومنهم من كان عميلا لدى ايطاليا الفاشستية لدرجة التجسس لحسابها ضد أثيوبيا ، واليوم نراهم يحتلون أرفع المناصب أيضا مع السيد الجديد وهو اثيوبيا • وكان هناك طرف ثالث وهي الكنيسة التي عرفت عبر تاريخها الطويل كمطية لأحلام الأباطرة ومارست دور التسلط على الجماهير كما كانت تقف ضد أي اصلاح أو تطوير لحياة الناس • ان الكنيسة أيضا ساهمت بشكل فعال في تعميق الانقسام وسط شعبنا •

ومن هذا السرد الموجز يتضح لك ان شعبنا لم ينقسم من تلقاء نفسه بل دفع دفعا نحو الانقسام • وان الدوائر الأجنبية التي لها مصالح ببلادنا كانت من وراء الحكومة الاثيوبية وتسخر لها كل الوسائل اللازمة لنشر الفساد والافساد والرشوة حتى يتحقق لهم تزييف ارادة شعبنا التي تلاقت عندها مصالحهم جميعا • في هذه الظروف وجد شعبنا نفسه وقد تم تنويمه مغناطيسيا وسيق الى هذا الطريق المظلم » •

« أما سؤالك عن دورنا نحن الشباب ولماذا سمحنا بهذا الانقسام

فأقول لك أننا واجهنا معركة أكبر منا • فنحن لم نتوقع هذه المعركة ولم نستعد لها ولم نجد الوقت الذي يمكننا من جمع شتاتنا • ولهذا فقد حرقت العاصفة الكثيرين ، والبعض لم يفق من الصدمة بعد حتى الآن • ولا تنسى أننا لم تكن لدينا تجارب سياسية سابقة حتى نتمكن من تفادي الوقوع تحت تأثير المؤامرات والألاعيب الاستعمارية ، أما الآن فنحاول أن نجمع شتاتنا مع أن الطريق صعب •

ـ والفدرالية ؟

ـ الفدرالية حسبما نشاهدها تعني فترة انتقالية تمر بها أرتريا حتى تصبح في النهاية مستعمرة آثيوبية • ولا نقول هذا الكلام من واقع نصوص الفدرالية وحسب ولكن من خلال تطبيقها أيضا •

ـ من ناحية نصوصها أرجوك أن توفر لي نسخة ، فقد حصلت صدفة على الدستور الأرتري وأود الحصول على القرار الفدرالي ، وأكون شاكرا لو ضربت لي مثلا بتطبيقهما الذي يعتبر تمهيدا للاستعمار •

ـ سوف أوفر لك نسخة من القرار الفدرالي • أما عن الدستور الأرتري الذي حصلت عليه فأرجو ألا تنخدع بنصوصه الجميلة • فهذا الدستور غير مطبق مثله مثل الدستور الأثيوبي الجميل النصوص والموضوع منذ أكثر من عشرين عاما ولكنه لم ير النور ولم يتم تطبيق بند واحد منه سوى ذلك البند الخاص بسلطات الامبراطور المستمدة من السماء كما هو وارد بالدستور • أما الأمثلة عن تطبيق الفدرالية باعتبارها جسرا للاستعمار فبامكاني أن أعطيك المئات منها • الا أنني أكتفي بالقليل ، في أيام ايطاليا كان يعسكر الجيش الايطالي في أرتريا ، وأيام الاحتلال البريطاني كان هنا جيش بريطاني • واليوم ماذا ترى ؟ جيش أثيوبي ، فماذا يعني هذا ؟ أيام ايطاليا كان يرفرف العلم الايطالي ، والعلم البريطاني أيام احتلالها لنا ، واليوم ماذا ترى ؟ العلم الاثيوبي ، بجانب العلم الفدرالي • واذا كان المبرر لوجود العلم الاثيوبي هو الفدرالية بيننا وبينها ، فلماذا لا يتم رفع العلم الأرتري

في أثيوبيا أيضا ؟ كانت لدينا مجموعة من الصحف وقدرا من حرية التعبير أيام الاحتلال البريطاني • اليوم أغلقت كل هذه الصحف بل ان بعضا من محرريها زج بهم في السجون ، أما تلك الحريات القليلة التي كانت متوفرة أيام احتلال بريطانيا فقد تلاشت ، وأصبح المواطنون يخشون حتى من التعبير عما يدور في نفوسهم في مجالسهم الخاصة دعك عن التعبير بالقلم وهذا لجهاز الجستابو المنتشر والذي يحصي على المواطنين أنفاسهم • ربما تكون شاهدت جيش العاطلين في بعض المدن التي زرتها • وهذه سياسة مخططة لأن أثيوبيا باشرت تخريبا لاقتصادنا كما اتبعت سياسة النهب لعائدات المواصلات والجمارك والموانيء وشركة الملح ، وعائدات كل هذا تذهب رأسا للخزينة الأثيوبية • أما ما يسمى بحكومة أرتريا فتعتمد على الضرائب المتصاعدة والتي تفرض على المواطنين باستمرار • وبمناسبة ذكر ما يسمى بحكومة أرتريا فان للامبراطور ممثلا هنا في أسمرا ، وهذا الممثل هو الحاكم الفعلي • أما الوزراء والمدراء والبرلمان فليست كل هذه المسميات سوى قطع من الشطرنج يحركها هذا الممثل كما شاء ومتى شاء •

كانت الساعة تشير الى الثانية صباحا عندما افترقنا وحددنا موعدا لنتقابل مساء الغد • وفي تلك الليلة لم أذق النوم لأن ما سمعته من صديقي تسفاي جعلني أحس بفداحة الخطر الذي يواجه أرتريا في مستقبل الأيام • وفي الصباح ارتديت ملابسي ثم خرجت أتجول في الطرقات • وعندما وصلت بالقرب من نادي الضباط توقفت برهة وأنا أردد في نفسي « القشرة الزائفة » تلك العبارة التي سمعتها من الصديق تسفاي • وفي الحال طرأت لي فكرة لأزور أحد الأحياء الشعبية في محاولة للغوص في أعماق المجتمع ، فاستقليت عربة وطلبت من السائق ليأخذني الى حي (أكريا) ، وهناك بدأت أتجول في الطرقات سيرا على الأقدام ، وفي الحال تبينت الفارق الشاسع بين بهرجة شارع هيلاسلاسي وهذا الحي الشعبي وكنت أقول في نفسي « حقا ان هذه هي أسمرا الحقيقية • أما أسمرا القشرة فهي شارع هيلاسلاسي » ، وأثناء ذلك كنت أستعرض

وأناقش بيني وبين نفسي حديث الصديق تسفاي ، ولكن كان هناك سؤال محدد يحيرني وهو : اذا كانت الأوضاع وصلت الى هذه الحالة المزرية فلماذا لا يثور هذا الشعب ؟ وقد قررت أن أواجه الصديق تسفاي عند لقائنا في المساء بهذا السؤال ٠

في المساء وعندما التقينا وقبل أن نتحدث في أي موضوع واجهت تسفاي :

ـ اذا كان الوضع قد وصل هذه الحالة من السوء فلماذا لا تسمع بمقاومة لهذا الخطر قبل أن تستفحل الأمور وتتكامل الحلقات ويصبح من الصعب بعد ذلك المقاومة ؟

ـ ومن قال بأنه لا توجد مقاومة ؟

ـ لم أسمع بذلك سواء كان من الراديو أو الصحف ٠

وهنا لاحظت ولأول مرة العصبية على وجه تسفاي وهو يتحدث ، قال :

ـ يا أخ للأسف أنت لا تعرف شيئا عن الاستعمار الأثيوبي ، فأنت تتصوره مثل الاستعمار البريطاني الذي كان معكم بالسودان ٠ أولا أؤكد لك بأنه توجد مقاومة مستمرة للزحف الأثيوبي ، فضمن سياسة افقار الجماهير الأرترية جلبت الحكومة الأثيوبية عمالا للموانىء من داخل أثيوبيا ليحلوا محل العمال الأرتريين ، وقد تصدى عمال الموانىء الأرتريين لهذه الخطوة فأعلنوا الاضراب ثم احتلوا أماكن العمل ليمنعوا العمال الاثيوبيين من الوصول اليها ، فماذا كانت النتيجة ؟ ان اثيوبيا حركت جيشها الذي دخل في معركة بالأسلحة النارية مع العمال العزل ٠ وهذه العملية الاجرامية دفعت بأبناء أرتريا من رجال الشرطة ليتضامنوا مع اخوانهم العمال ودخلوا في معركة مسلحة ضد الجيش وكان الضحايا من الجانبين كبيرا ٠ هل سمعت بهذا الحادث ؟ بالطبع لا ٠ فمثل هذا الحادث لو جرى في أي بلد لصار حديث اذاعات العالم وصحفه ٠ أما هنا فالسكوت والصمت هما السائدان لأن أثيوبيا تمنع تسرب كل شيء ٠

هناك عناصر وطنية من الشباب تتحرك بالمدن لتوعية المواطنين بخطورة الموقف ، فيتم اعتقال بعضهم والبعض يتم اغتياله من قبل الحكومة ، تصور ان الحكومة انقلبت الى عصابة اغتيالات • المقاومة موجودة وستتسع مع مرور الأيام فاطمئن •

ـ في فترة تقرير المصير كنا نسمع بالأحزاب السياسية وبالمظاهرات والمظاهرات المضادة ، لماذا خمدت تلك الأصوات ولا تتحرك اليوم لدرء الخطر المحدق بالوطن ؟

ـ للأسف ان الكثيرين ممن تصدروا الأحزاب السياسية آنذاك قد انشغلوا الآن بمعركة أخرى ألا وهي معركة الحصول على المغانم ، ويا ليتها كانت مغانم تستحق ما هم فيه من معارك • فكما كانوا بالأمس متصارعين أيضا اليوم هم متصارعون حول الوظائف الحقيرة ، وكل منهم يود أن يتقرب ويتودد للسيد الجديد ليكسب رضاءه وبالتالي يستطيع الحصول على الوظيفة التي يتطلع اليها أو يحصل على الرخص التجارية والزراعية • مصلحة شخصية بحتة •• أما مصلحة الوطن ومصلحة الشعب ، كل هذا غائب من حساباتهم ، هذا لا ينفي وجود البعض من الأحرار الا أنهم عاجزون من عمل شيء •

في نهاية جلستنا وأنا أتأهب للسفر شكرته على توضيحاته الثمينة وشرحه المسهب ، الا أنه استوقفني قائلا :

ـ بالعكس نحن الذين يجب أن نشكرك • أتذكر يا أخ صالح تلك الهدية الثمينة التي قدمتها لي أثناء زيارتي للسودان ضمن فريق حماسين الرياضي ؟ هل تذكر كتاب (الأم) الذي قدمته لي قائلا أنه مفيد ؟ ان هذا الكتاب لا يمكنك أن تتصور ما قدمه لنا من فوائد • فعند عودتي لأسمرا قرأته جيدا وتأثرت به ، ثم بدأت دائرة هذا الكتاب تتسع وقراؤه يتكاثرون • واليوم نكاد أن ننشيء تنظيما نطلق عليه (الأم) للتأثير السحري الذي يتركه هذا الكتاب في نفس كل من يقرأه •

كم كنت أتمنى لو التقيت بالأخ تسفاي في بداية اجازتي حتى أستفيد منه أكثر ، ولكني كنت في نهاية الاجازة ، وتركت أسمرا في ذلك المساء برفقة أحد أصدقاء تسفاي الذي كان متجها لتسنى بسيارته الخصوصية ، لأختم جولتي بزيارة مدينة أغوردات ثم أعود الى السودان · والجدير بالذكر أن علاقتي بتسفاي لم تنقطع بل استمرت وتطورت وتوطدت مع الأيام · أما هو فقد تعرض للسجن والاعتقال والتعذيب مرات عدة ، وكان في مقدمة من انخرطوا في النضال السياسي المنظم ثم في الثورة المسلحة · واليوم ، فان تسفاي يعتبر في عداد الشهداء ·· أدى دوره كاملا ·· ورأى بعضا من أحلامه تتحقق ·· ثم انضم للقافلة الخالدة ·· قافلة الشهداء وهو مرفوع الرأس يهتف بحياة أرتريا المستقلة والمتحررة من النفوذ والسيطرة الأثيوبية ·

وصلت الى مدينة أغوردات في الرابعة صباحا والمدينة نائمة يخيم عليها الظلام والصمت التام الا صيحات الديوك المتقطعة ، وبوصولي للفندق لم يكن هناك وقت للنوم فأخذت حماما باردا وارتديت ملابسي وتركت الفندق خارجا وقد زال الظلام والمدينة ما تزال نائمة • كانت المتاجر والمقاهي مغلقة والشوارع خالية ، ومع نسمات الصباح كنت أتجول وأتطلع لمعالم المدينة الرابضة بين مجموعة من الجبال وبقربها نهر بركه حيث أشجار النخيل الباسقة • كان منظرا يخلب الألباب ، أما المباني بالمدينة فمعظمها من أخشاب الدوم والقليل منها مبان حجرية • وشيئا فشيئا بدأت الحياة تدب في الطرقات •• والمقاهي تفتح أبوابها • وبشروق الشمس فتحت المتاجر وامتلأت الطرقات بالمارة • هنا بدأت البحث عن صديقي عبد الرحيم الذي يعمل ترزيا وكنت قد تعرفت به في السودان حيث كان يمدني بالأخبار والمعلومات ، أيام كانت مصادري أقوال القادمين والمسافرين • وقد ترك السودان وعاد لوطنه وعلمت بأنه افتتح محلا بهذه المدينة ، لم يطل بحثي أكثر من عشر دقائق حتى كنت أمامه ، ودخلت الدكان منشرحا للسلام عليه ، ولكني لاحظت أنه لم يسلم علي بحرارة كما كنت أتوقع ، بل كان يلتفت لليمين ولليسار ثم

ينظر الى الشارع وكأنه قد افتقد شيئا • وتضايقت وشعرت بالحرج ولهذا سألته :

ـ ماذا جرى لك يا عبد الرحيم ألا تعرفني ؟ ولماذا تقابلني بهذا البرود بعد غياب دام ثلاث سنوات ؟

ـ كيف لا أعرفك يا صالح • ولكن كحساى رأيته مارا بالطريق قبل دقائق •

ـ كحساى ؟ ماذا يكون كحساى هذا ؟ وما علاقة الأمر به ؟

ـ انه ضابط بالمخابرات • وكالكلب يشتم رائحة كل قادم جديد للمدينة ، ويظل يتعقبه وينصب الشباك من حوله ، انه رهيب وكل من بالمدينة يحس بالرعب عند سماع اسمه •

نظرت الى عبد الرحيم مليا وشعرت بالمرارة ، ودون أن أعلق على ما قاله بكلمة واحدة تركت الدكان وانصرفت ، وكنت في حالة من الغضب ، ورددت في نفسي : « ان هذا الانسان أخطر من كحساى لأنه يثير الرعب والخوف في قلوب المواطنين باشاعة الأساطير حول خطورة ضابط في المخابرات » •

رحت أسير على غير هدى ، ولم أكن أدري أن الأقدار ستقودني للتعرف بشخصية ظريفة سأحتفظ لها بذكرى محببة في نفسي • فقد جلست في أول مقهى صادفني ثم صفقت • وعندما حضر (الجرسون) طلبت منه فنجانا من القهوة • ولكنه أجابني قائلا : « يظهر أنك زائر جديد في هذه المدينة ، فالمقاهي هنا لا تقدم القهوة بل الشاي فقط ، واذا كنت تود أن تشرب قهوة فهناك مكان واحد فقط هو مكان ابراهيم المعروف لكل سكان المدينة ، فاذهب الى هناك » ، وأشار لي باصبعه الى مكان بعيد ، وبعد أن شكرته تحركت باتجاه مكان ابراهيم • وابراهيم

هذا ليس له دكان ، ولكنه يجلس على قارعة الطريق وتحت شجرة ظليلة ، وبجانبه معدات القهوة والفناجين واناء مليئا بالماء وموقدا كبيرا للنار ، ومن حوله تنتشر مقاعد صغيرة خصيصا للذين يلبسون الملابس الافرنجية من زبائنه ، ومجموعة أكياس فارغة يجلس عليها زبائنه الذين يرتدون الملابس الوطنية ٠

اقتربت الى مكانه ومن حوله يجلس عدد من الزبائن يقدم لهم فناجين القهوة ويتحدث اليهم جميعا في آن واحد ٠٠ فهو صديق للجميع ٠ وما ان رآني حتى رحب بي بحرارة وكأنه يعرفني منذ سنوات طويلة ، وأجلسني بالقرب منه في أحد المقاعد الصغيرة وهي عبارة عن صندوق فارغ ، وللمبالغة في الترحيب فرش ثوبه على المقعد لكيلا تتسخ ملابسي كما قال ٠ وعلى الفور أعد لي القهوة بينما كان في الوقت ذاته يضحك مع هذا ويستفسر الأخبار من ذاك ٠ شربت القهوة وعندما أردت دفع الحساب احتج على مسلكي قائلا :

ـ عيب يا رجل ، فأنت ضيف ، وتريد أن تضن علينا باكرامك بفنجان قهوة ؟

ـ وكيف عرفت بأنني ضيف ؟

ـ انني أعرف كل سكان هذه المدينة وبالذات أولئك الذين يشربون القهوة ٠ وأستطيع أن أقول أنك لم تقض حتى يوما كاملا بهذه المدينة ، أليس كلامي صحيحا ؟ بل أجزم وأقول أنك قادم من السودان ٠ والآن أعطنا الأخبار ٠٠٠ أخبار السودان ٠

استغربت في البداية كيف عرف هذا الرجل بأنني قادم جديد للمدينة وكيف تمكن من معرفة قدومي من السودان ، مع أنني لم أقض أكثر من ثلاث ساعات منذ حلولي بهذه المدينة ٠ ولكن عندما تعرفت بابراهيم أكثر لم أستغرب ٠ وأستطيع أن أجزم بأن ابراهيم لم يتخصص

في عمل القهوة من أجل الكسب بقدر ما كان له هدفان هما التعرف بالناس ومعرفة الأخبار والأقاصيص واعادة روايتها • أما الهدف الثاني فهو السب والشتم للحكومة ولكل المسئولين ، فأي أخبار ومن أي نوع تجدها عند ابراهيم ، بدءا بأخبار السياسة والقادمين الجدد للمدينة والوفيات وحتى الفضائح ، فهو لن يترك أحدا من زبائنه الا ويكون قد حصل منه على كل ما لديه من أخبار ومعلومات • وفي نفس الوقت يكون قد وضعه في جو كل ما هو جديد • ولهذا يظل يحكي طوال النهار ولا يتوقف عن الحديث • واذا لم تكن هناك أخبار جديدة فلابراهيم ما يرويه من أحاديث التاريخ والبطولات وعادات القبائل • أما الحكومة وجميع المسئولين فالود مفقود بينهم وبين ابراهيم ، فهو متتبع لكل أخبار الحكومة وفضائح المسئولين التي تبدأ بالرشوة والمرتشين والمغامرات النسائية والمتزلفين للحكام الأثيوبيين • وحتى عن مسلك المسئولين الشخصي وطريقة أكلهم ومشيهم وكروشهم البارزة ، وخليلاتهم ، وكيف أنهم يتظاهرون بالشجاعة والبطش والاستئساد على الشعب وعلى مرؤوسيهم ، مع أنهم يتحولون الى أرانب أمام رؤسائهم • ونتيجة للتعبئة اليومية التي يقوم بها ابراهيم فان زبائنه جميعهم لا يحسون بأي احترام للمسئولين وللحكومة بفعل الفضائح التي يسمعونها يوميا على لسان هذا المحرض الكبير الذي كان بمثابة وكالة أنباء يومية • وفوق كل هذا فان ابراهيم يمتاز بشجاعة فائقة كما لديه اعتزاز بنفسه يفوق الوصف • فعندما ينتهي من اذاعة ما عنده من أخبار يومية يبدأ يحكي عن قصص أجداده وبطولاتهم وكيف أذاقوا الأثيوبيين الموت والهزائم في معارك متتالية ، وهذا النوع من أقاصيصه التي لم أقرأ عنها في كتب التاريخ فهي كثيرة ومشوقة بحيث يصور أمامك المعارك بأسلوبه الجذاب •

لقد تعرض ابراهيم للاعتقال والاستجواب نتيجة أخباره وأقاصيصه عن المسئولين ، كما تعرض مرة للسجن ، ولكنه بداخل السجن خلق جوا عدائيا للمسئولين بأقاصيصه التي تكشف فضائحهم ، وفي كل أسبوع تقريبا يتم استدعاؤه الى مكتب المحافظ ويتم تحذيره وانذاره • وفي

النهاية وعندما لم تجد كل هذه الوسائل تركوه وشأنه خاصة وأنهم اكتشفوا بأن ابراهيم حالة ميئوس من علاجها وان خطره لا يتعدى الكلام • والبعض من المسئولين حاول التقرب والتودد اليه تفاديا للسانه السليط •

ان ابراهيم قدم لي خدمة جليلة • ففي ذلك اليوم وعندما أردت الانصراف سألني عن مكان اقامتي ، فأعطيته عنوان الفندق • وفي العصر فوجئت به يحضر لغرفتي بالفندق ومعه مجموعة من المدرسين من زبائنه، وقد أخطرهم بوصول شخص متعلم من السودان ويتحدث بالسياسة ، فطلبوا منه التعرف بي ، وعن طريق ابراهيم وبمجموعة المدرسين التي قدمها لي وجدت نفسي خلال يومين أكاد أن أتعرف بكل سكان المدينة • فمدينة أغوردات تمتاز بعلاقة الترابط بين سكانها بحيث أنهم يعرفون جميع سكان المدينة • وعندما يحدث زواج فهو زواج المدينة بكاملها حيث يشترك الشباب والشابات والكبار بتقديم الهدايا والاشتراك في الألعاب والأفراح ونفس الشيء يحدث في المآتم • وعندما يقوم أحد أصدقائك بدعوتك لطعام الغداء أو العشاء فهو لا يدعوك منفردا ، بل يدعو العشرات من أصدقائه احتفاء بك • وأثناء ذلك يتطوع آخر فيدعو المجموعة بكاملها أيضا احتفاء بك • وهكذا تجد نفسك مدعوا لولائم لا تنتهي الا بسفرك ومغادرتك للمدينة • وهذا ما جرى لي في فترة بسيطة لا تتعدى الأربعة أيام •

في كل المآدب واللقاءات التي أقيمت لي من الأصدقاء كان ابراهيم يتصدرها باعتباره صديقي الأول في هذه المدينة • وفي الصباح عندما يذهب كل الى عمله كنت أتوجه رأسا اليه في مكانه وأجلس بجانبه ، أشرب كميات من فناجين القهوة ، وأظل أتحدث اليه عن الفدرالية وخطرها ، باعتبارها مرحلة انتقالية للاستعمار الأثيوبي المباشر • وكنت أشرح له كل الحقائق التي أعرفها وتلك التي شرحها لي صديقي تسفاي في أسمرا • وكان ابراهيم يستمع الى حديثي باهتمام بالغ ، وكنت

واثقا بأنه سيرويه بحذافيره لكل زبائنه • ولهذه الغاية كنت أختصه بمعظم وقتي • فابراهيم وأمثاله خير وسيلة للتحريض بحكم تغلغلهم وسط أوسع طبقات المجتمع وهم يتحركون دون خوف أو وجل ، ليس مثل صديقي عبد الرحيم الذي خيب ظني وكاد أن يبث الرعب في نفسي لأغادر المدينة دون أن أتحدث لشخص فيها •

في أحد الأيام كنت جالسا مع مجموعة من المدرسين في المقهى نتناول الشاي ، فجاء أحد الموظفين بالمحافظة وجلس معنا ، وفجأة ظهر على وجوه الموظفين عدم الارتياح • ولم أفهم لهذا تفسيرا ، الا أن الموظف وقبل أن يستوي في جلسته بدأ يتحدث ، وكانت جل أحاديثه عن آخر نكتة أطلقها رئيس الوزراء في الاجتماع الأخير للوزارة •• والأمبراطور وما أدلى به من حديث هام لمراسل أجنبي عن النهضة الاصلاحية والعمرانية التي تعم أثيوبيا •• وابن الوزير الذي يدرس بأمريكا والذي هو على أبواب التخرج ، وأرسل لوالده الوزير يخطره بأنه قرر الزواج من فتاة أمريكية ، فأخذ والده الوزير رسالته الى الأمبراطور ، فما كان من الأمبراطور الا أن وجه له رسالة عن طريق سفارة أثيوبيا بواشنطن يقول له فيها : اذا كنتم أنتم المتعلمون تتزوجون بالأجنبيات فمن الذي سيتزوج الفتاة الأثيوبية ، فما كان من ابن الوزير الا أن رد معتذرا وطالبا من الأمبراطور أن يغفر له هذا الخطأ الفاحش ، ثم زوجه الأمبراطور من احدى بنات الأسر الارستقراطية التي تنتمي للأسرة المالكة •

كاد الموظف يسترسل في هذه الأحاديث السمجة وكلها عن الطبقات الحاكمة بدءا من الوزير وحتى الأمبراطور وكأنه جليسهم ، ولهذا فلم أتمالك نفسي فقاطعته قائلا :

ـ هل بامكانك أن تحدثنا أيضا عن الفدرالية ؟

ـ الفدرالية ؟ ماذا بها ؟ انها شكل من أشكال العلاقة التي تربط

بين الدول ، مثل علاقة دول الكمنولث البريطاني ٠

ـ ولكن دول الكمنولث لكل منهـا كيانه المستقـل وعلمه الذي يرمز له ٠

ـ نفس الشيء هنا فلأرتريا علمها وكذلك لأثيوبيا ، ولأرتريـا كيانها المستقل ونفس الشيء أثيوبيا ٠

ـ ولكن لماذا يرفع بأرتريا العلمان الأرتري والأثيوبي ٠ وفـي أثيوبيا لماذا يكتفون بعلمهم فقط ولا يرفعون بجانبه العلم الأرتري ؟

ـ هذه مسألة شكلية وسببها أن أثيوبيا كانت مستقلة قبل أرتريا ٠

ـ ألم تكن أثيوبيا محتلة بواسطة الايطاليين حتى عـام ١٩٤١م ونفس الشيء أرتريا ، وجاءت القوات البريطانية لتعيد الأمبراطور الى عرشه ولتحتل أرتريا لعشرة أعوام ؟

ـ الأمبراطور جاء على رأس جيش قوي وحارب حتى هزم جيش الاحتلال البريطاني ولم يعده البريطانيون لعرشه ٠

عندما وصل حديثنا الى هذا المستوى ، الحدة والغضب من جانبي ومغالطة الحقائق المعروفة من جانبه ، أنقذ الموقف أحد الجالسين قائلا لي : « هل نسيت موعدك لأخذ الحقنة التي قررها لـك الطبيب ؟ هيا بنا » ٠ وقبل أن ننهض سادت فترة صمت طويلة ثم استأذن ذلك الموظف وانصرف ٠ وهنا تحدث المدرسون بلسان واحد : « كيف تتصرف هكذا ؟ ألا تعرف أن هذا الموظف مـن طبقـة الصاعدين على الجماجم ؟ » ٠ فاستفسرت منهم ماذا يعنون بطبقة الصاعدين على الجماجم ٠ فقالوا انها طبقة جديدة تنتشر وسط المجالس وتلقي بمثل هذه الأحاديـث السمجة ٠ وعندما يتضايق أحد الجالسين يضطر أن ينفجر في وجههـم ويعبر عما في نفسه من كراهية لأثيوبيا ، فيقومون برفع التقارير عنه ٠

وبهذه الوسيلة يتقربون لحكام أثيوبيا وبالتالي يتم تقليدهم المناصب والوظائف ·

في صباح اليوم الثالث لوجودي بمدينة أغوردات كنت كالعادة جالسا مع ابراهيم نتناول فناجين القهوة · وبحكم ترددي اليومي عنده وجلوسي للساعات الطوال أصبحت معروفا لدى عدد من زبائنه ،وبفضله أصبحت معروفا لديهم لأن ابراهيم لا يستطيع الا أن يحكي كل شيء · كنت جالسا مع ابراهيم أحكي له عن نضالاتنا في السودان حتى تحقق الاستقلال ، وعن نضالات (الماو ماو) بكينيا والجزائر وكيف يجب أن نفعل مثلهم هنا في أرتريا · أثناء ذلك أعطاني أحد البسطاء من رواد المقهى درسا مفيدا · فقد تنحنح ثم بدأ يوجه حديثه لي قائلا :

ـ ابراهيم شرح لنا كل ما قلته له · وكون أثيوبيا سيئة فهذا أمر لا يحتاج للشرح فنحن نعيشه يوميا · ولكن اسمح لي أن أقول لك أننا مهما تحدثنا في مجالسنا عن أثيوبيا وجرائمها فهذا لن يغير من الأمر شيئا · بل أثيوبيا هي المستفيدة لأنها تصطادنا بواسطة جواسيسها فردا فردا وترمي بنا في السجن · فلا نحن وفرنا أنفسنا من العذاب ولا حققنا شيئا · كل ما أطلبه منك هو أن تعطيني بندقية ويومها سترى ماذا سأفعل · نحن لا نخاف أثيوبيا اذا وجدنا السلاح ، فكلنا أبناء تسعة أشهر ولا يتفوقون علينا بشيء ، بل سبق وان جربنا بعضنا قبل هذا ونعرف الكثير عن مخازيهم ·

ـ ولكن حتى البندقية تحتاج الى تعبئة واعداد مسبق · ومثل معركتنا لن تحلها البطولات الفردية بل يتطلب الأمر أولا الوحدة بين الشعب ثم التوعية ومعرفة أبعاد المسيرة التي قد تطول ·

ـ لا أعرف كثيرا في السياسة ولا أود أن أعرف · أعطني البندقية وسترى ماذا أفعل ·

بعد ان انصرف هذا الزبون المتحمس استفسرت عنه ابراهيم ، فأخبرني أنه سبق وان حمل السلاح أيام الحرب الأهلية الطائفية التي أثارتها أثيوبيا بين الشعب الأرتري ٠

الأيام الأربعة التي قضيتها بهذه المدينة أكدت لي بأن صديقي تسفاي ليس هو الوحيد المدرك لخطورة الموقف كما أنه ليس الوحيد الذي لديه الاستعداد للمقاومة ٠ بل هنا أيضا وجدت الكثيرين الذين اتفق تحليلهم للموقف ونظرتهم للاوضاع بنفس رؤيا صديقي تسفاي ، كما أنهم لا يقلون عنه استعدادا للقيام بكل ما من شأنه ايقاف الخطر الزاحف ٠

في اليوم الأخير لمغادرتي للمدينة زارني اثنان من هؤلاء الأصدقاء الذين تعرفت بهم ، وقالا : قبل رحيلك عنا نود أن تشاهد على الطبيعة انجازا عظيما حققته الفيدرالية والتي طالما استفسرت عن انجازاتها كثيرا ، فهلا رافقتنا ؟ ، وبدون تردد وافقت على الفكرة وسرنا سويا الى أطراف المدينة حتى وصلنا الى مبنى ضخم تحيط به مجموعة مبان صغيرة ٠ وهنا خاطبني أحد الأصدقاء قائلا : الآن ستتفرج على بقايا مصنع ، فقد كان هنا مصنع الأزرار الذي كان يستوعب الآلاف من العمال والعاملات ٠ وهذا المكان الذي تراه مهجورا كان يعج بالحركة والضوضاء من أصوات آلات المصنع وعربات النقل وأصحاب المقاهي والمطاعم الذين يقدمون للعمال والموظفين بالمصنع طلباتهم من أكل وشرب ٠ أيضا ان هذا المصنع وغيره كانوا من أسباب انعاش المدينة ٠ ولكن ما ان حلت ببلادنا هذه اللعنة المسماة بالفدرالية حتى باشرت باغلاق المصانع واسكات صوت الآلات وتشريد العاملين ٠ والآن فلندخل لتشاهد كل شيء بعينك ٠

دخلت الى المبنى الضخم وهناك شاهدت آلات ضخمة متوقفة وكأنها جثث هامدة قد فقدت الحياة ، وآلات أخرى صغيرة في المباني المجاورة

أيضا متوقفة ، وبعضها قد بدأ يعلوه الصدأ • وكان منظرا بشعا يبعث الغضب في نفس كل من يشاهده • حقا ان هذا المصنع الضخم كان يستوعب آلاف العمال والعاملات ، ولكن وبعد أن أغلق هذا المصنع ماذا حل بهذه الآلاف من الأسر التي كانت تعيش منه • وهنا سمعت مرافقي يقول : « يجب ألا تبهرك هذه الآلات الضخمة والصغيرة الكثيرة فهذا هو نصف المصنع • أما النصف الآخر فقد تم ترحيله • وبين حين وآخر تجيء سيارات ضخمة وتحمل جزء من هذه الآلات • أيضا ليس هذا هو المصنع الوحيد فهناك مصانع أخرى مماثلة له قد أغلقت بأوامر من الحكومة الأثيوبية التي طلبت أن تنقل الى أديس أبابا أو تغلق أبوابها نهائيا وترحل • أما بقاؤها في أرتريا فغير مسموح به ، هذه هي الانجازات التي حققتها الفدرالية • وهذه هي منجزات أثيوبيا في عصرها الذهبي » •

ورسم على شفتيه ابتسامة مريرة ، كانت كافية لتفسير معنى كلامه •

ان منظر هذا المصنع لم يفارق مخيلتي • وكان منظره أبلغ من أي حديث أو خطاب عن جرائم أثيوبيا التي بدأت تنتقم من أرتريا التي سبقتها في مجاراة العصر ومتطلباته • وأبت الا أن تعود بها القهقرى الى العصر الحجري • وكانت حربها على المصانع وعلى التعليم وعلى حرية الرأي • وبالفعل قد نجح المخطط الأثيوبي ولكن الى حين •

غادرت مدينة أغوردات في طريق عودتي الى السودان بالسيارة • ولكن الذي لفت نظري هو ، كلما توقفت بنا السيارة في احدى المحطات كانت مجموعة من رجال البوليس يصعدون اليها ثم يتفرسون في وجوه الركاب واحدا واحدا • وأحيانا يطلبون من أحد الركاب النزول ومرافقتهم الى نقطة البوليس وبعد مدة يعودون به الى السيارة • وخلال الرحلة التي استغرقت ساعات الى مدينة تسنى هناك أربع من الركاب لم يعودوا الى السيارة بعد أن أنزلهم رجال البوليس ولا أدري ماذا حل بهم وماذا كانت جريمتهم • ولكن هذا كان مؤشرا بأن الأوضاع ليست كما كنت أتصور من الهدوء ، بل تأكدت بأن هناك أشياء لم أتوصل لمعرفتها بعد •

عدت الى السودان وفي جوانحي احساس بالمرارة والانقباض لما سمعت وشاهدت والمستقبل المظلم الذي ينتظر أرتريا ما لم تحدث معجزة لايقاف الزحف الأثيوبي الهادف الى ابتلاعها • وفي جانب آخر كنت أحس بنوع من النشوة لأنني نفذت برنامج الاجازة بنجاح كما خططت له ، وتعلمت أشياء كان من الضروري معرفتها والالمام بها •

كان زملائي بالعمل يستفسرون مني كيف قضيت الاجازة ، خاصة وان أسمرا في نظر الكثيرين منهم لا تتعدى الليالي الحمراء وحانات الشرب وذوات الحسن والجمال ، وكنت محرجا من هذه الأسئلة التي يوجهونها ببراءة ودون قصد الاساءة لي ، فهم أيضا يحكون عن مغامراتهم واجازاتهم بالقاهرة وأسمرا وبيروت وأوروبا بعد اضافة التوابل والبهارات اليها بحيث تكون مشوقة • لهذا اكتفيت أن أقول لهم « أنني شاهدت روائع الطبيعة الخلابة •• والجبال الخضراء •• والطقس الربيعي الدائم في مرتفعات أرتريا وبالذات في أسمرا •• وأرتريا التي أتوقع لها أن تكون سويسرا افريقيا اذا ما أصبح مصيرها بيد أبنائها وجنبت شرور الفدرالية » • كنت أحكي على هذا النمط الا أن حديثي لم يجد صدى كبيرا في النفوس لأنه جاء خاليا من أشياء لها صدى أعمق في نفوسهم •

بعد ذلك بدأت بكتابة تقرير وتحليل لكل المشاهدات والمعلومات التي جمعتها أثناء الرحلة • لمن هذا التقرير والتحليل ؟ كنت أكتب التقرير والتحليل لنفسي حتى أستخلص النتائج النهائية لما يجب أن يكون • وكانت جملة النتائج التي خرجت بها على النحو التالي :

ـ « أرتريا وقعت فريسة تآمر دولي واثيوبي ومحلي وأخذت طريقا غير طريقها الطبيعي وهو الاستقلال ـ الفدرالية كما وصفها صديقي تسفاي

هي مرحلة انتقالية تنتهي باحتلال أثيوبيا لأرتريا وابتلاعها بكاملها ـ هناك ثورة مكبوتة في نفوس الجماهير ، واذا وجدت من يشعل الفتيل فان هناك بركانا سينفجر ويكتسح الأثيوبيين وعملاءهم ـ أين ذهبت القوى السياسية التي كانت تنادي بالاستقلال في فترة تقرير المصير ؟ ما العمل ومن أين نبدأ ؟

كان هذا هو ملخص التقرير الذي أعددته لنفسي ونتائج تحليله التي استخلصتها ، وكانت النقاط الثلاث الأخيرة هي مثار اهتمامي والتي آليت على نفسي بمتابعتها ٠

ان المشكلة التي واجهتني هي الافتقار للوثائق التي كنت أبحث عنها ، ووثيقتي الدستور الأرتري والقرار الفدرالي لم تكونا كافيتين للاجابة على العديد من الأسئلة ، وعليه فقد لجأت للدراسة (الميدانية) ٠ وكان أسلوبي هو الجلوس مع كل من الأرتريين الذين تعرفت بهم ثم الاستفسار منه عن منطقته في أرتريا ثم أقوم بتسجيل المعلومات التي أجدها عنده سواء كانت تاريخية أو اقتصادية ، وبهذا الأسلوب تمكنت من القيام بعملية مسح لمعظم أجزاء أرتريا دون أن أراها ٠ ورغم بدائية هذا الأسلوب وافتقاره للدقة الا أنه قادني لبعض النتائج الهامة وهي ان أرتريا تستطيع الاعتماد على نفسها اقتصاديا وذلك عكس المبررات التي سيقت لاقامة نظام فدرالي بينها وبين أثيوبيا ٠ كما أن المناقشات الواسعة التي أجريتها مع الكثيرين من الأرتريين أكدت لي أن الأرضية ممهدة لعمل وطني وان كل من ناقشته كان يعبر عن الريبة وعدم الاطمئنان للنوايا الأثيوبية ٠

أخيرا توصلت لأهمية خلق تنظيم يدعو لاستقلال أرتريا ، وقد درست الفكرة من شتى النواحي وتأكدت من امكانية تحقيقها ٠٠ وعندئذ شعرت بنشوة وراحة نفسية وكأنني حققت كل طموحاتي في طرد الأثيوبيين خارج أرتريا ، الا أن هناك حوارا مستمرا كان يدور بيني وبين نفسي يوميا :

ـ ما الذي يدفعك الى هذه المغامرات والمتاعب ، وما الذي ينقصك ؟

فأنت تحتل وظيفة مرموقة يتمناها الكثيرون ، ولديك زوجة وطفلين وان دخلك الشهري من الوظيفة يؤمن لك حياة هانئة كما ان المستقبل أمامك باسم ٠

ـ ان ما ينقصني هو أكبر بكثير من كل هذه الأشياء ٠ ينقصني وطن متحرر ، ومهما توفر لدي من أسباب الراحة والهناء في حياتي الشخصية الا أنني أظل بعيدا عن السعادة الحقيقية كلما تذكرت بأن وطني يحتله الأثيوبيون ويذيقون شعبي ألوانا من العذاب ٠

ـ ان هذا الطريق الذي تود أن تسلكه طريق شائك ٠ فقد تتعرض للتشريد ، وستذوق أسرتك الجوع والفقر وبعد كل ذلك قد تتعرض للفشل في الوصول لهدفك ٠

ـ انني أعرف أنه بالفعل طريق شائك وقد تحدث كل تلك الاحتمالات ، ولكن هذا أقل ما يمكن تقديمه من تضحية في سبيل حرية الأوطان ٠ أما اذا فشلت في الوصول لهدفي فان هناك آخرون سيحملون الراية من بعدي ٠

ـ قد يصل الأمر الى أسوأ من ذلك ، فقد تموت وتفقد حياتك ٠

ـ أيضا هذا لا يهم ، فأنا لست خالدا وسأموت في يوم من الأيام ، وخير لي أن أموت في سبيل قضية مقدسة هي حرية بلادي ، وكثيرون ممن رفعوا راية الحرية لبلادهم قد قدموا حياتهم قربانا لهذه الغاية ٠ وفي النهاية تحققت أهدافهم بعد غيابهم ، الا أن شجرة الحرية التي غرسوها لم تمت بل ظلتا ترتوي بدماء الشهداء وتنمو ٠

كان هذا النوع من الحوار يدور في أعماقي بشكل مستمر ، كما أن فكرة تكوين التنظيم اختمرت في ذهني بكل أبعادها ٠ وفي هذه الفترة

حدث تغيير ملحوظ في،فقد انعزلت عن مجالس الأصدقاء وامتنعت من الذهاب للنادي الذي كنت عضوا به • والبعض من الأصدقاء الذين افتقدوني كانوا يأتون لمنزلي للاستفسار عن صحتي وأسباب غيابي • كما أن زوجتي أيضا كنت ألاحظ الكثير من التساؤلات في نظراتها ولو ان الحياء كان يمنعها من توجيه الأسئلة • أما أنا فكنت منغمسا في القراءة والكتابة • فقد بدأت في التهام الكتب الثورية كما كنت أقوم بتسجيل ملاحظاتي حول التنظيم المزمع اقامته •

أخيرا توصلت الى قرار نهائي وهو ان وقت التأمل والدراسة يجب تجاوزه للعمل ، فقد حان وقت العمل ، ولكن من أين نبدأ ؟ يجب أن نبدأ من أسمرا • وقررت السفر الى أسمرا ومقابلة الصديق تسفاي وأن تكون البداية من هناك • والمشكلة التي واجهتني هي أنني عدت للتو من اجازتي السنوية • ولذا فقد افتعلت المرض فسمح لي بأسبوعين كاجازة مرضية • أما زوجتي فقد أقنعتها بأنني سأتغيب لأيام في مهمة خاصة بعملي المعيشي ، وفي الحال شددت الرحال الى أسمرا جوا لاختصار الوقت • وكانت هذه هي المرة الأولى التي أستقل فيها الطائرة • وطوال الرحلة التي استغرقت ساعات قلائل كنت أفكر كيف ستكون عودتي السريعة لأسمرا مفاجأة سعيدة لتسفاي ، كما كنت أفكر في الأسلوب الذي سأشرح به فكرتي في انشاء التنظيم وكيف سيجد هذا قبولا وترحابا لدى تسفاي وأصدقائه • كنت أحس بأنني المنقذ القادم لأسمرا والذي يحمل في جيبه « مفتاح الفرج » لأرتريا ولكل مشاكلها • وكنت أقول في نفسي : لو كان الأثيوبيون يدركون مهمتي الحطيرة لما ترددوا في اصطيادي في سلم الطائرة وقبل أن أهبط لأرض المطار ، ولكن أنى لهم أن يدركوا ، فقد اعتادوا على استقبال السواح وطلاب المتعة في بارات أسمرا وحاناتها ، وهؤلاء يرحبون بقدومهم كل الترحيب ، وستمضي سنوات قبل أن يكتشفوا حقيقتي ، ولكنهم وعندما تزلزل الأرض تحت أقدامهم بواسطة تنظيمي المزمع اقامته ، يومها سيندمون على عدم اكتشافي وسط هؤلاء الركاب •

كانت الطائرة تسبح في الجو ، وكنت أنظر للارض من خلف النافذة الزجاجية ، وقد استهوتني المناظر الخلابة من الجبال الخضراء والأودية العميقة والسهول ٠ وبدأت أردد في نفسي : انني لم أكن مبالغا عندما قلت لزملائي بالعمل ان ارتريا من المتوقع أن تصبح سويسرا في افريقيا، وكان هذا عندما شاهدتها أثناء سفري بالبر ، والآن أكتشف من الجو بأنها بالفعل سويسرا افريقيا ، قد أحببتها قبل أن أراها ٠٠ وازداد حبي لها عندما رأيتها أثناء سفري بالبر ٠٠٠ أما وقد استكملت صورتها بمشاهدتي لها من الجو فان حبي لها وصل الى حالة العشق والهيام ، محبوبتي أرتريا ٠٠ بلادي الجميلة هذه يريد الأثيوبيون أن يحرموني منها ٠٠

هنا ودون أن أتنبه لمن حولي رفعت يدي وأديت القسم التالي : « بربي وبكل المقدسات وبشرفي سوف أحاربهم حتى النهاية ، ولكن لا يمكن أن أترك لهم بلادي الجميلة ليدنسوها » وعندما انتهيت من اداء هذا القسم والتفت وجدت المضيفة الجميلة تنظر الي والدهشة بادية في عينيها ، فقد كنت مثار اهتمامها واهتمام عدد من الركاب منذ بداية الرحلة ٠٠ فقبل اقلاع الطائرة كانت قد مرت بجانبي ونبهتني لربط الحزام ، وبما أنها كانت المرة الأولى التي أستقل فيها الطائرة لم أفهم قصدها وظننت أنها تتحدث مع شخص آخر ، ولكنها عادت ثانية وطلبت مني ربط الحزام ، وفي هذه المرة تأكدت أنها تتحدث الي وقد ظننتها تتهكم علي ، وأصبت بحالة غضب ووقفت أخاطبها قائلا : ألا تنظرين أنني لا ألبس حزاما ، ولنفرض أنني ألبس حزاما فما دخلك سواء كان محلولا أو مربوطا ؟ عندها انفجرت المضيفة ضاحكة بصوت عال ، ولولا تدخل الراكب الجالس بجانبي وقيامه بشرح الأمر وتوضيح الفرق بين حزام البنطلون وحزام النجاة لحدثت مشكلة ، وعندما علمت بالأمر انفجرت ضاحكا من أعماقي فشاركتني المضيفة وعدد من الركاب في هذه النكتة غير المقصودة والتي جعلت مني مثار اهتمامهم طوال الرحلة ٠

وصلت بنا الطائرة لمطار أسمرا الدولي ، وبدأ الركاب يتدافعون

للخروج ، وكنت أنظر اليهم وأقول : يا ترى لماذا يسرعون ؟ وماذا يدور في خلدهم وبماذا كانوا يفكرون طوال الرحلة عندما كنا معلقين في الفضاء ؟ لا أعتقد أن لأي منهم مهمة مشابهة للتي أحضرتني لأسمرا » ٠ وبوصولي الى الفندق لم أشأ أن أضيع وقتا ، فأخذت سيارة وتوجهت الى مكان عمل الصديق تسفاي ٠

بدخولي للمبنى وجدت شخصا جالسا بالباب فاستفسرته عن تسفاي الذي أود مقابلته ، فنظر الي مليا وطلب مني الانتظار ثم تحرك مسرعا باتجاه أحد المكاتب ، وفي نفس اللحظة شاهدت أحد الموظفين يشير لي بيده ان انصرف بسرعة ، ولم أفهم ما يجري الا اني غادرت المبنى وانصرفت مسرعا ، وعلى بعد خطوات توقفت سيارة بجانبي فاذا بنفس الموظف الذي أشار لي بالابتعاد يفتح باب سيارته ويطلب مني الصعود ، وانطلق بأقصى سرعته دون أن يتحدث معي ٠ وعندما كاد أن يتجاوز الفندق الذي أنزل به طلبت منه أن يتوقف ، فأخذني الى طريق جانبي وأوقف محرك السيارة قائلا : « كان المفروض في هذه اللحظة أن تكون معتقلا ، فتسفاي الذي تسأل عنه تم اعتقاله قبل أيام ، وكل من يسأل أو يستفسر عنه أيضا يتم اعتقاله بواسطة المخابرات الأثيوبية ٠ والشخص الذي سألته عن تسفاي مكلف لاصطياد كل من يسأل عنه ، وعندما طلب منك الانتظار ذهب لاحضار رئيسه الذي يعسكر بأحد مكاتبنا ويقوم بمهمة الاعتقال ٠ ومن الواضح أنك وافد جديد على هذه المدينة ، ولذا أنصحك بمغادرتها في الحال والا تعرضت لمتاعب » ٠

ـ انني لست خائفا ولو أدى الأمر لاعتقالي ، فأخبرني عن أسباب اعتقال تسفاي وما هي جريمته ؟

ـ اسمع يا أخي ، انني لم أتحدث عن الشجاعة والجبن ، ولكني أنصحك بمغادرة هذه المدينة والا عرضت نفسك لمتاعب دون مبرر ، فتأكد أنهم في هذه اللحظة يبحثون عنك ، أما تسفاي فلم يرتكب جرما ولكنه معتقل بتهمة سياسية ، واذا كان يهمك أمره فاطمئن فهو بخير ،

والآن دعني أنصرف والا عرضت نفسي لمتاعب • ولعلمك فانني لست جبانا ولكن ليس من الخكمة أو الشجاعة أن أرمي بنفسي في أيـدي المخابرات الأثيوبية ، واعذرني أن أقول لك وداعا مع نصيحتي لـك بمغادرة أسمرا في الحال •

ـ اذا رأيت تسفاي بلغه تحياتي فاسمي صالح •

ودون أن يرد حرك سيارته وانطلق بسرعة وتركني واقفـا • بدأت بالسير باتجاه الفندق والأفكار تتضارب في رأسي دون تركيز ، فالصدمة التي واجهتني ولم يطل بقائي بأسمرا سوى ساعتين لم أتوقعها ولم تكن في الحسبان • دخلت لغرفتي وجلست أفكر بهدوء فيما جرى وما يتهددني • لم أكن خائفا ولكني كنتّ غاضبا لأن المهمة التي حضرت من أجلها تكاد أن تفشل • وفجأة تذكرت العبارة التي قالها ذلك الصديق الطاريء : « لعلمك فانني لست جبانا ولكن ليس من الحكمة أو الشجاعة أن أرمي بنفسي في أيدي المخابرات الأثيوبية » • وهنا قررت أن آخذ بنصيحته وأترك هذه المدينة •

في الحال تركت الفندق واتجهت الى مدينة كرن مؤملا ان أجد هناك من أقنعه بفكرة اقامة تنظيم • نزلت عند أحد أقاربي بمنزله وتحاشيت النزول بفندق خوفا من أن أقع في يد المخابرات الأثيوبية • والأسباب التي جعلتني أختار مدينة كرن ما كنت أسمعه عن سكانها ومعارضتهم الشديدة للاثيوبيين وتصدرها للانتفاضات والمظاهرات • أيضا كنت أود الاتصال بأحد الزعماء السياسيين الذين تصدروا الحركة الوطنية في فترة تقرير المصير والذي يسكن بهذه المدينة •

ترددت على منزل ذلك الزعيم لثلاثة أيام متتالية ، وفي كل مرة كانوا يخطرونني بأنه غير موجود ، وفي اليوم الرابع وبعد أن يئست من اللقاء به سمحوا لي بدخول منزله • وبعد نصف ساعة من الانتظار جاء الزعيم من حجرة جانبية من داخل المنزل وسلم علي ببرود ، ثم دخل معي في حديث مباشر قائلا :

ـ من أنت وماذا تريد مني ؟ ولماذا تتردد على منزلي يوميا ؟ صعقت لهذا الأسلوب الجاف وغلت الدماء في عروقي وكدت أن أنصرف دون أن أجيبه على أسئلته والتي تعني في مضمونها طردي من منزله ، ولكني تمالكت أعصابي مقدرا المهمة الكبيرة التي تكبدت من أجلها المشاق • وأجبته :

ـ على الاطار الشخصي لا أريد منك شيئا ، وحتى لو ذكرت اسمي فأنت لا تعرفني وبالعموم فاسمي صالح ، وهدف زيارتي لمنزلك هو لمناقشة الأوضاع الأرترية معك •

وبكل ازدراء سألني :

ـ من الذي أرسلك لتناقش الأوضاع الأرترية معي ؟

ـ لم يرسلني أحد • فقد جئت من السودان بملء ارادتي لهذه الغاية ، وهدفي هو انقاذ أرتريا •

وهذه المرة ابتسم بسخرية وأخذ نفسا عميقا من سيجارته الثانية وقال :

ـ أنت ؟ تريد انقاذ أرتريا ؟ يا ابني بالطبع ذهبت الى السودان من أجل لقمة العيش ، فعليك بالعودة من حيث أتيت وأن تواصل حياتك هناك • أما السياسة فاتركوها لأهلها ، ونحن نعرف كيف نعالج الموقف مع أثيوبيا • ثم انني أنصحك بمغادرة هذه المدينة سريعا ، فأنت ترددت على منزلي لأربعة أيام ، كما أن هذا الحائط الحجري الذي نجلس بالقرب منه له آذان تنقل كل ما دار بيننا من حديث • لذا أكرر نصيحتي لك بالاسراع في العودة الى السودان ، هذا اذا لم يتم اعتقالك بمجرد خروجك من هذا المنزل •

هنا رأيت لا جدوى من استمرار الحديث مع هذا الزعيم فاستأذنته للانصراف ، ومن جانبه لم يلح علي للانتظار حتى لشرب كوب شاي •

وبخروجي نظرت اليه فكانت الابتسامة تعلو شفتيه متصورا بأنه أرهبني وأثر في • أما أنا فكنت أحس بحالة من القرف والتقزز لا تسمح لي باستمرار الحديث معه ولهذا تركت منزله مبتعدا •

وفي الطريق كنت أستعرض كل كلمة نطق بها هذا الزعيم حتى توقفت عند عبارة (اتركوا السياسة لأهلها) ، وعندها قلت في نفسي : « كان من المحتم أن تضيع أرتريا عندما تصدر لقيادتها أمثال هؤلاء الذين يتحدثون عن السياسة وأهلها في الوقت الذي يهدد فيه الخطر الشعب الأرتري وهم عاجزون عن فعل أي شيء • وبالرغم من ذلك يعاملون مواطنا مثلي بهذه الغلظة عندما يحاول استشعارهم بهذا الخطر • ان أمثال هؤلاء لن ينقذوا أرتريا بل سيقفون عقبة أمام كل من يحاول انقاذها » •

كنت أحس بحالة من الكآبة • فرحلتي التي علقت عليها آمالا عريضة تصادفني فيها المصاعب والمهمة التي حضرت من أجلها تكاد أن تفشل ، ولذا قررت العودة ثانية الى السودان علني أن أبدأ من هناك بالعمل وسط المغتربين الأرتريين وبعيدا عن عيون المخابرات الأثيوبية التي نشرت الرعب داخل أرتريا •

بعد مضي شهر واحد من عودتي للسودان ، وفي احدى الأمسيات فوجئت بزائر غريب لمنزلي ، شخص لم أعرفه أو أشاهده من قبل ، عندما فتحت له الباب استفسرني اذا كان صالح موجودا ، فأخبرته بأنني صالح ، وفوجئت بالرجل يسلم علي بحرارة وبالعناق ، وقد ذهلت للأمر وخشيت أن يكون الرجل مخطئا • وعندما لاحظ ذلك أخبرني بأنه قادم من آسمرا ومن قبل تسفاي • وهنا بدأت بدوري بمعانقته وطلبت منه الدخول • وقبل أن يستوي في جلسته استفسرته عن أحوال تسفاي وهل خرج من السجن • وفاجأني أكثر عندما أفادني بأن تسفاي ما زال معتقلا الا أنه يحمل رسالة من قبله • وأخرج من جيبه ورقة مطوية عدة طيات ومدها لي قائلا انها رسالة تسفاي ، وبلهفة فضضتها وبدأت في قراءتها :

« عزيزي صالح •• تحياتي ••

تجدني آسفا لعدم استقبالك عند زيارتك الأخيرة لأسمرا ، فقد كنت وما زلت رهن الاعتقال ، وسررت لنجاتك من الاعتقال المحتم لولا شجاعة وحسن تصرف زميلنا الذي نجح في انقاذك من الاعتقال عندما أخذك بعيدا عن المكتب بسيارته • حامل هذه الرسالة من زملائنا الموثوق بهم وسيشرح لك مسائل في غاية الأهمية • صديقك الوفي تسفاي » •

عندما انتهيت من تلاوة الرسالة رفعت رأسي موجها حديثي للزائر :

ـ انني مندهش رغم سروري البالغ باستلام رسالة الصديق تسفاي • فهو ما زال معتقلا ولكنه علم بقدومي لأسمرا كما علم بما جرى لي أثناء زيارة مكتبه ، وفوق كل هذا يوجه لي رسالة مكتوبة !

ـ لا تندهش يا صديقي ، فسيكون الأمر جليا وبسيطا عندما أشرح لك كل شيء ، وهذا هو الهدف من قدومي الى السودان •

ـ جئت الى السودان خصيصا للاتصال بي وشرح الأمر لي بعد أن قطعت كل هذه المسافات الطويلة ؟

ـ وما الغريب في ذلك ؟ ألم يسبق لك زيارة أرتريا مرات للاتصال بتسفاي وأمثاله بعد أن قطعت المسافات الطويلة بل وعرضت نفسك لمتاعب ؟ نفس دوافعك هي دوافعنا وهي التي جعلت تسفاي يدخل السجن وجعلتني أنا أحضر للسودان لمقابلتك •

ـ يظهر أنني أجهل الكثير • وتسفاي يقول في رسالته أنك ستشرح لي أشياء هامة فأرجوك أن تعجل وتدخل في الموضوع مباشرة •

وهنا ضحك الرجل من أعماقه وهو يقول :

ـ تماما كما وصفك لنا تسفاي الذي كان يقول عنك أنك لا تجيد اللف والدوران بل تحاول الوصول مباشرة لغايتك وبأقصر الطرق • لماذا أنت متعجل هكذا ؟ انني أخبرتك بأنني قادم من أسمرا خصيصا لأشرح لك كل شيء ، فهل أنت خائف ألا أفعل ذلك ؟

ـ بالله عليك دعنا ندخل في الموضوع مباشرة فأنا متلهف لأفهم هذا الأمر الهام الذي تحدث عنه تسفاي في رسالته •

ـ هون عليك لا تنفعل ، سأشرح لك الأمر باختصار ووضوح ، ولنبدأ بقصة اعتقال صديقك تسفاي • فقد كان معروفا عنه منذ ان كان طالبا بأنه يتصدر الحركات الطلابية وقاد عددا من المظاهرات والاضرابات ضد الأثيوبيين ، ولذا وضعت المخابرات الأثيوبية اسمه بالقائمة السوداء • ونتيجة لذلك كان يعتقل كلما كانت هناك تظاهرات أو اضرابات حتى اذا لم يساهم فيها • وقد استمر على هذه الحالة بعد ان ترك الدراسة وصار موظفا • أما عن اعتقاله الأخير فليس بسبب المظاهرات أو غيرها • فقبل أن نقوم بتأسيس تنظيمنا كانت الجماهير تقوم بانتفاضات عفوية لأنها كانت تفتقر للقيادة والتنظيم ، وكانت المخابرات الأثيوبية تجدها فرصة سانحة للبطش بالجماهير واصطياد العناصر الوطنية واعتقالها دون عناء البحث عنها • مثالا لذلك ان المصلين ، وفي يوم الجمعة اعتادوا أن يتجمهروا أمام الجوامع بعد اداء صلاة الظهر ، ثم يشرحون جرائم السلطات الأثيوبية الحاكمة في أرتريا• وفي الحال يقترحون عمل برقيات شكوى للسكرتير العام للأمم المتحدة وللامبراطور ، فيتطوع أحدهم بكتابة البرقيات ثم يتلوها على الجمع ، فتقوم أعداد كبيرة منهم بالتوقيع عليها ثم يتبرعون بقيمة سحب البرقيات ، وتتحرك منهم مجموعة لمكتب البريد الذي يستلم منهم البرقيات ويستلم قيمتها ، كل هذا يجري والجواسيس الأثيوبيون يرصدون كل شيء ، وعندما ينصرف المصلون كل الى منزله يأتي دور المخابرات الأثيوبية التي توقف سحب البرقيات وفي الحال تقوم باعتقال كل الموقعين عليها حيث يتعرضون لأبشع أنواع التعذيب • هذا مثل واحد من آلاف الأمثلة للانتفاضات العفوية التي كانت تقوم بها جماهيرنا • ولكن عندما قمنا بتكوين تنظيمنا بدأنا نشرح للجماهير عدم جدوى هذه الأساليب وارسال البرقيات التي لا تغادر مكاتب المخابرات الأثيوبية ، ومن هنا بدأت الأساليب النضالية تأخذ طابعا سريا ، ولاحظت المخابرات الاثيوبية اختفاء ظاهرة التجمهر وارسال البرقيات يوم الجمعة ، وقد أصابها الهلع لأنها لم تدر ماذا يدور في الخفاء • لذا

ـ هون عليك لا تنفعل ، سأشرح لك الأمر باختصار ووضوح ، ولنبدأ بقصة اعتقال صديقك تسفاي • فقد كان معروفا عنه منذ ان كان طالبا بأنه يتصدر الحركات الطلابية وقاد عددا من المظاهرات والاضرابات ضد الأثيوبيين ، ولذا وضعت المخابرات الأثيوبية اسمه بالقائمة السوداء • ونتيجة لذلك كان يعتقل كلما كانت هناك تظاهرات أو اضرابات حتى اذا لم يساهم فيها • وقد استمر على هذه الحالة بعد ان ترك الدراسة وصار موظفا • أما عن اعتقاله الأخير فليس بسبب المظاهرات أو غيرها • فقبل أن نقوم بتأسيس تنظيمنا كانت الجماهير تقوم بانتفاضات عفوية لأنها كانت تفتقر للقيادة والتنظيم ، وكانت المخابرات الأثيوبية تجدها فرصة سانحة للبطش بالجماهير واصطياد العناصر الوطنية واعتقالها دون عناء البحث عنها • مثالا لذلك ان المصلين ، وفي يوم الجمعة اعتادوا أن يتجمهروا أمام الجوامع بعد اداء صلاة الظهر ، ثم يشرحون جرائم السلطات الأثيوبية الحاكمة في أرتريا• وفي الحال يقترحون عمل برقيات شكوى للسكرتير العام للأمم المتحدة وللامبراطور ، فيتطوع أحدهم بكتابة البرقيات ثم يتلوها على الجمع ، فتقوم أعداد كبيرة منهم بالتوقيع عليها ثم يتبرعون بقيمة سحب البرقيات ، وتتحرك منهم مجموعة لمكتب البريد الذي يستلم منهم البرقيات ويستلم قيمتها ، كل هذا يجري والجواسيس الأثيوبيون يرصدون كل شيء ، وعندما ينصرف المصلون كل الى منزله يأتي دور المخابرات الأثيوبية التي توقف سحب البرقيات وفي الحال تقوم باعتقال كل الموقعين عليها حيث يتعرضون لأبشع أنواع التعذيب • هذا مثل واحد من آلاف الأمثلة للانتفاضات العفوية التي كانت تقوم بها جماهيرنا • ولكن عندما قمنا بتكوين تنظيمنا بدأنا نشرح للجماهير عدم جدوى هذه الأساليب وارسال البرقيات التي لا تغادر مكاتب المخابرات الأثيوبية ، ومن هنا بدأت الأساليب النضالية تأخذ طابعا سريا ، ولاحظت المخابرات الاثيوبية اختفاء ظاهرة التجمهر وارسال البرقيات يوم الجمعة ، وقد أصابها الهلع لأنها لم تدر ماذا يدور في الخفاء • لذا

قامت بحملة اعتقالات شملت تسفاي ومعه المئات من العناصر الوطنية التي كانت تشملها القوائم السوداء .

هنا قاطعت الرجل قائلا :

ـ لاحظت أنك تتحدث في أكثر من موضع عن تنظيمكم الذي قمتم بتكوينه ، فهل تتكرم بالحديث عن هذا الأمر ؟

ـ أرجوك لا تقاطعني فهذا ما أريد الحديث عنه الآن ، فقد كنا مجموعات من الشباب ارتبطنا منذ عهد الدراسة ، وتفتحت عيوننا وأذهاننا على واقع أليم وهو وجود أثيوبيا ببلادنا ، ولجأنا للمظاهرات العنيفة والاضرابات كرفض لهذا الواقع . وفي كل مرة كان يتم قمعنا بواسطة السلطات الأثيوبية وعملاؤها من الأرتريين ، وقد مررنا بنفس التجربة من المعاناة التي مررت بها أنت .

وهنا قاطعته ثانيا :

ـ كيف عرفتم بتجربتي التي مررت بها ومعاناتي ؟

ـ أرجوك ألا تقاطعني ثانية حتى لا تقطع تسلسل الحديث،ويمكنك الاستماع للحديث كله ثم توجيه كل أسئلتك بعد ذلك . أما ردي على سؤالك الحالي فاننا كنا نتابع كل تحركاتك وجولاتك في أرتريا واستفساراتك بالحاح عن الفدرالية ، وكانت تصل الينا تقارير من فروعنا التي كنت تلتقي بعض أعضائها والذين كنت توجه لهم الأسئلة، وحتى التحقيقات التي أجريتها مع صديقك تسفاي في زيارتك الأولى لأسمرا نقلها الينا بكاملها ، والمهزلة التي قام بها ازاءك الزعيم الذي زرته بمنزله في زيارتك الأخيرة بكرن قد علمنا بها ، فقد اتخذ من حديثك معه مادة للتندر في مجالسه الخاصة ، وكان يقول : « ان صبيا مغرورا يدعى صالح قادم من السودان سبب لي ازعاجا عندما أصر على مقابلتي ، وكنت أرده يوميا من الباب بحجة أنني غير موجود ، وعندما ضايقني بتردده اليومي سمحت له بالمقابلة ، فاذا به يفاجئني قائلا :

« انني أتيت لانقاذ أرتريا ، وكأنه المهدي المنتظر ، وأعتقد أنه اما مختل العقل أو مرسل من قبل المخابرات الأثيوبية » • وعندما سمعنا بما جرى لك مع هذا الزعيم وعندما اتخذ من حديثك مادة للتندر تألمنا لذلك كثيرا •

ـ اذن كان لكم تنظيمكم منذ زيارتي الأولى لأسمرا وبالرغم من ذلك لم يخطرني تسفاي بهذا الامر ؟

ـ ليس الأمر بهذه البساطة ، فلا تسفاي ولا غيره يستطيع أن يتحدث مع كل من يصادفه لأول مرة عن التنظيم ، ولا تنسى أن طبيعة تنظيمنا سرية ونحن نواجه عدوا شرسا ، وبالرغم من ذلك فان تسفاي قد رشحك لعضوية التنظيم ، وتقرر أن يسافر بنفسه للسودان لمقابلتك لهذا الأمر الا أن اعتقاله حال دون ذلك • وعندما علمنا بزيارتك الاخيرة لأسمرا والمصاعب التي صادفتك تقرر أن أقوم أنا بالمهمة وهذا ما جئت من أجله •

ـ وهل تتكبدون كل هذه المشاق وتسافرون المسافات الطويلة لتقوموا بتجنيد شخص واحد في تنظيمكم ؟

نظر الرجل الي بنفاد صبر قائلا :

ـ بالطبع لا الا أن حالتك خاصة ، والآن أرجوك أن تؤجل استفساراتك عن التفاصيل ودعني أكمل حديثي الذي بترته بأسئلتك المتتالية • قلت لك اننا كنا مجموعة طلاب جمعتنا الزمالة من عهد الدراسة وفي الحياة العملية • ومحور زمالتنا كان رفضنا للاحتلال الأثيوبي ، وتعرض الكثيرون منا للاعتقالات والتعذيب أثناء الدراسة والطرد من العمل بعد أن التحقنا بوظائف • والسبب هو نشاطاتنا ضد الاحتلال الأثيوبي الذي يدعى الفدرالية • وقد رأينا جماهيرنا تقوم بالانتفاضات والمظاهرات ضد الوجود الأثيوبي ودون أن تجد تنظيما

أو قيادة توجهها ، وقد بدأنا ندرس ونحلل الأوضاع ونتبادل وجهات النظر وأخيرا استقر رأينا على تكوين تنظيم سري ثوري يستوعب ويوجه نضالات شعبنا ، وعندها لم نتردد بل شرعنا في تأسيس التنظيم ، وأهداف تنظيمنا تتلخص في الوحدة الوطنية ٠٠ انهاء النظام الفدرالي الذي يربطنا بأثيوبيا والذي تود أثيوبيا من جانبها أيضا انهائه وضم أرتريا اليها ٠٠ اعلان استقلال أرتريا وايجاد الحكم الديمقراطي بعد الاستقلال والذي يحقق أماني وطموحات جماهيرنا القريبة والبعيدة ٠

« بعد تكوينه تمكن تنظيمنا من استيعاب قطاعات كبيرة من الجماهير في الريف والمدينة لأنه ولد في الوقت المناسب وجاء معبرا عما كان يجيش في صدور الجماهير المكبوتة ٠ وبالرغم من ذلك فان المخابرات الأثيوبية للآن لم تتمكن من اكتشاف التنظيم وذلك للأسلوب السري الدقيق الذي نتبعه في عملنا ٠ هذه هي المسائل الهامة التي ذكرها لك صديقك تسفاي في رسالته والتي كلفت بشرحها لك ٠ والآن يمكنك أن توجه ما شئت من الأسئلة ولو أنني أرغب في تأجيل جلستنا للغد ، فقد انتصف الليل وأنا متعب من جراء السفر » ٠

صمت لبرهة من الوقت ثم أجبته :

ـ بالفعل ان الأمر أكبر وأعظم مما كنت أتوقع ويحتاج للتفكير الهادىء ، وأوافقك على تأجيل جلستنا للغد ٠

عندما انصرف الرجل كانت تنتابني أحاسيس متضاربة ، منها الفرح الذي كان يغمرني وكأن معجزة قد حققت كل أحلامي فجأة ٠ أيضا زالت أحاسيس المرارة التي كنت أحس بها لفشل زيارتي الأخيرة لأسمرا ٠ كما أن حالة من الاطمئنان قد غمرتني وشعرت بأنني لست الوحيد الذي يود انقاذ أرتريا بل هناك آخرون يفكرون بنفس المستوى ويمارسون نفس العمل الذي كنت أخطط لممارسته ٠ وقضيت ذلك الليل أتقلب على سريري دون أن أذوق النوم حيث كنت أستعرض

الحديث الذي دار بيني وبين هذا الزائر وأستعرض كل فقرة منه وأقوم بتحليلها والتفكير فيها مليا • وقبل الفجر بقليل داعب النوم أجفاني ، وفي الحال رأيت حلما ، رأيت نفسي وسط جبال أرتريا ومعي مجموعة مسلحة بالأسلحة النارية ، أما أنا فقد كنت أحمل سيفا ، وفجأة ظهر لنا الجيش الأثيوبي ، فتقدمت اليه وتحديت قائده أن يبارزني ، فاصطف جيشه من خلفه واصطفت مجموعتي من خلفي • أما أنا وهو فقد تقدمنا باتجاه بعضنا البعض وكل منا شاهرا سيفه ودخلنا في مبارزة حامية وكل منا يحاول القضاء على الآخر بأسرع ما يمكن • وبعد صراع شديد سقط الضابط الأثيوبي على ظهره وطار السيف من يده • وفي الحال ضغطت برأس سيفي على عنقه فاذا به يستغيث قائلا : (الرحمة) • فقلت له انك لا تستحق الرحمة ولكني لست جبانا لأقتل انسانا مجردا من سلاحه • انهض وخذ سيفك وواصل المبارزة ، ورفعت السيف من عنقه ، فوقف وتناول سيفه واستأنف المبارزة ، وفي تلك المرة وبكل قوة ضربت سيفه الذي طار من يده وأصبح أعزل ، فقام جاريا واحتمى بجذع شجرة كبيرة • وبكل قوتي ضربت بالسيف جذع الشجرة وسقطت الشجرة ثم قفزت ووضعت نصل السيف على بطنه ، فاذا به يستغيث ثانية طالبا الابقاء على حياته مبديا استعداده لتنفيذ كل ما أطلبه منه ، فقلت له : لن أعدك بالابقاء على حياتك الا بعد أن تنفذ ما أطلبه منك » ، وطلبت من مجموعتي أن تخلع ملابسها وأحذيتها • وقلت للضابط قم أنت وجيشك بتنظيف هذه الملابس والأحذية • وفي الحال بدأ ينظف الأحذية والملابس بينما كنت واقفا وسيفي بيدي • وبعد أن أنجزوا عملهم صرخت فيهم : « اغربوا عن وجوهنا فالهزيمة للمعتدي » • وكانت مجموعتي تصفق وتردد من بعدي « الهزيمة للمعتدي » أما الضابط الأثيوبي وجيشه فقد ولوا الادبار هاربين •

عندئذ أيقظتني زوجتي وهي تقول : « ماذا جرى لك ؟ لماذا تصرخ ؟ وأثناء تناول طعام الافطار حكيت الرؤيا لأحد المسنين من أقارب والدي

يدعي تفسير الأحلام قال : « ليتك كنت قتلته ·· على العموم خير ·· فستعمر طويلا حتى ترى أحفاد أحفادك · ولكن اذا تكررت لك مثل هذه الرؤيا ثانية فلا تأخذك الرأفة به ولا تتردد في قتله لأنه عدو » ·

في الموعد المحدد حضر لمنزلي الزائر القادم من أسمرا ، وبدأت بتقديم الاعتذارات قائلا :

ـ بالأمس رغم اننا جلسنا لساعات طويلة سويا الا أنني نسيت أن أسألك عن اسمك · فزيارتك غير المتوقعة ورسالة تسفاي التي حملتها الي جعلت الفرح يطغى علي ونسيت أن أتعرف بك ·

ـ لا عليك ، فاسمي عمر · وكان الواجب أن أقدم نفسي اليك · والآن دعنا نواصل حديثنا الذي بدأناه بالأمس فأمامنا عمل آخر · بالأمس شرحت لك المهمة التي جئت من أجلها ، كما أعطيتك فكرة عامة عن تنظيمنا · وبالطبع منذ الأمس والى الآن تكون قد فكرت في الأمر ودرسته · وان تنظيمنا يرغب في انضمامك اليه · ونود أن نعرف رأيك اذا كنت توافق على ذلك ؟

ـ اذا كنت أوافق ؟ وهل كان لديكم شك في ذلك ؟ انني ولأعوام طويلة كنت أبحث عن وسيلة تمكنني من المساهمة في انقاذ بلادي من الأثيوبيين ·. وهاأنذا أخيرا وجدت ما كنت أسعى اليه · لذا أقبل الانضمام لتنظيمكم ومستعد أن أقوم بتنفيذ كل ما تكلفونني به ولو كان يؤدي لموتي اذا كان ذلك يخدم بلادي ·

ـ هذا ما كنا نتوقعه منك · والآن سنذهب سويا للاجتماع بلجنة تنظيمنا بهذه المدينة لكي أعرفك بهم ·

ـ لجنة تنظيمكم وبهذه المدينة ؟ حقيقة انني ومنذ الأمس أعيش في مفاجآت مستمرة · ولكن كلها مفاجآت سارة ، ولو أنني حزين لأنني

علمت بكل ذلك متأخرا ولم أساهم معكم منذ البداية رغم بحثي ومحاولاتي المستمرة ٠

ـ هون عليك ، لم يفتك شيء ، فالطريق أمامنا ما زال طويلا وشاقا وما زلنا في بداية النضال ٠ وهذه النقطة أرجو أن تضعها في اعتبارك ، فكثيرون اندفعوا معنا في البداية متوهمين بأن عمر معركتنا سوف لا يتعدى شهورا قليلة ، الا أنهم وفي العام الأول من عمر التنظيم بدأت تظهر عليهم آثار التعب والرغبة في الهروب ٠

ـ اطمئن من هذه الناحية فانني مدرك لكل ذلك كما أنني أقسمت وأنا في الجو وليس فوق الأرض بأنني سأحارب حتى النهاية ٠

وحكيت له عن القسم الذي أديته بداخل الطائرة عندما كنت متجها لأسمرا في زيارتي الأخيرة وقصتي مع المضيفة ومسألة الحزام ، فضحك قائلا :

ـ ان الكثير من جولاتك في الأرض أخذنا علما بها ، أما هذه الأخيرة وفي الجو فلم نعرف عنها شيئا ، وهذا يعود الى أن تنظيمنا ما زال صغيرا، ولكن سيأتي يوم يكون فيه تنظيمنا كبيرا بحيث نعلم بكل ما يدور في الأرض وفي الجو ٠ والآن دعنا نذهب للاجتماع فقد حان الموعد ومن تقاليد تنظيمنا عدم التخلف أو التأخير عن الاجتماعات والا سنواجه نقدا ٠

بوصولنا لمكان الاجتماع ، وكان منزلا يتكون من غرفتين وصالة وفناء واسع ، استقبلتنا مجموعة من الشباب كانت تجلس على الكراسي والأسرة ، وقد قاموا بتحيتنا بحرارة ثم قدموا أكواب الشاي للجميع ٠ ومن جانبي كنت مندهشا لأن الكثيرين من هؤلاء الشباب كنت أشاهدهم دوما دون أن تكون لنا معرفة سابقة ٠ واثنان منهم سبق وان تعرفت بهما وأجريت معهما تحقيقات عن أرتريا وكانا آنذاك يجيبان على أسئلتي

دون أن يوضحا لي بأنهما أعضاء في هذا التنظيم • وقد لاحظت أن أحدهم كان يكتب في ورقة موضوعة أمامه • ومن حين لآخر يرفع رأسه وينظر للمجتمعين • وفجأة تحدث قائلا :

ـ الجميع حاضرون والآن دعونا نبدأ اجتماعنا • أما عن أجندة الاجتماع فلا أعرفها لأن الزميل عمر هو الذي دعى لهذا الاجتماع دون أن يحدد لنا أجندته •

وهنا نظر عمر للجميع وسكت برهة من الوقت ثم بدأ يتحدث :

ـ نعم ، فقد دعوت لهذا الاجتماع دون أن أخطر سكرتير اللجنة بالأجندة ، وأردت أن أفاجئكم بما لم تتوقعونه • أردت أن أعرفكم وأقدم لكم زميلنا صالح من مؤسسي تنظيمنا ، وهو من العناصر الوطنية التي تتمتع بوعي وباخلاص وباستعداد للتضحية في سبيل القضية • وسيعمل الزميل صالح معكم باللجنة وانني واثق بأنه سيساهم مساهمة فعالة في تقوية التنظيم بهذا الفرع •

بعده بدأ سكرتير اللجنة بالحديث :

ـ باسم لجنتنا أرحب بالزميل صالح وان وجوده بيننا يؤكد لنا بأن تنظيمنا يتسع ويتطور بانضمام خيرة أبناء أرتريا اليه • أما المفاجأة التي تحدثت عنها يا زميل عمر فأنا شخصيا فوجئت بما قلته عن الزميل صالح والذي شاهدته مرارا بهذه المدينة ولم يدر بخلدي أن له أي علاقة بأرتريا دعك عما ذكرت بأنه من مؤسسي تنظيمنا •

بعده تحدث أحد الشخصين اللذين أجريت معهما تحقيقا قائلا :

ـ لي قصة مع الزميل صالح ، ففي أحد الأيام تعرف بي ثم طلب مني أن نجلس سويا لتبادل بعض الأحاديث الهامة ، ومن ثم بدأ يمطرني بأسئلة عن أرتريا وتاريخها واقتصادها وعادات سكانها • ويومها كنت مندهشا لأنه لم تكن بيننا علاقة وطيدة فكيف سمح لنفسه أن يستجوبني

بهذه الطريقة ٠

وهنا تحدث الشخص الآخر الذي كان حاضرا والذي أجريت معه حديثا قائلا : « لست وحدك الذي تعرض لهذه التجربة مع الزميل صالح ، فأنا أيضا مررت بهذه التجربة معه" ٠

وهنا ضج الحاضرون بالضحك ٠ فعلق الزميل عمر قائلا :

ـ لا تندهشوا ، فان زميلكم صالح قد تخصص في هذا النوع من التحقيقات ليس في مدينتكم هذه بل وفي مدن كثيرة من أرتريا ٠ وبعض هذه التحقيقات كاد أن يؤدي به لمشاكل عصيبة وبعضها سبب له الاحراجات ، فلا تلومونه فانه كان يبحث عن الحقائق في أرتريا ، كما أنه كان يبحث عن حقيقة الفدرالية ، ولكثرة استفساراته عنها في كل مكان وكل مجلس أطلقنا عليه في أسمرا اسم « صالح فدرالية » ٠

وفي هذه المرة أيضا ضحك الحاضرون فشاركتهم في الضحك من أعماقي لأنها كانت المرة الأولى التي أسمع فيها عن اسمي الجديد ٠

بعد ذلك واصل المجتمعون كلمات الترحيب التي أخجلت تواضعي ، وكنت ألاحظ بأن كل من كان يريد التحدث يرفع اصبعه ، فرفعت اصبعي طالبا الحديث لكي أنهي كلمات الترحيب والمجاملة فسمح لي بالحديث فبدأت أقول :

ـ أشكر الزميل عمر كما أشكركم جميعا على ترحيبكم بي ٠ وسوف أبذل قصارى جهدي لأكون عند حسن ظن الجميع ، انني نذرت نفسي لقضية واحدة وهي تحرير الوطن ، فنحن والأثيوبيون في سباق ، فهم يودون انهاء الفدرالية وضم أرتريا ونحن نود انهاء الفدرالية واعلان استقلال أرتريا ٠ ومن هنا فان عامل الوقت في القضية هام ويحتاج منا الاسراع والتفاني حتى لا يسبقنا الأثيوبيون ٠

انفض الاجتماع فطلب مني الزميل عمر أن يرافقني لمنزلي لأن هناك اجتماعا خاصا بيننا • وبوصولنا للمنزل سألته :

ـ لقد قدمتني للاجتماع بأنني من مؤسسي تنظيمكم ، وهذه ليست حقيقة ، فهل تصل المجاملات بكم لتنسبوا لأشخاص شرفا لا يستحقونه ؟

ـ لا تغضب ، فقد كنت أتوقع منك هذا السؤال • فنحن بالفعل نعتبرك من مؤسسي التنظيم لا تشريفا ولكن عن جدارة • هل تذكر مقابلتك الأولى مع تسفاي في هذه المدينة عندما حضر ضمن فريقه الرياضي ، ان المناقشات التي أجريتها معه وكتاب الأم الذي أهديته له ، كل ذلك أوحى لنا بفكرة تكوين التنظيم السري ، ولذا اعتبرناك من مؤسسي التنظيم ، علما بأننا تأكدنا بأنه ما لم يتم ضمك لتنظيمنا فانك كنت في طريقك لتأسيس تنظيم آخر • أرجو أن تكون قد اقتنعت • ولعلمك فاننا لا نجامل في الحقائق سواء كانت لنا أو علينا •

وبعد أن تناولنا طعام الغداء وشربنا الشاي تنحنح الزميل عمر قائلا :

ـ الآن حان وقت تدشينك رسميا للتنظيم •

ـ ألم أصبح عضوا بالتنظيم وأنت الذي كنت تحاول اقناعي قبل قليل بأنني من مؤسسيه ؟

ـ بالفعل أنت من مؤسسيه وقد أصبحت من أعضائه الا أن هناك اجراءات لا بد منها ، فعليك بتأدية القسم أولا ثم دراسة لائحة التنظيم •

وأخرج من جيبه مصحفا صغيرا وطلب مني أن أضع يدي فوق المصحف وأن أردد من ورائه القسم الذي سيؤديه ، ففعلت مثل ما أمرني به • فبدأ يقسم وأنا أكرر : « أقسم بالله العظيم ان أعمل مخلصا لقضية أرتريا وأن لا أبوح بأسرار هذا التنظيم وان أجعل مصلحة الوطن فوق

مصلحتي الشخصية والله على ما أقول شهيد »

عندما انتهى من القسم بدأ يتلو لائحة التنظيم ويشرحها لي شرحا تفصيليا • وعندما انتهى من الشرح أبدى استعداده للرد على أي استفسارات وتوضيح أي نقطة في اللائحة أتمكن من استيعابها • فأجبته :

ـ كل شيء واضح بالنسبة لي الا أن اللائحة تذكر بأن طبيعة التنظيم « سري ثوري » • والسرية واضحة الا أنني أطلب توضيحا لكلمة ثوري •

ـ ان تنظيمنا ونتيجة لمعرفته بطبيعة الحكم الأثيوبي التوسعي سوف لا يترك أرتريا ما لم نجبره على ذلك بالقوة • ولذا فاننا وفي هذه المرحلة نعد أنفسنا لتعبئة الجماهير وتنظيمها استعدادا للقيام بثورة مسلحة • فعالم اليوم لم يعد يؤمن بالعدل والقانون • وحتى منظمة الأمم المتحدة والمفترض فيها حماية الشعوب وحقوق الانسان حسب اعلانها فهي التي حرمتنا من حقنا في الاستقلال الوطني وربطتنا بأثيوبيا بما يسمى بالفدرالية • ولم نضع كلمة ثوري في طبيعة تنظيمنا الا بعد ادراكنا لكل ذلك وسيأتي اليوم الذي يتحول فيه نشاطنا السري الحالي الى ثورة عارمة يسمع بها الأعداء والأصدقاء على السواء ، والآن هل لديك مزيدا من الاستفسارات ؟

ـ ليست لدي أية استفسارات أخرى •

ـ اذن أعتقد بأن مهمتي قد شارفت على نهايتها ، وسوف أغادر غدا الى أسمرا • ومنذ الآن ستباشر نشاطاتك ضمن لجنة الفرع • ويسرنا اذا كانت لديك ملاحظات أو مقترحات أن ترسلها لنا عبر هذه اللجنة وستجد من جانبنا كل الاهتمام •

ـ هناك سؤال فرعي وجهته لك بالأمس ولم تجب عليه ، كيف تمكن تسفاي وهو في معتقله من معرفة قدومي لأسمرا وكيف كتب لي هذه الرسالة التي حملتها الي ؟

ـ ان الشخص الذي أنقذك من الاعتقال وحملك بسيارته هو من أعضاء تنظيمنا ، وقد أبلغنا بالأمر ، كما أن هناك عددا من حراس السجن أعضاء بالتنظيم وهم يمثلون حلقة الاتصال بين المعتقلين من زملائنا وبين التنظيم • وبهذه الوسيلة عرف تسفاي وبنفس الوسيلة كتب لك الرسالة •

ـ شكرا لك وللصديق تسفاي ولقيادة تنظيمنا على الجهد الذي بذلتموه نحوي حتى جعلتموني أمسك بالطريق الذي كنت أبحث عنه طويلا ، وأرجو أن أكون عند حسن ظنكم • وأوصيكم أن تتجاوزوا مرحلة السرية الى مرحلة الثورة عاجلا لأننا كما ذكرت في سباق مع العدو •

ـ لا نستحق ما نشكر عليه • أما عن توصيتك فكل شيء مرهون بوقته وبظروفه • ونحن أيضا حريصون للاسراع بطرد المحتلين من بلادنا ، والآن أقول لك وداعا •

عندما يؤمن الانسان بهدف ما ويتخذ قرارا نهائيا بالوصول اليه فعندها يصبح المستحيل سهل المنال ، وتسهل المصاعب ، ولا ترى العين الا الجوانب المشرقة ، أما المشقات والسلبيات التي تظهر من حين لآخر فلا يتوقف عندها طويلا ولا يطيل التفكير فيها •

هكذا كان حالي يوم بدأت مسيرتي في طريق النضال وأصبحت عضوا في تنظيم • لم أبحث عن الجزئيات والتفاصيل . كان أمامي عدو واضح يتمثل في المحتلين الأثيوبيين . وهدف واضح هو تحرير بلادي واعلان استقلالها ، وحلم واحد لم يغب عن مخيلتي للحظة وهو يوم النصر •• وكنت أرسم عديدا من الصور ليوم النصر عندما ترتفع

الرايات ، وتدق الطبول ، وتزغرد النساء ، وتغني الصبايا ، وابطال التحرير يسيرون في موكب واحد رافعين هاماتهم زهوا وافتخارا بما حققوه لشعبهم ، وعندها كنت أشعر بنشوة عارمة ممنيا نفسي بأنني حتما سأكون واحدا من ابطال التحرير ، وعندما أصل لهذه الصورة كان يخاطبني هاجس في أعماقي قائلا : « ربما يكون نصيبك الاستشهاد في منتصف الطريق ولن تحضر يوم النصر » • عندها كنت أشعر بالانقباض وأضيف ليوم التحرير واحتفاله مشهدا آخرا يتمثل في موكب ابطال التحرير ومن خلفه الجماهير الغفيرة يواصلون طريقهم حتى مقابر الشهداء التي يضعون عليها أكاليل الزهور ويطلقون أعيرة نارية ثم يتحدثون للجماهير المحتشدة عن مآثر الشهداء وبطولاتهم وتضحياتهم التي حققت النصر •

عندئذ كنت أحس براحة نفسية • وكنت أردد في أعماقي : « سواء كنت سائرا في موكب ابطال التحرير أو كنت راقدا في القبر بين الشهداء فقد تحقق الهدف ونالت بلادي استقلالها بعد أن طرد المحتل الأجنبي وهذا ما كنت أحلم به ، اذن المهم هو الوصول الى يوم النصر بأي ثمن وبأقصر الطرق » •

منذ التحاقي بالتنظيم أصبحت كالناسك المتعبد الذي هجر الدنيا وهمومها وملذاتها وأصبح قلبه متعلقا بربه ، فقد تجمعت كل اهتماماتي وطموحاتي الشخصية وانصبت في بوتقة واحدة هي قضية بلادي • كنت أحضر الاجتماعات التنظيمية ••• ثم أتجول في مناطق تجمعات الأرتريين في المقاهي والأحياء وأستغل حلقات النقاش التي أفتتحها مستهدفا تجنيد العناصر المؤهلة للتنظيم ، وكل مجلس أحضره سواء كان في المآتم أو الأفراح كنت أحاول أن أشحن الحاضرين فيه بكراهية الاستعمار الأثيوبي متفننا في ذكر جرائمه التي رأيتها أو سمعت عنها•• وفي الوقت ذاته أقوم بالتبشير للمستقبل الزاهر الذي ينتظر أرتريا عند انتصارها القريب • وكنت أرسم للمستمعين صورة زاهية عن أرتريا المستقبل بصناعاتها ومزارعها وعمرانها وازدهارها وانسانها المتعلم المتحضر المستقر • ومن كثرة ترديدي لهذا الحديث ولمرات عدة يوميا بدأت أتأثر بعاطفتي الكراهية والحب ، فعند حديثي عن الاستعمار الأثيوبي كانت الدماء تغلي في عروقي وأثور ويعلو صوتي ويحتد • أما عندما كان الحديث يدور عن أرتريا المستقبل كنت أذوب رقة وعذوبة وكأنما يدور الحديث عن محبوبتي التي خلبت لبي واستولت على كل مشاعري بحيث لا أرى فيها سوى الحسن والجمال وجلائل الخصال والمفاتن والمباهج وكلما تصبو النفوس اليه •

تلك الفترة ، أي فترة البدايات الأولى للنضال،كانت تتميز

بخصائص بارزة ، فقد كان أعضاء التنظيم يمثلون مجتمعا مترابطا متجانسا تسوده المحبة والوئام والتفاؤل ، فالجميع واثقون من النصر ومستعدون للتسابق نحو التضحية ·· لم تكن في قاموسهم كلمة الأخذ ولكنهم كانوا يعرفون العطاء والمزيد من العطاء حتى يتحقق الهدف · كانت صفاتنا نكران الذات والايثار والاستهانة بالمخاطر والمصاعب ، والصدق مع النفس ومع الآخرين ، هي الصفات المشتركة بين الأغلبية الساحقة ·

من جانبي تأثرت بهذا المناخ ، فقراءاتي كانت حول سير الأبطال وأصحاب الرسالات السامية الذين قادوا شعوبهم والبشرية للنصر · كما ركزت بصفة خاصة في الاكثار من قراءة الكتب التاريخية ، وفي متابعتي لنشرات الأنباء عبر المذياع كان جل اهتمامي يتركز في متابعة أخبار الثورات المشتعلة هنا وهناك وكذلك حركات التحرر · وعندما كنت أذهب للسينما في فترات متباعدة كنت أختار أفلام الحروب والأفلام التاريخية فقط ، وفي مشاهداتي لهذا النوع من الأفلام تأثرت كثيرا بالمجازر البشرية التي حدثت بحق الهنود الحمر على أيدي الوافدين الجدد من أوروبا والذين كونوا في النهاية الأمريكي الأبيض ، ووجدت نفسي متعاطفا مع هؤلاء الهنود الذين كانوا ينعمون بالهدوء والاستقرار في بلادهم ويمارسون طقوسهم الدينية على طريقتهم الخاصة ويعيشون بالوتيرة التي عرفت فيما بينهم كجزء من تقاليدهم وعاداتهم التي توارثوها وتنال الاحترام والتقديس من الجميع ، فاذا بالوافد الجديد يقلب حياتهم رأسا على عقب ، أيضا تأثرت بفيلم (زاباتا) ذلك الثائر المكسيكي ·· وفيلم (ذهب مع الريح) الذي يصور الصراع الدموي بين الشمال والجنوب الأمريكي قبل أن يتحدا ليكونا الولايات المتحدة الأمريكية ، أما ملحمة تولستوي (الحرب والسلام) فقد تأثرت بها لدرجة ان أحداثها وشخصياتها ما زالت ماثلة أمامي وكأنها محفورة في ذاكرتي · باختصار كانت حياتي كلها جد في جد ولا مجال فيها للهو ·

أما الجماهير الأرترية في تلك المرحلة فقد اختفت من صفوفها شتى أشكال التناقضات والخلافات الثانوية ، فأمام الجميع عدو واحد وهدف الجميع هو التخلص من هذا العدو والفوز بالحرية والاستقلال ، وبما ان التنظيم كان ينتشر في البوادي والمدن وبسرعة فائقة ، فان كل من نال عضوية التنظيم كان يتصور بأنه امتلك المفتاح السري والسر الأعظم لطريق الخلاص ، ولذا كان يحس بحالة من الاطمئنان والثقة المطلقة بالمستقبل الباسم ، وقد ظهرت في تلك الفترة روايات وأقاصيص تعكس الحالة النفسية للجماهير ، من ضمن تلك الأقاصيص ، ان أحد الكهنة المحيطين بالأمبراطور والمكلفين بكشف الغيب له والتنبؤ بالمستقبل ، نصح الأمبراطور بترك أرتريا وشأنها في الحال • وعندما استفسره الامبراطور عن السبب أجاب : « انك ما لم تترك أرتريا فان نهاية عرشك وحياتك ستكون بسببها » ، فما كان من الامبراطور الا أن قطع لسان ذلك الكاهن ثم وضعه بالسجن لكيلا يذيع هذا السر • ورواية أخرى مشابهة الا أنها تختلف عنها في المصير الذي آل اليه الكاهن ، حيث تقول : « ان الامبراطور دفع رشوة مالية كبيرة للكاهن ليحتفظ بالسر • وفي نفس الوقت يقوم بدراسة الاجراءات العملية للتخلي عن أرتريا » •

وقصة أخرى تروى على لسان أحد أولياء الله الصالحين تقول : « بينما كنت نائما جاءني الامام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه شاهرا سيفه وصاح في أن أستيقظ وآقوم بابلاغ المظلومين والمضطهدين في أرتريا بأن ساعة النصر قد حانت ، وان انتصارهم وهزيمة أعدائهم ستكون على أيدي رجال صالحين ذوي ألوان بيضاء ويرتدون ملابس بيضاء ويحملون رايات خضراء ، وسيخرجون من البحر الأحمر ويهبطون الشواطىء الأرترية ويكون النصر على أيديهم » • كانت هاتين القصتين والكثير من مثيلاتهما تنتشر وسط الجماهير فتزيد من حماسها وثقتها بالنصر •

وفي هذا المناخ من التفاؤل والمد الثوري المتصاعد اتخذت قراري

بترك الوظيفة والتفرغ كلية للنضال ، وان تنفيذ هذا القرار لم يكن بالأمر السهل وذلك للنتائج التي ستترتب عليه بالنسبة لأسرتي التي كانت تعتمد على دخلي الشهري من الوظيفة • ناقشت الأمر بيني وبين نفسي ومن شتى الوجوه ، واقتنعت بأن تنفيذ هذا القرار ستترتب عليه آثار ضارة بالنسبة لأسرتي • أما بالنسبة لنضالاتي الوطنية فسيكون الأمر مفيدا لأنني سأستغل كل وقتي وجهدي وتفكيري من أجل قضيتي ، وحسب القسم الذي أديته والذي يقول في نهايته : « وان أجعل مصلحة الوطن فوق مصلحتي الشخصية » فقد تركت الوظيفة المعيشية مضحيا بها في سبيل مصلحة الوطن •

كان هذا التصرف مثارا للدهشة من البعض ، والاستهجان من الآخرين ، كما ان البعض ومن منطلق الحرص على مستقبلي الشخصي حاولوا ثنيي للتراجع عن قراري بترك عملي المعيشي ، فهؤلاء وأولئك كانوا يجهلون الدوافع التي جعلتني اتخذ ذلك القرار الحازم وأقوم بتنفيذه • أما عن نتائجه فكما كنت أتوقع فقد عانيت من الفاقة والجوع كما أن أسرتي عانت من شظف الحياة ، وبالرغم من كل ذلك فلم أكن آسفا ولم أحزن ، بل كنت ورغم المعاناة أحس براحة نفسية لأنني وبكامل وعيي وارادتي اتخذت قرارا أعرف نتائجه مسبقاً ، ولم يجعلني هذا أوهن أو أتردد بل جعلني أحس بالانسجام مع نفسي •

تمر الشهور والأعوام وتتسع دائرة نشاطي • فقد أوكلت الي العديد من المسئوليات التنظيمية داخل أرتريا وخارجها • كما أصبحت أتولى مواقع قيادية في التنظيم ، وأصبحت معروفا لدى أغلب فروع التنظيم بحكم تحركي المستمر في مهمات أبرزها توصيل المطبوعات وجمع التقارير والاشتراكات والتبرعات وكذلك توصيل التعليمات القيادية للفروع •

عندما كنت أدخل لأرتريا كنت أتبع الطرق المعتادة وذلك بالسفر

بالسيارة أو الطائرة وبالمرور عبر ادارة الهجرة والجمارك • الا أن هذه الوضعية لم تستمر طويلا ، فقد تصاعد النضال الوطني آخذا عددا من الأشكال مثل الاضرابات والتظاهرات والقاء المنشورات السرية ومحاولة اغتيال الخونة والعملاء • ولم يعد أمرا خافيا بأن هناك تنظيما سريا يقوم بتحريك هذه النضالات • وقد نشطت أجهزة المخابرات الأثيوبية لمعرفة هذا التنظيم وأجهزته وقياداته وأساليب عمله ، وبفشلها في الوصول الى غاياتها بدأت بالاستعانة بشبكة التجسس الاسرائيلية التي أخذت على عاتقها هذه المهمة •

في تلك الفترة تلقيت اشعارا من قيادة التنظيم بأنهم علموا عن طريق أعضائهم المجندين داخل جهاز المخابرات الأثيوبي بأن اسمي مدرج على رأس قائمة المطلوبين ، وفي الوقت ذاته ينصحونني بعدم الدخول لأرتريا مؤقتا لأن اسمي مسجل في نقاط الحدود وفي مطار أسمرا •

لم أفاجأ بهذا النبأ لأنني كنت أتوقع الأسوأ ، ولكني غضبت أن يتم الكشف عن اسمي بهذه السرعة الامر الذي سيحد من حركتي • وقد بلغت قيادة التنظيم شكري وتقديري ليقظتها ، ولكني أبديت عدم موافقتي على نصيحتهم لي بعدم الدخول لأرتريا ، وقد بررت ذلك في رسالة مطولة ختمتها قائلا : « تأكدوا ان الأعين التي تمكنت من كشفي ستتمكن من اكتشاف الكثيرين ، واذا كان كل من يتم اكتشافه بواسطة المخابرات الاثيوبية سيبتعد هاربا عن أرتريا فان هذا يعتبر انتصارا للاستعمار الأثيوبي ، وليست هناك قوة تستطيع أن تمنعني من الدخول لأرتريا ، وليس من الضروري أن أحضر عن طريق المطارات ونقاط الحدود ، ولكي أثبت لكم صحة ما أقول سوف أكون قريبا بطرفكم وسأصل اليكم سالما » •

لم أكن أنظر لهذه المسألة كقضية شخصية ولكنها كانت بالنسبة لي

تمثل قضية مبدئية ، فهل نسمح لكل من تعرض للاعتقال أو للمراقبة بأن يهرب خارج أرتريا أم عليه أن يصمد ويقاوم ؟ كنت أود أن أبرهن عمليا بأن المقاومة والصمود ومواجهة التحديات هي الأساليب الثورية السليمة لا الهروب ، لذا قررت الدخول لأرتريا والقيام بجولة واسعة تشمل جزءا كبيرا من القطر ٠

لم يكن الأمر صعبا ، فقد وصلت للحدود الأرترية السودانية بالسيارة ، وهناك اتفقت مع أحد أصحاب الجمال ليأخذني الى مدينة قندع القريبة من العاصمة أسمرا ، وربما يكون قد أحس بأن ورائي أمرا غامضا ، فقد استفسرني اذا كنت أحمل معي بضاعة فأجبته بالنفي، وعندها كرر السؤال اذا كانت لدي بضاعة للتهريب فأجبته أيضا بالنفي ٠ فنظر الي باستغراب ولسان حاله يقول : « اذن ما الذي يضطرك للسفر بالجمل لما يقرب من العشرة أيام وأمامك وسائل أخرى سهلة وسريعة للسفر » ٠ وحاول الاستفادة من الموقف فرفع ايجاره الى الضعفين ، ولم أساومه بل وافقت وطلبت منه أن نبدأ رحلتنا في الحال٠ وفي هذه المرة أيضا لم ألمس الارتياح على ملامحه ٠ فربما كان يلوم نفسه على غبائه ويتحسر لأنه لم يرفع الايجار الى ثلاثة أو أربعة أضعاف ٠

بدأنا الرحلة واشترطت على صاحب الجمل أن يكون سفرنا ليلا فقط والنوم والراحة نهارا ، والابتعاد عن المدن والدروب المطروقة ٠ وكان هذا كافيا ليفهم بأنني أتحاشى الحكومة دون أن يعرف الأسباب ٠ سرنا لخمسة أيام بلياليها ولم يكن هناك شيء غير عادي ، الا أن صاحب الجمل كان مثار اهتمامي وذلك لمعرفته التامة بالأرض والنجوم ، فلم تكن هناك طرق محددة ٠٠ كما أن الأودية والجبال والسهول والغابات كانت متشابهة ٠ وبالرغم من ذلك فان صاحب الجمل كان يحدد هذه الأماكن بالاسم ودون أن يضل الطريق ٠ أيضا كان له (ثقافة) فلكية ٠٠ فهو ينظر الى السماء ويشير الى أحد النجوم ويذكر اسمه ثم

يؤكد بأن الوقت منتصف الليل أو أصبح قريبا من الفجر ، وبعد فترة يشير الى نجم آخر ويعلن بأن صلاة الصبح قد حانت ويتوقف عن المسير لأداء الصلاة • وعند استفساري عن الكيفية التي يفهم بها هذه النجوم ، أفادني بأن أهل الريف جميعهم ومنذ الطفولة يتعلمون أسماء النجوم ووظائفها وتأثيرها ، وشيئا فشيئا فقد توطدت علاقتي به وبدأت أحس بنوع من الاحترام له •

في اليوم السادس ، وبعد مغيب الشمس ، وعندما بدأنا مسيرتنا الليلية سمعت أصواتا لم تخطئها أذني ، فقد سمعت نباح الكلاب وأصواتا بشرية تبتعد ثم تقترب حسب الموجات الهوائية ، وتأكدت بأننا قريبون من احدى القرى ، وفجأة شعرت بحنين جارف الى أيام الطفولة ، وحياة القرية الهانئة الهادئة ، فطلبت من صاحب الجمل أن يتجه بنا الى حيث القرية وبررت ذلك بأنني أود أن أشرب شيئا من اللبن •

بوصولنا ، وحسب التقاليد المرعية ، نزلنا خارج القرية ، ولم تمض دقائق معدودة حتى كنا محل حفاوة رجالاتها • وكما كنت أعرف وأتوقع فقد أحضروا النار وبدأوا في اعداد القهوة ثم أحضرت العصيدة واللبن بكميات كبيرة • وأثناء ذلك كانت عبارات الترحيب والمجاملة وكذلك الاستفسارات عن الأراضي التي مرينا بها وسكانها وأحوالهم وأحوال ماشيتهم ، تنهال علينا من المضيفين • ومن جانبي اندمجت معهم وشعرت بالاطمئنان اليهم وشاركت بالحديث قائلا :

ـ الظلام •• آه من هذا الظلام الذي ينتشر في كل مكان •

نظر الجميع الي باستغراب عندما صمت عند هذا الحد حيث انهم لم يدركوا ما أرمي اليه ، فتطوع شيخ وقور وبدد الصمت عندما سألني :

ـ لم نفهم ماذا تعني بالظلام المنتشر في كل مكان ٠

ـ كنت أتوقع هذا السؤال لأن كلامي كان ناقصا ٠ فمنذ ان وطأت أقدامي الأراضي الارترية وخلال الايام الخمس الماضية لم أشاهد الا الظلام الدامس حيث لا أثر للنور في القرى أو المدن الصغيرة ، انهم الاثيوبيون الذين احتلوا بلادنا ويخشون النور ويستأنسون للظلام مثل الخفافيش ٠ فقد حافظوا على الظلام في الأرض وفي عقول البشر لاخفاء جرائمهم واطالة بقائهم بهذه الأرض الطيبة ٠

توقفت لحظة عن الحديث لأشاهد تأثير كلامي عليهم ، فوجدت الجميع ينظرون الي باهتمام ، وهنا واصلت حديثي :

ـ انني أكاد أرى نهايتهم ، فمهما نشروا أو حافظوا على الظلام فان نهايتهم حتمية ٠ ويومذاك سينتشر النور ويعم كل أرجاء أرتريا في الحضر والبادية ، وان العقول سيغزوها ايضا نور العلم ويطارد دياجير الظلام ٠

تنحنح الشيخ الوقور قائلا :

ـ يا بني من الواضح أنك تتحدث في السياسة ، وان عمرك أصغر من أن تخوض في مثل هذه القضايا المستعصية ، وأنصحك أن تبتعد عن السياسة ، وأسديك هذه النصيحة بعد تجربة لا تنسى ٠

ـ أكون شاكرا لو تحدثت لي عن تجربتك التي لا تنسى في السياسة ٠

ـ لا أود أن أطيل عليك الحديث في ذكريات مؤلمة ٠ ولكني وباختصار ، وبعد معاناة طويلة ، اقتنعت بأن السياسيين مثلهم مثل الشعراء الغاوين ، الذين ذكرهم الله في الفرقان ، يقولون ما لا يفعلون ٠ تعرفت بالسياسيين في فترة تقرير المصير ، واستمعت الى الكثير من

،حاديثهم وخطبهم ووعودهم التي لم يتحقق منها شيء • وفي بداية الفدرالية وأثناء الانتخابات البرلمانية زارنا الكثيرون من السياسيين وأشبعونا وعودا ، ولكي تتحقق تلك الوعود بفوزهم في الانتخابات تبرعنا بالمواشي التي لا حصر لها وبالجلود ، وبالاضافة لذلك فأنا شخصيا أضعت موسما زراعيا لأنني كنت أتجول معهم في مختلف الدوائر الانتخابية • ولكن من المؤسف ، وبعد أن فازوا وأصبحوا أعضاء بالبرلمان أصبحت وعودهم كالسراب •• وسكنوا المدن الكبيرة وتوقفوا عن زيارتنا • وفي العام الماضي زرت مدينة كرن فقابلت أحدهم وطلبت مساعدته لعلاج زوجتي ـ رحمها الله ـ ولا يمكنك أن تتصور الصدمة التي أصابتني من جراء المقابلة الجافة التي استقبلني بها ، من يومها لم نعد نثق بهؤلاء السياسيين الذين يتبعهم الغاوون ، لذا أنصحك يا بني بالابتعاد عن هذا الطريق •

ـ لك الحق فيما تعتقد بعد ما أصابكم من جحود وعدم صدق من قبل أولئك السياسيين الذين تحدثت عنهم ، ولكني أتحدث عن سياسة من نوع آخر ، فلم أطلب منكم أن ترشحوني في الانتخابات للبرلمان ولم أطلب تبرعكم من المواشي والجلود وترك مصالحكم ومتابعتي ، ولكني أقول لكم بأن هناك عدوا أجنبيا احتل بلادكم ويريد أن ينهب كل ما لديكم من خيرات بل ويتعدى ذلك لانتهاك أعراضكم وحرماتكم ومقدساتكم • انني لا أطلب منكم أكثر من أن تدافعوا عن أنفسكم أمام هذا العدو •

بعد فترة صمت كان فيها التفكير والاهتمام باد على وجوه الجميع رد الشيخ الوقور قائلا :

ـ لقد صدقت يا بني ، فأنت تتحدث عن سياسة من نوع آخر • من جانبنا لم نتعامل مع هذا العدو الذي تحدثت عنه ، بل ان علاقتنا بالحكومة تتم عن طريق النواب الذين ننتخبهم للبرلمان ، ولكني أذكر ان

جدي ووالدي ـ رحمهما الله ـ كانا يتحدثان لنا عن هذا العدو وجرائمه • وكان اسمه « رأس الولا » الذي جاء غازيا لبلادنا من أثيوبيا يتكرر على ألسنتهم دوما بالسوء •

وعلق شخص آخر بقوله :

ـ أيضا لاحظنا في السنوات الأخيرة الضرائب التي فرضت على مواشينا وأراضينا وبدأت تزداد كل عام • وربما يكون ذلك بفعل هذا العدو الذي تحدثت عنه رغم أنني لست متأكدا من ذلك الأمر •

ثم أدلى ثالث بدلوه في الحديث ، قال :

ـ وهناك مرض الطاعون الذي صار يحصد مواشينا سنويا أعتقد أنه أيضا بسبب الاثيوبيين امعانا في افقارنا ، لأن هذا المرض لم نكن نعرفه الا مرة عبر سنين طويلة وها هو الآن يفتك بمواشينا كل عام •

ثم صمت الجميع بانتظار ردي ، قلت :

ـ صدقتم في كل ما قلتم • فرأس الولا سبق وان سبب المتاعب والقتل والكوارث لأجدادنا وآبائنا في أجزاء متعددة من أرتريا • وأحفاده وأولاده يمارسون ويكررون اليوم نفس سياسته • ففي المدن يمارسون التجسس والاعتقالات والتعذيب الجسدي والنفسي للمواطنين • وبالنسبة لسكان الريف الذين لم يشاهدونهم يلاحقونهم بالضرائب الباهظة عن طريق وكلائهم • أما عن مرض الطاعون وما يسببه من هلاك للمواشي ، فقد أصبتم الحقيقة حيث ان الثروة الحيوانية تعتبر العمود الفقري لأكثر من ٩٠ ٪ من سكان أرتريا ، واهمالها وعدم تطعيمها وتطبيبها من قبل المحتلين الأثيوبيين يعنى وبشكل مباشر تنفيذ سياسة افقار المواطنين •

ثم بدأت أروي لهم قصصا عن الشعوب التي كانت ترزح تحت الاستعمار ، ولكنها تحررت بفضل نضالها • ومن ثم بدأت تبني وتعمر

وتنعم بالعلم والصحة والاطمئنان دون أن تلاحقها عيون الجواسيس أو تهددها المعتقلات وتثقل كاهلها الضرائب الباهظة • وكلما استرسلت في الحديث كنت ألاحظ اهتمامهم البالغ ولسان حالهم يطالبني بالاستمرار في الحديث • وقبل منتصف الليل بقليل استأذنتهم للرحيل • الا أنهم اعترضوا على رحيلي السريع مطالبين ببقائي لأيام في ضيافتهم ، فاعتذرت قائلا : « ان امامي عملا هاما ولا أستطيع اضاعة الوقت رغم رغبتي الصادقة في البقاء معكم » •

وكالعادة ، لم يتركوني أغادر القرية منفردا بل رافقوني لمسافة طويلة من الطريق ، وكنت متأثرا بما لقيته من كرم وحفاوة ، وعندما عادوا لقريتهم واصلنا طريقنا ، وبدأت أسترجع شريط ذكرياتي أيام الطفولة في مجتمع القرية ، وبدأت أردد في نفسي : « ان شعبنا ما زال بخير ، فالنقاء وتكريم الضيف بل والمبالغة في الكرم ، كل هذه من الصفات الحميدة التي ستجعل هذا الشعب يتحمس للدفاع عن كيانه متى ما وجد من يقوده ومتى ما اقتنع بأن هذا الكيان يواجه خطرا » •

بعد أن قطعنا مسافة ، تنحنح صاحب الجمل وبدأ الحديث قائلا :

ـ اذن هكذا ؟ سمعت حديثك لأصحاب القرية وأعجبت به ، ولكن لماذا لم تتحدث معي عن هذا الأمر منذ بداية الرحلة ؟

ـ كنت سأتحدث اليك بالتأكيد ولكني أرجأت الحديث حتى نهاية الرحلة •

كانت الساعة تشير الى الثانية صباحا وكان الظلام دامسا • ولم يكن هناك ما يلفت النظر سوى المناظر التي ألفتها خلال الأيام والليالي الماضية من الرحلة ، فالجبال الشاهقة التي تزداد وحشتها ليلا •• والغابات حيث حفيف الأشجار •• ومن حين لآخر عواء الذئاب ••

ورفيقي يقود جمله ممسكا بالرسن ولم أدر بماذا كان يفكر • أما أنا

فقد كنت أسترجع حديثي مع أصحاب القرية التي غادرناها • وبدأت أحس بالزهو قائلا في نفسي : « في هذه اللحظات المتأخرة من الليل تجد الجميع نياما بمنازلهم وعلى الأسرة ، أما أنت يا صالح فقد اخترت طائعا أن تكون مسافرا وعلى رأس جمل أو متوسدا الثرى » • وبما ان النعاس كان يداعب جفوني وأحس بالارهاق فقد كنت أرغب في النوم لساعات طويلة وفوق السرير • وقلت مواسيا نفسي : « اذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرامها الأجسام » •

وبينما أنا غارق في أفكاري وتأملاتي توقف صاحب الجمل عن المسير ، ورفع يديه الى السماء ثم بدأ يقرأ بصوت مسموع (فاتحة الكتاب) ، فتبينت على ضوء القمر أنه يقرأ الفاتحة على روح سكان مقبرة كبيرة تقع على طرف الطريق ، وكان المنظر موحشا حيث مئات المقابر فاكتأبت لمنظرها ووجدت نفسي أردد مقاطع من قصيدة (الطلاسم) لايليا أبو ماضي :

ولقد قلت لنفسي وأنا بين المقابر

هل رأيت الأمن والراحة الا في المقابر

فأشارت فاذا للدود عيث في المحاجر

ثم قالت : أيها السائل اني

لست أدري

وواصلت قراءة القصيدة حتى مقطعها الأخير ثم بدأت في تأمل المقابر ، واشتط بي الخيال لأستعرض سكانها فردا فردا • لا شك فيهم ذلك الشيخ الذي عاش حتى أرذل العمر ورحل عن الدنيا بعد أن تمتع بمباهجها •• وذلك الذي أفنى معظم حياته في جمع الثروة من المال والمواشي وكان يبخل على نفسه وذويه بالقليل من هذه الثروة ، فقد توفي وسكن هذه المقبرة دون أن يأخذ من ثروته الا قطعة من القماش

هي كفنه ·· وفيهم الشاب الذي داهمه داء عضال ونتيجة لانعدام الطب والعلاج لقي حتفه دون أن يبلغ غايته وهي الزواج من فتاة أحلامه ·· والأم التي كانت تنشر الدفء والحنان على أطفالها وزوجها اختطفتها المنية وهي لم تكن تهاب الموت بقدر ما كانت تخشى أن تموت ويتعرض أطفالها لحياة اليتم ·· والفتاة الرائعة الحسن والجمال والتي كان يتمناها جميع شباب القرية ، وكان قلبها معلقا بفتى أحلامها المغترب وفجأة سكنت هذه المقبرة بعد أن لدغها ثعبان قاتل ·· وذلك القبر الصغير لا بد انه لطفل لم يعش سوى بضعة أيام ورحل عن الدنيا دون أن يشاهد أو يعلم شيئا عن هذه الحياة ·

كل هؤلاء ضمتهم الأرض في أحشائها ، ولم يبق لهم أثر سوى هذه الحجارة المرصوصة والعالية والتي تشير اليهم ، فما أقصر عمر الانسان وما أحقر هذه الحياة اذا كانت خاتمتها هكذا · وأنت يا صالح هل سيكون مصيرك في يوم من الأيام أن تسكن والى ما لا نهاية مثل هذه المقابر ودون أن تحقق عملا يخلد ذكراك ؟

ولم أفق من هذه الهواجس والتأملات الكئيبة التي أطارت النوم من عيني الا عندما سمعت صاحب الجمل وهو يتحدث بصوت عال غير مألوف :

ـ ماذا جرى لك ؟ فقد تعب الجمل وأنا أيضا تعبت من السير ، وقد طلبت منك عدة مرات أن نتوقف عن المسير لأننا قضينا الليل بكامله سائرين وقد انبلج الفجر ·

ـ لم أسمعك تتحدث الي قبل الآن ·

ـ أعتقد أنك كنت نائما فوق الجمل وهذا ما لم أعرفه عنك خلال الأيام السابقة من رحلتنا ، فربما يكون طول السفر قد أثر فيك ·

ولم أعلق على كلامه ولكني طلبت منه أن نتوقف للراحة ·

في اليوم التاسع كنت بداخل أسمرا ، وشعرت وكأني قد تمكنت من هزيمة الاثيوبيين لأنني اخترقت حواجزهم التي وضعوها أمامي في المطارات ونقاط الحدود • ولم تعد أسمرا الجميلة في نظري هي تلك المدينة المكتئبة الحزينة التي عرفتها سابقا ، بل خلتها وكأنها عروس في أبهى زينتها لاستقبال فتاها المنتصر على الاثيوبيين ، والذي سهر الليالي وقطع الفيافي والوديان والجبال والوهاد ، مستهينا بالخطر ، مؤكدا على حبه الصادق وهيامه بمحبوبته • وبدأت أتفرس في وجوه المارة وتمنيت لو احتضنتهم فردا فردا ووقفت فيهم خطيبا لأشرح لهم تجربتي وأنصحهم بعدم الانصياع لأي من الاوامر والقرارات الاثيوبية ، بل عليهم أن يتمردوا ويثوروا ويحطمونها وبذا يشعرون بما أشعر به من نشوة وسعادة •

وفي اجتماع لقيادة التنظيم شرحت لهم الطرق التي اتبعتها للوصول الى أسمرا ، كما دافعت عن وجهة نظري بضرورة تحدي الاثيوبيين وعدم الرضوخ لاجراءاتهم الارهابية • ومما زاد في ثقتي بالنفس ان القيادة التي كنت أخشى أن تسجل لي لوما على عدم الاذعان لتعليماتها ، أشادت بموقفي بل قررت أن يكون الدخول والخروج من والى أرتريا ، للعناصر المدرجة بقوائم الاثيوبيين عبر الطريق الذي سلكته ، كما قررت اطلاق اسم (طريق صالح) على هذا الدرب تأكيدا على أهمية الانجاز الذي حققته بمبادرتي •

وازدادت سعادتي عندما قمت بجولة واسعة في فروع التنظيم بالمدن المختلفة من أرتريا دون أن تتمكن السلطات الاثيوبية من القاء القبض علي أو تشعر بوجودي داخل أرتريا ، كما ان اتساع التنظيم وانضمام الآلاف الى صفوفه والذين كنت ألتقي بهم في الاجتماعات السرية جعلني أزداد ثقة بالنصر ، فلم تعد هناك مدينة الا وكان بها فرعا للتنظيم كما أنني كنت معروفا لدى جميع قيادات ومعظم قواعد هذه الفروع بحكم ترددي عليها من حين لآخر • ولهذا كنت أقابل بالترحاب أينما حللت

حيث أحضر الاجتماعات وأشارك فيها بآرائي ومقترحاتي وتوجيهاتي بهدف دفع العمل للامام • وفي معظم توجيهاتي كنت أتناول تجربتي الشخصية عندما كنت قبل سنوات أتردد على أرتريا وأجوب المدن المختلفة في محاولة للتعرف على المواطنين وأحوالهم بهدف انشاء التنظيم •• والمصاعب العديدة التي واجهتني ، وكيف تغيرت الأمور بحيث تم انشاء التنظيم بل وانتظم في صفوفه الآلاف •• والعبرة من هذه التجربة هي ضرورة سلامة الخط ، ثم الاستمرارية والاصرار ووضوح الهدف والايمان به مع وجود القيادة التاريخية ، وبتوفر هذه الشروط فانه لا يصبح هناك أي مستحيل •

بعد انتهاء جولتي في أرتريا غادرت الى السودان في مهمة تختص بالفروع الخارجية ، وتكرر بعد ذلك دخولي وخروجي سرا من أرتريا مرات عديدة • وقد أبلغتني قيادة التنظيم بأن الاثيوبيين علموا بتواجدي من حين لآخر داخل أرتريا الا أنهم فشلوا في تحديد مكاني والكيفية التي أدخل بها لأرتريا ، وكانت مشكلتهم ـ كما ذكرت لي القيادة ـ أنهم يعرفون اسمي فقط دون أن تكون لديهم صورتي الفوتغرافية ، وقد ظنوا أنني قد غيرت اسمي ، ولهذا بدأوا بمضايقة بعض القادمين من السودان عبر تسنى أو مطار أسمرا • الا أن هذا لم يمنعني من الدخول والخروج رغم التحذيرات الكثيرة من قبل زملائي والذين كانوا يخشون وقوعي في أيدي المخابرات الاثيوبية التي أصبحت مسعورة في تلك الأيام •

في احدى زياراتي السرية لمدينة أسمرا فوجئت بما لم أكن أتوقعه ، فقد كان أحد الأرتريين الذين قمنا بتجنيدهم بمدينة بورتسودان قد اختفى فجأة من المدينة دون اخطارنا ، الأمر الذي لم يكن معهودا في التنظيم ، وقد استفسرنا كثيرا عن هذا الشخص دون جدوى • فاذا بنا نفاجأ برسالة من أسمرا تخطرنا بأن هذا الشخص وصل الى هناك وعرض خدماته على السلطة الاثيوبية بعد أن أعطاها تقريرا مفصلا بما يعرفه عن التنظيم وأسماء الاشخاص الذين يعرفهم ، وعليه فقد أصبح منتميا لشبكة التجسس الاثيوبية •

في تلك الزيارة وبينما أنا سائر في أحد شوارع أسمرا فوجئت بذلك الشخص يقف أمامي وجها لوجه ، وكانت لحظة حرجة انتابتني فيها أحاسيس الخوف والغضب والدهشة في آن واحد ، ولم يكن هو أقل مني ارتباكا • وبسرعة استعدت هدوئي وسلمت عليه بحرارة وتظاهرت بالسرور والاغتباط لمقابلتي له بعد طول الغياب والشوق ! وكنت آنذاك أفكر بسرعة بالكيفية التي أتخلص بها من هذا المأزق ، واعتقد من جانبه أيضا كان يفكر بسرعة ليرمي بي في أيدي الاستخبارات الاثيوبية • وفجأة طلب مني أن ندخل الى أحد البارات القريبة لتناول شيء من الشراب • وهنا تأكدت بأنه حتما يقودني الى أحد الكمائن فرديت بسرعة :

ـ ألا تخجل يا أخي • وهل هذا يصح أن نلتقي بأسمرا بعد هذه الشهور الطويلة وتتصور أنني سأكتفي بدعوتي في بار ؟ انني لن أتنازل عن حقوق الصداقة ، بل أطمع أن تعرفني بكل الاصدقاء وحتى الصديقات ! وتقيم لي وليمة خاصة بمنزلكم لأتعرف على الأهل جميعا• دعك الآن من هذه الدعوة التي لن تقنعني بها واتركنا نتجول قليلا •

وقد لاحظته وقد انبسطت أساريره ، وشعرت بالارتياح لأنني قد تمكنت من ايهامه بأنني سأكون تحت قبضته متى ما شاء ، ومن ثم بدأنا بالسير سويا الى أن اقتربنا من مقهى صغير منزو بأحد الشوارع الجانبية• وهنا طلبت منه أن نجلس لنتناول الشاي فقبل دعوتي دون تردد • وما ان استوينا في الجلسة وبدأنا في احتساء الشاي حتى بادرني بالسؤال :

ـ متى حضرت من السودان ؟ وبأي فندق تنزل ؟

فأجبته بأنني حضرت بالأمس القريب ، علما بأنني كنت مقيما بأسمرا لثلاثة أسابيع • أما عن الفندق فقد أخطرته بأنني أنزل (بالبيرفوميا) مع أنني تركت النزول بالفنادق لأكثر من عامين • ولكنه فاجأني بسؤال آخر لم أتوقعه قائلا :

ـ كيف أحوال تنظيمنا بالسودان وهل توسعت فروعه وسط المهاجرين الأرتبريين بالاقطار العربية الاخرى ؟

فكرت للحظة بأن هذا الشخص اما أن يكون بريئا من تهمة التجسس والا لمان كان وجه لي الأسئلة بهذا الشكل الذي يثير الشك ، واما أن يكون ذكيا ويحاول أن يزيل أي شك ازاءه ويجعلني أثق به ، وكما يقولون ان خير وسيلة للدفاع هي الهجوم فقد قررت أن أفاجئه بما لم يتوقع فأجبته :

ـ ان التنظيم بالسودان على ما يرام • أما عن فروعه بالأقطار

العربية فقد شملتها جميعا • وان مشكلتنا هي أننا لم نتمكن من خلق فروع للتنظيم بداخل أرتريا • وبالمناسبة نرجو أن نكون قد تمكنا من تجنيد بعض أفراد الاستخبارات الاثيوبية للتنظيم ؟ فقد بلغنا بأنك تعمل حاليا بجهاز الاستخبارات •

عندما سمع هذا السؤال امتقع لونه وبانت الدهشة والارتباك على وجهه ، ولم يجب على سؤالي للحظات بل أخرج سيجارة وبدأ بالتدخين وهو ينظر الى الفراغ ، وأخيرا رد يقول :

ـ بالفعل حاولت العمل بالاستخبارات الاثيوبية ، وكان هدفي أن أخدم التنظيم من خلاله ، الا أن المخصصات الشهرية التي يدفعونها ضئيلة وهي سبعين دولارا فقط ولا تفي بالغرض ، لهذا رفضت العمل معهم • وبما ان الأمر قد بلغكم فأرجو ألا تكونوا قد أسأتم الظن وفسرتم تصرفي بالخيانة للتنظيم ؟

كنت أنظر اليه بامعان وهو يرد على سؤالي المفاجيء • وكنت أحلل كل كلمة ينطق بها ، وقد لاحظت تباطؤه في الرد على السؤال ثم محاولته تبرئة نفسه دون أن أوجه له اتهاما • وهنا لم يخالجني أدنى شك بأنه مجند حقا بالمخابرات الاثيوبية ، وأجبته قائلا :

ـ انك قد أخطأت برفضك العمل معهم ، ومهما كان المخصص ضئيلا فقد كان بمقدورك أن تقدم خدمة جليلة للتنظيم من خلالهم ، ولذا أنصحك بالعمل معهم • أما عن اتهامك فهذا أمر ليس واردا والا لما جلست معك وتحدثت اليك بهذه الصراحة • وعلى العموم سنتحدث مطولا عن هذا الأمر وغيره من المسائل الهامة الخاصة بتنظيمنا والتطورات المذهلة التي جرت بداخله • سأتحدث معك غدا عن كل هذه القضايا عندما نتناول العشاء بمنزلكم ، فهل تكرمت وأعددت لي وجبة دسمة ؟

بان الارتياح على وجهه وهو يقول :

ـ بكل سرور ، وستجد الوجبة الدسمة وما لذ وطاب من المشروبات وستتعرف على أصدقاء ظرفاء كما ستقضي ليلة ممتعة في أحضان احدى الجميلات !

ـ اذن سأكون في انتظارك في السابعة من مساء الغد بالفندق ٠

وافترقنا وأنا أحس بغضب داخلي واحتقار نحو هذا الوغد الذي تحدث عن أحضان الجميلة وما لذ وطاب من المأكل والمشرب ، ولن أشك بأنه وفي هذه اللحظة سيكون متجها الى أسياده ليزف لهم بشرى اصطيادي٠

وفي الحال توجهت الى مسئولي التنظيم وأبلغتهم بما جرى ، فأخذوني الى منزل آخر وأخطروني أن أكون مستعدا لمغادرة المدينة في أي لحظة ، ريثما يبلغون زملاءهم المجندين بالاستخبارات ويستفسرونهم اذا كان قد وصل بلاغ بهذه الحادثة ٠

بعد مرور ساعات ثلاث عادوا الي مؤكدين بأنه لم يصل أي بلاغ بشأني ، وربما يكون هذا الجاسوس قد انتظر ليبتلع الطعم الذي تركته له وهو المسائل الهامة عن التنظيم التي وعدته بالحديث عنها ، ومن ثم تقرر ترحيلي فورا ٠

وفي مساء اليوم الثاني كنت بعيدا عن أسمرا بمائة كيلومتر تقريبا وتصورت خيبة الأمل والذعر الذي سيصيب هذا الجاسوس الحقير عندما يأتي الى الفندق ويخطرونه بأن شخصا بهذا الاسم لم ينزل عندهم اطلاقا ٠

كنت مسرورا بنجاتي من الوقوع بأيدي المخابرات الاثيوبية ٠٠ ولكنني وجدت مفاجأة بانتظاري ، فبعد وصولي السودان بأسابيع علمت

بأن الاثيوبيين قد قاموا باعتقال والدي ، فقد وصلوا اليه في قريته النائية بأعماق الريف الأرتري واقتادوه الى المدينة ، ومع القادمين من أرتريا بدأت تتوارد الأخبار والتفاصيل بشكل اسبوعي بحيث أخذت علما بكل ما جرى لوالدي بالتفاصيل ٠

ففي أحد الأيام وقبل طلوع الشمس وجدت القرية نفسها محاصرة بأعداد كبيرة من رجال البوليس المسلحين ، وكلما هم شخص بمغادرة القرية للذهاب الى مزرعته كانوا يأمرونه بالعودة الى منزله ٠ وكان منزل والدي بصفة خاصة محاطا برجال البوليس وهم شاهرين أسلحتهم استعدادا للضرب ٠ وعندما خرج والدي من المنزل ودون أن يدري بما يجري بالخارج وجد جنديا يقف على الباب وهو يتمنطق مسدسا يتدلى من وسطه ويحمل بندقية بيده ، فاعتقد والدي أنه ضيف ودون أن يلاحظ الجنود الآخرين الذين يحيطون بالمنزل ، سلم عليه قائلا : « لماذا تقف هكذا على الباب وأنت تعرف الضيافة وأصولها كما تعرف أننا نستقبل أي ضيف قادم لقريتنا بكل ترحاب ؟ تفضل واجلس هناك تحت تلك الشجرة القريبة ريثما يتم اعداد الطعام ونحضر النار وأدوات القهوة » ٠ الا أن الجندي انتابه الخجل من نفسه وأفاد والدي بكل أدب وهو متردد بأنه جاء لتفتيش المنزل ٠ لم يتمالك والدي أعصابه ورجع عائدا لداخل المنزل وتناول سيفه وهو يصيح بصوت عال : « عشنا لنرى ان حرمة منازلنا تنتهك بحضورنا أمام النساء والاطفال ونحن الذين لم يجرؤ شخص للاقتراب من منازلنا بغيابنا دعك عن دخولها وتفتيشها بحضورنا ٠ الموت أفضل من حياة كهذه ولن أسمح بحدوث مثل هذا العار » ٠ وخرج الى الباب حاملا سيفه وفي حالة استعداد للقتال ٠ الا أن ذلك الجندي كان متزنا وعاقلا وخاطب والدي صارخا : « صلي على النبي يا حاج » ٠ فهدأ والدي قليلا وهو يردد : « اللهم صلي وسلم عليه » ، فاستمر الجندي يحدث والدي بصوت منخفض بحيث لا يسمعه الآخرون :

ـ يا حاج ، انني خجلان من هذا الموقف ، وأنا مثلك لي عائلة ومنزل لا أتحمل رؤية شخص يتعدى عليها ، ولا أعرف كيف أشرح لك الأمر لأن هذه هي المرة الاولى التي أكلف فيها بمثل هذه المهمة القذرة ، بالعموم هدىء من روعك لأن أي حماقة من جانبك ستكون عاقبتها وخيمة • انظر الى المنزل فهو محاط بجنود لديهم أوامر باطلاق النار ، ومهمتنا هي مجرد اجراءات بسيطة سيهون بعدها كل شيء •

عندما التفت والدي رأى ان المنزل محاط بأكثر من عشرين جنديا شاهرين أسلحتهم • وهنا هدأت ثورته وهو يقول : « لا حول ولا قوة الا بالله •• لا تعتقد أنني أخشى هذا العدد من الجنود وأسلحتهم •• فقد اعتدنا ألا نخاف الموت •• فالعمر واحد •• واليوم واحد ، ومهما تعددت الأسباب • ولكني لا أريد أن أموت دون أن أعرف خصمي الذي أرسلكم ، وشرطي للسماح لكم بدخول المنزل وتفتيشه هو أن أقوم باخراج النساء والأطفال بعيدا عن الدار ثم أسمح لكم بعد ذلك بدخوله » •

وافق الجندي العريف وهو قائد المجموعة على شروطه ، وبعد اخلائه من النساء والأطفال تدفق الجنود الى داخل الدار • وأثناء ذلك تجمع سكان القرية من الرجال والاطفال لمشاهدة ما يجري دون أن يدركوا شيئا عن هذه الكارثة التي تحل بقريتهم للمرة الاولى ، فقد اعتادوا مشاهدة جنود الحكومة كضيوف عابرين ، أو لجمع الضرائب ، أو كمرافقين لبعض المسئولين الكبار ، ولكنها المرة الأولى التي يشاهدونهم فيها بهذه الكيفية حيث دخول المنازل وتفتيشها •

بعد انتهاء اجراءات التفتيش طلب الجنود من والدي أن يستعد لمرافقتهم الى المدينة ، فوافق قائلا : « لو لم تطلبوا مني ذلك لما تركتكم تغادرون القرية بسلام ، فأنا أود مرافقتكم لأن ما جرى ليس بالأمر السهل حتى أسكت عليه • فاما أن أكون مجرما وأعرف نوع الجريمة

التي ارتكبتها واما أن تعاد لي كرامتي التي أهدرت أمام القرية بكاملها • والآن دعونا نتحرك في الحال » • وأصر عدد من رجالات القرية ألا يتركونه يذهب وحيدا وقاموا بمرافقته الى المدينة •

بوصوله الى المدينة تم وضعه في زنزانة انفرادية الأمر الذي لم يكن يتوقعه • وعندما عرضوا عليه الطعام رفض تناوله معلنا بأنه سوف لا يتناول شيئا من الأكل والشرب حتى يعرف جريمته ، وهذا جعلهم يعجلون بالتحقيق معه ، واستجوبه أحد الضباط قائلا :

ـ اننا نعتذر لما جرى لك • ولكننا علمنا بأن ابنك صالح قد زاركم بالقرية قبل أسابيع • ولعلمك فهو يقوم بنشاط ضد أثيوبيا • فلماذا لم تبلغنا بهذا الأمر ؟

ـ أولا ان ابني لم يزرنا بالقرية منذ سنوات ، ولا علم لي عن نشاطه ضد أثيوبيا • ولو افترضنا أنه زارنا فهل طلبتم أن أبلغكم بذلك ؟

ـ لا داعي للمراوغة فلدينا تأكيد بأن صالح كان معكم بالقرية •

ـ هذا ما كنت أبحث عنه وما جئت من أجله الى هنا ، قلت أنكم متأكدون بأنه كان معنا بالقرية ، وأنا أريد مواجهة هذا الشخص الذي نقل لكم هذا الخبر وأكده • وأقسم بشرفي بأن موته سيكون بيدي •• هذا الجاسوس الكاذب الحقير •

ـ هل تسيء للحكومة وتصف رجل مخابراتها بالجاسوس الحقير وتتوعد بقتله ؟

ـ لكي تتفادى الحكومة الاساءة مني ومن غيري فعليها ألا تعتمد على معلومات شخص لا يحترمها ويقدم لها الأخبار الكاذبة •

ـ لا أريد أن أدخل معك في جدل خاصة وأننا لا نضمر لك شرا ، ونريدك أن تتعاون معنا ونحن مستعدون لمساعدتك • نريدك أن تتصل بابنك صالح وتطلب حضوره الى هنا • وأبشرك بأن الحكومة الاثيوبية تريد توظيفه في مكانة مرموقة على أن يترك النشاطات التي يتحرك فيها •

ـ أولا اذا كان ابني قد أخطأ فليس من حقكم معاقبتي بتفتيش منزلي واحضاري سائرا على الأقدام من القرية للمدينة ثم وضعي في زنزانة كالمجرم • ولعلمك ان ابني قد ولدته ورعيته صغيرا ثم ربيته ، ولكني لست وصيا عليه الآن لأنه لم يعد قاصرا • فهو الآن رجل مثلي ويعرف الأمر الذي يفيده ويضره • واذا كنتم ترغبون في تعيينه في وظيفة فعليكم بالاتصال به بأنفسكم •

وهنا اشتاط ذلك الضابط غضبا وأمر جنديا كان يقف بالباب قائلا : « خذوا هذا العجوز المخرف الى السجن » •

هذه هي الاخبار التي وصلتني عبر القادمين ، كما علمت بأن الصدمة أدت الى مرض والدتي والتي ـ كما نقل لي ـ تعيش في حالة ذهول وغيبوبة وترفض تناول الطعام كما ترفض النوم على السرير وأصبحت تنام على الأرض تعبيرا عن حزنها العميق • فبالاضافة لاعتقال والدي فقد انتشرت في القرية اشاعة تفيد بأنني اعتقلت وربما أدى الأمر الى صدور حكم الاعدام بحقي ، وهذا جعل والدتي في حالة شبه جنون •

هذا الحادث سبب لي صدمة عنيفة • وكنت أقضي الليالي وأنا صاح أفكر دون أن أذوق للنوم طعما • فقد كنت مستعدا أن أواجه نتيجة نشاطاتي ضد الحكومة الاثيوبية ولو كان الموت • ولم أضع في الحسبان ان الخساسة ستصل بالأثيوبيين أن يسببوا هذه الآلام لوالدي ووالدتي

انتقاما مني • ومما زاد في آلامي ومعاناتي النفسية ان بعض الناصحين ـ الذين يظهرون في مثل هذه المناسبات ـ بدأوا يرددون على مسامعي معاتبين : « انك قد أضعت مستقبلك وتركت عملك ، والآن تتسبب في تدمير أسرتك بكاملها ، لماذا لا تترك هذا الطريق وتهتم بشئونك الخاصة ؟ » •

وكلما وصلتني أخبار عن معاناة والدي بالسجن كنت أفكر جادا بالذهاب الى أرتريا وتسليم نفسي متحملا النتائج مهما كانت بدلا من أن يعاني والدي من العذاب • وفي أحد الأيام جاءني شخص برسالة شفوية من والدي حيث تمكن من رؤيته عندما أحضر له طعاما بالسجن• يقول والدي في رسالته : « لا تنزعج فأنا بخير والسجن للرجال • وأنا أعرف أنك عاطفي ومتهور فاياك أن تتهور وتفكر بالمجيء الى هنا » • كانت هذه الرسالة بالنسبة لي كالبلسم الشافي •• وقد ازداد احترامي واعتزازي بوالدي ، وصرفت النظر نهائيا عن فكرة تسليم نفسي • وقلت : « ان الرد المناسب على الاثيوبيين هو الاندفاع الى الامام والقيام بالمزيد من النشاطات الثورية التي تنهي وجودهم بأرتريا • أما التسليم لهم فيعني انتصار أسلوبهم الارهابي ، ولن أرتكب مثل هذا الخطأ » •

خرج والدي من السجن بعد قضاء عام كامل ودون أن يقدم للمحاكمة ، أما حادث اعتقاله فقد كان بالنسبة لي مزيدا من الاصرار والعزيمة لمقاومة الاستعمار الاثيوبي •

كلما ازداد نشاط تنظيمنا وأخذت النضالات الجماهيرية طابع المظاهرات العنيفة والاضرابات ، كان القمع الاثيوبي يأخذ أيضا في الازدياد • فقد ازدادت حملة الاعتقالات وممارسة التعذيب للمعتقلين • كما تعرضت للملاحقة وأصبح اسمي في القوائم السوداء وتعرضت أسرتي للمضايقات ، وهذه الحالة تعرض لها الكثيرون من أمثالي ، كما أن أثيوبيا بدأت باجراءات كلها تشير بأنها ستبتلع أرتريا نهائيا بالتخلص من صيغة النظام الفدرالي التي كانت تعترف بالكيان المميز لأرتريا ، وكانت خطواتها عديدة ، منها منع تدريس اللغتين الرسميتين ، العربية والتقرينية وفرض لغة الامهرا الاثيوبية ، ثم انزال العلم الارتري والاكتفاء برفع العلم الاثيوبي •

هذا المناخ الذي ساد أرتريا آنذاك انعكس بداخل تنظيمنا ، فقد كانت هناك حالة من القلق والتململ في أوساط الجماهير انعكست بشكل حاد بقلب التنظيم ، بدأت مناقشات واسعة وسط أعضاء التنظيم ، كانت هناك أصوات تطالب بالسلاح واعلان الثورة •• وآخرون يطالبون بمباشرة الاغتيالات للخونة الأرتريين وللمسئولين الاثيوبيين بأرتريا •• وأصوات أخرى تطالب بالاستمرار في التعبئة السياسية مع التركيز على بناء التنظيم الذي يمكنه تسييس وتوجيه البندقية عندما تندلع الثورة ، وكنا نقوم بتلخيص هذه الآراء ونرفعها لقيادة التنظيم • كنت في البداية أعارض الاغتيالات الفردية لأن مظهرها الثوري لا يعطيها مضمون الثورة التي تعني تغييرا جذريا ولو انني مؤخرا لم أعد أعارض تصفية المتسلطين على الجماهير والجواسيس ، وفي نفس الوقت لم أكن

أرى تعارضا بين اندلاع الثورة والاستمرار في التعبئة والتنظيم ، فكلا العمليتين من الممكن أن تسيرا جنبا الى جنب ، الا أنني كنت أحذر بألا تكون احداهما على حساب الأخرى ٠

بازدياد تلك المناقشات واستمرارها رأت المجموعة القيادية التي كانت معي ضرورة دخول أحدنا لأرتريا ومقابلة قيادة التنظيم ومناقشة الأمر معها وحسم هذه المناقشات لتوحيد رؤية التنظيم ٠ ورشحت نفسي للقيام بهذه المهمة ٠ وعارض الكثيرون مبررين بأنني معرض للاعتقال أكثر من غيري ، ولكنني أقنعتهم قائلا : اننا جميعا معرضون للاعتقال في أي لحظة ويجب أن نسقط هذا السبب من تفكيرنا ، بل ربما أكون أقلكم تعرضا للاعتقال بحكم خبرتي بالطرق السرية التي سلكتها مرات عدة في دخولي وخروجي ٠

وصلت أسمرا دون أن تصادفني أي مصاعب ، وانزعجت قيادة التنظيم لقدومي قائلين : « لماذا لم يكلف شخص آخر غيرك بهذه المهمة ، فقد شملت الاعتقالات الكثيرين من الأعضاء ٠ ومع صمود الكثيرين منهم وتحملهم الا أن بعضهم قد انهار تحت تأثير التعذيب الوحشي وبدأ يقدم اعترافات كاملة ٠ ولسوء الحظ ان بعض الذين اعترفوا يعرفونك جيدا وقدموا معلومات قد تفيد المخابرات الاثيوبية في التعرف عليك ٠ وعليه فالمطلوب منك ألا تظهر نهارا في الطرقات ولا داعي للتجول ما لم تكن هناك ضرورة » ٠

مع أنني أحسست بالخطر الا أنني تظاهرت باللامبالاة ، وطمأنت زملائي قائلا : « ان الاعتقال والوقوع بيد الاثيوبيين أمر مكروه للنفس وقد يؤدي لتعطيل نشاطي ، ولكني مستعد لمواجهة الأسوأ وهو الموت ٠ وسأعمل بنصيحتكم لتفادي الاعتقال » ٠ ومن ثم بدأت اجتماعاتنا لمناقشة الآراء الدائرة بداخل التنظيم والتي حضرت خصيصا لمناقشتها ، وكانت تلك المناقشات تتطلب اجتماعات متصلة الأمر الذي تطلب بقائي بأسمرا لأيام عديدة ٠

وفي يوم مشئوم وقعت الواقعة ، وحدث ما هيأت له نفسي منذ وقت

طويل • ففي ذلك اليوم ، وبعد المغرب بقليل غادرت المنزل في طريقي للاجتماع • وقد توقفت بأحد الدكاكين لشراء سجائر ومن ثم واصلت طريقي • وبينما كنت سائرا التفت الى الخلف فرأيت شخصا يسير خلفي على بعد أمتار ، ولم أشك به في البداية ، ولكني وللتأكد أسرعت الخطى فاذا به يسرع •• وتباطأت في السير فخفف من سرعته ، ثم عرجت على طريق جانبي مظلم وتحسست المطواة التي كنت أحملها حيث قررت أن أسددها الى قلبه اذا استمر في متابعتي • وعندما التفت للخلف وجدتهم قد أصبحوا ثلاثة من ضمنهم ذلك الشخص الذي لم تخطئه عيني والذي شاهدته للمرة الأولى • وهنا تأكدت بأنني وقعت في الفخ الذي تفاديته طويلا ، كما اقتنعت بعدم جدوى المقاومة حيث انهم ثلاثة أشخاص وربما يحملون أسلحة نارية والمطواة التي أحملها لن تجدي شيئا ، وتمنيت لحظتها لو كان معي مسدس بكاتم الصوت لما ترددت في القضاء عليهم • وبدأ قلبي يدق بعنف وتراءت أمامي كل الصور البشعة عن تعذيب المعتقلين التي كنت أسمع عنها ، وبدأت أفكر في وسيلة للخلاص ، وبدون تردد اتجهت صوب شارع هيلاسلاسي علني أتمكن من الافلات منهم وسط الزحام • كان شارع هيلاسلاسي كما عهدته صاخبا بالموسيقى الغربية التي تصدح من شتى المحلات ، وأنوار النيون وحانات الشرب والبارات المنتشرة على طول الشارع وعرضه •• والسيارات الكثيرة ومن مختلف الأحجام الواقف منها والسائر والدراجات النارية •• والسائرين والواقفين من الرجال والنساء والأطفال • وبعد مسيرة دقائق في هذا الشارع المزدحم التفت للخلف لأجد أن الثلاثة أشخاص قد أصبحوا أربعة وهم يتابعونني كالظل ، وهنا توقفت أمام أحد المحلات وبدأت أتفرج على المعروضات متظاهرا بأنني سأشتري شيئا ، وعند التفاتي للوراء وجدتهم واقفين بانتظاري • قمت بشراء بعض الملابس وبطانية وخرجت من الدكان ، ولم أحاول بعدها الالتفات اليهم لأنني كنت واثقا بأنهم سائرون خلفي ، وأنهم سيستمرون في متابعتي لمعرفة مكان نزولي والأشخاص الذين سألتقي بهم ، ولهذا لم أحاول السير باتجاه مكان الاجتماع بل واصلت التسكع في شارع

هيلاسلاسي ٠

جلست في أحد البارات وطلبت كوبا من العصير وفنجانا من القهوة وبدأت في التدخين وأنا أفكر في زملائي الذين ينتظرونني للاجتماع ، ولا شك أنهم منزعجون لتأخري لأكثر من ساعة وهم الذين لم يألفوا مني التغيب أو التأخير عن الاجتماعات قبل هذا ٠ وحمدت الله لأنني اكتشفت أولئك السائرين من خلفي وأنا بعيد من مكان الاجتماع والا لكانت كارثة حيث أن أغلبية أعضاء القيادة كانوا في انتظاري للاجتماع ، وبدأت أفكر في كيفية الخلاص ٠ وأخيرا قررت أن آخذ الأمتعة التي اشتريتها ثم أقفز في عربة أجرة وأنطلق بها ٠ وفي الحال خرجت الى الطريق ووقفت على الرصيف وأشرت لاحدى العربات بالوقوف وحشرت نفسي بجانب السائق طالبا منه التحرك بسرعة ، ودون أن ألاحظ لارتباكي اندفع الآخرون الذين كانوا يراقبونني في المقاعد الخلفية من السيارة ، ولم أتنبه الا عندما مال أحدهم برأسه الى الأمام وهمس في اذن السائق بكلمات لم أتبينها ، ثم انطلقت بنا السيارة بأقصى سرعتها ، ولا أدري ما الذي أوحى لي بأن هؤلاء الأشخاص ربما يكونون أفراد عصابة للنهب وليسوا من رجال المخابرات الاثيوبية ، وهنا بدأ الأمل يداعبني ، والى ذلك الحين ، ومن هول المفاجأة ، لم أسألهم من يكونون أو أحاول المقاومة والاحتجاج ، فالتفت الى الخلف قائلا لهم : « من الممكن أن أتخلى لكم عن العربة التي استأجرتها لحسابي اذا كان مشواركم بعيدا ، فأنا أريد النزول هنا » ٠ وأشرت الى أحد الفنادق ٠ فقهقه أحدهم بطريقة وقحة ، وتحدث معي آخر كان وجهه متجهما ولاحظت أنه كان ممسكا مسدسا بيده ، وقال : « اننا ذاهبون سويا ٠٠ أعني نحن وأنت ٠٠ ولسلامتك نرجو ألا تقوم بأي حركة » ٠ والى هنا كان يداعبني الأمل بأنهم ربما يكونوا أفراد عصابة ، ولكن هذا الأمل قد تبخر عندما توقفت بنا السيارة أمام أحد المباني الكبيرة والذي يتكون من عدة طوابق ٠

ترجلوا جميعهم قبلي وطلبوا مني النزول ، فحملت أمتعتي التي

اشتريتها ونزلت من السيارة • أمسك أحدهم بذراعي الأيمن وآخر بذراعي الأيسر واثنان من الخلف واقتادوني الى داخل المبنى ، ووقفوا بي في احدى ردهات المبنى ، وتقدم أحدهم ودخل لاحدى الحجرات الجانبية وعاد ومعه شرطيان مسلحان أحاطا بي ، أما المجموعة التي قامت باعتقالي فقد انصرفت لتعود بعد دقائق • وقال لي أحدهم : « هيا بنا وأرنا المنزل الذي تقيم به » • فأجبته بأنني لا أقيم في منزل • وهنا قال : « أقصد الفندق الذي تنزل به » • ورددت عليه بأنني لا أقيم في أي فندق • واشتاط غضبا وهو يقول :

ـ لا تقيم في منزل ولا في فندق فأين تقيم ؟ هل تنام في الجامع أم على أرصفة الطرقات ؟ وفي الطريق ألم تطلب منا النزول لتذهب الى الفندق الذي تقيم به ؟

ـ لا داعي لهذا الغضب ، فأنا لا أقيم في الجامع أو على الأرصفة • فقد دخلت لمدينة أسمرا هذا المساء ، وقبل أن أحدد أين أنزل قمتم باستضافتي هنا عندما اختطفتموني من الطريق • أما عن الفندق الذي أشرت اليه في الطريق فهو المكان الذي اخترته ولم تسمحوا لي بالنزول فيه •

فانصرف هو وجماعته دون أن يردوا بكلمة وتركاني للشرطيان المسلحان • وهنا بدأت أردد في سري عبارة : « اذا كان من الموت بد فمن العار أن تموت جبانا » • واستعدت هدوئي محاولا ألا أظهر ما يثير شبهتهم أو يجعلني ضعيفا أمامهم • وبسرعة بدأت في تخمين الأسئلة التي ستوجه والأجوبة التي سأرد بها • واتخذت قرارا بعدم الادلاء بأي اعتراف مهما كانت وسائل التعذيب التي سأتعرض لها •

كانت دقائق قليلة تلك التي اتخذت فيها ذلك القرار وناقشت نفسي حول الأسئلة والأجوبة ، ولكنها كانت كالدهر • وعندما أدخلوني الى أحد المكاتب كنت هادئا وممتلئا بروح التحدي حيث ان كل الجرائم الإثيوبية تجسدت أمامي وفي مقدمتها اعتقال والدي ومرض والدتي • ووقفت شامخا برأسي الى أعلى ورافعا قامتي حاملا أمتعتي بيدي اليسرى

بعد أن أخلى الشرطيان ذراعي . وقد تقدم أحدهما الى شخص جالس وراء مكتب فخم تعلوه على الحائط صورة الامبراطور هيلاسلاسي والأمبراطورة منن وهمس بعض كلمات في اذنه ، وكان شرطيا برتبة عريف قد دخل في تلك اللحظة وهو يحمل بعض الملفات ثم حيا الشخص الجالس ووضع الملفات أمامه وحياه للمرة الثانية وانصرف • وهنا انفجرت غاضبا متظاهرا بالغباء وقلت بصوت عال : « همسات في الطريق وهمسات في المكتب • الحمد لله فان رؤية ذلك الشرطي طمأنني بأنني في مكتب حكومة • فمنذ أن قمتم باختطافي من الطريق كنت أعتقد أنكم عصابة نهب وسرقة » • وشددت على كلمات « عصابة نهب وسرقة » وبصوت أعلى • ولاحظت نظرات الغضب على وجوه الجميع ، كما أن الاندهاش كان باديا على رئيسهم الجالس خلف الطاولة • ونظر الى الواقفين أمامه وصرفهم خارج المكتب بحركة من يده • طلب مني الجلوس بصوت هادىء ، ولكني رفضت قائلا : « لا بد وأن أعرف جريمتي » •

ورد ذلك الضابط الجالس أمامي قائلا :

ـ ولماذا تسبق الأحداث وتلصق بنفسك تهمة الجريمة ، فنحن لم نقل أنك مجرم بل لم نقل شيئا حتى الآن • ألا يجوز أن التباسا قد جرى ؟

ـ اذا كان الذي يجري التباس بشأنه يتم اختطافه من الطريق العام وعلى ظهره مسدس فلا أدري ماذا تفعلون بالمجرم الحقيقي !

ـ هدىء من روعك واجلس وستعرف كل شيء ، وليس هناك ما يجعلك تنفعل وتغضب ، وكلها مسألة اجراءات بسيطة ستذهب بعدها لحال سبيلك •

وعندما جلست قدم لي سيجارة والبسمة تعلو ثغره ، فقلت في نفسي : « رغم علمي بزيف هذه البسمة والتظاهر بالمعاملة الطيبة

فعليك ألا ترفضها وعليك أن تجعلهم يصدقون بأنك استكنت لهم » ٠ ومن ثم تناولت السيجارة وشحرته بصوت مهذب ، وعندها استأذن مني ذلك الضابط معلنا بأنه سيعود خلال دقائق ثم غادر المكتب ٠ وعندما لم يعد بعد مرور خمس دقائق استغربت كيف يطمئنون لي ويتركونني وحيدا بمكتبهم المليء بالأوراق والملفات ، وبحركة لا ارادية التفت يمينا فاكتشفت فتحة صغيرة دائرية وسط الباب المغلق لا تبلغ دائرة قطرها عشرة سنتيمترات ، وان عيونا تطل من هذه الفتحة وتتفرس في وجهي لدقائق ثم تختفي لتحل محلها عيون أخرى وتمارس نفس الشيء ٠ فاعتدلت في جلستي وأصبحنا نتبادل النظرات ، فهم كانوا ينظرون الي بشكل كامل عبر هذه الثغرة أما أنا فلم يكن بمقدوري الا مشاهدة حدقات العيون فقط دون أن أتبين الاشخاص ٠ ولم يداخلني شك بأنهم أحضروا جواسيسهم ليحاولوا التعرف علي ، وربما يكون ايضا بعض من الذين انهاروا أثناء التعذيب من أعضاء التنظيم من ضمنهم ودون أن أكتشف شخصياتهم يودون الكشف عن شخصي ٠

بعد ساعة تقريبا توقفت حركة العيون التي تطل من ثغرة الباب باتجاهي ، وظللت جالسا بمقعدي حتى منتصف الليل دون أن يعود ذلك الضابط ٠ وطوال تلك الساعات كنت أناقش نفسي وأفكر فيما ينتظرني من تحقيقات وعمليات التعذيب ٠ وكان بدني يقشعر كلما استعدت في ذاكرتي كل ما كنت أسمعه عن عمليات التعذيب ٠ وكررت لنفسي قراري الحاسم والنهائي وهو عدم الاعتراف بأي شيء ولو أدى الأمر للموت ، وكنت مقتنعا بأنه لو اعترفت ولو بشيء بسيط فان هذا سيشجعهم لاستعمال المزيد من التعذيب لانتزاع كل ما أعرف ، وبذا أكون قد سببت أضرارا بليغة للتنظيم وفي نفس الوقت أكون قد أثبت ادانتي أمام الاثيوبيين ٠ والأسوأ من كل ذلك أكون قد وصمت بالعار والجبن أمام زملائي وأمام كل من يعرفني والموت أهون من هذا ، اذن ٠٠ لا اعتراف مهما كان الثمن ٠

وبينما أنا مستغرق في أفكاري فوجئت بدخول ضابط آخر غير ذلك

الذي استقبلني ، وفوجئت أكثر عندما حياني بعد أن استقر في جلسته قائلا : « أهلا بالسيد صالح • آسفين على تأخيرك فقد صادفتنا مشغوليات طارئة » • ولم أرد على تحيته متظاهرا بأن كلامه غير موجه لي • وللحظات بدأنا نتبادل النظرات ، فربما كان يريد أن يعرف تأثير المفاجأة على وجهي • أما أنا فقلت في سري : « الآن بدأت اللعبة بيننا وسنرى أينا الذي يظفر بها » • وكنت أتفرس في وجهه محاولا دراسة شخصيته لأن الوجه يعبر غالبا عن الشخصية وعن الانفعالات الداخلية للانسان •

استأنف الضابط حديثه قائلا :

ـ لماذا لا ترد على التحية ؟

ـ عفوا ، هل تحدثت معي ؟

ـ وهل هناك شخص ثالث غيري وغيرك بهذه الغرفة ؟

ـ ولكني سمعتك تحيي شخصا اسمه السيد صالح وليس هذا اسمي •• ولأقدم لك نفسي فأنا أدعى مصطفى •

وهنا علت وجهه ابتسامة صفراء وقال :

ـ بحكم تجربتي أعرف بأنكم جميعا تنكرون في البداية ، ولكن في النهاية تعترفون بما تعرفون وبما لا تعرفون ، ولكن هذه هي المرة الأولى التي أصادف فيها شخصا ينكر حتى اسمه •• وقهقه ضاحكا •

لم أشاركه في الضحك ولكني أجبت قائلا :

ـ وما الذي يجبرني على التنكر لاسمي ويعرضني لتجربة اعترف فيها بما أعرف وبما لا أعرف ، وحسب علمي فان أي من الجماعة التي أتعامل معها لم يقع في يدكم ولم يخطرني بذلك • واذا كانت الظروف المعيشية والبحث عن الرزق بدأت تعرضنا للخطر فسأبحث عن وسيلة أخرى للمعيشة •

ظهرت الدهشة على وجه الضابط المحقق وقال :

ـ الجماعة ؟ من هم ؟ البحث عن الرزق ؟ وسيلة أخرى للمعيشة ، عن أي شيء تتحدث يا هذا ؟

ـ اسمع يا سيدي لا تندهش ولا تنفعل ، سوف أعترف لك بكل شيء دون أن أكبدك وأكبد نفسي المشاق ٠

وقبل أن أسترسل في الحديث قاطعني الضابط قائلا :

ـ جيد ٠٠ رائع ، هذا ما نريده وهو لمصلحتك ، هيا واصل حديثك ٠

ثم أمسك بورقة وقلم ، فواصلت الحديث :

ـ كما تعرف ان الظروف المعيشية صعبة ، وقد دفعتني للاشتغال بالتهريب ٠ فأنا أقوم بشراء بعض البضائع من أسمرا وأقوم بتسويقها في السودان وهي البن والسكر وفتائل الصوف والأقمشة النسائية ، وبقيمة ذلك أقوم بشراء بضائع من السودان وأساسا الدمورية وأبيعها بداخل أرتريا ، والجماعة الذين ذكرتهم هم أولئك الذين يبحثون عن رزقهم بنفس الوسيلة ٠

وتوقفت لأرى ردود فعل هذا الحديث ، فلاحظت خيبة الأمل على وجه الضابط المحقق مع حالة غضب مكبوتة يحاول اخفائها ، ولكنه تمكن من استعادة هدوئه بسرعة وقال :

ـ اسمع يا صالح ، دعك من التمويه والتنكر لأسمك وحديث البحث عن الرزق والتهريب والبن والدمورية ، فنحن انتظرناك طويلا ، وفي كل مرة كنت تفلت من يدنا ٠٠ ولعلمك فنحن نعرف عنك كل شيء ٠٠ ونعرف التخريب والفتنة التي تباشرها أينما حللت ٠ وبالرغم من كل ذلك فنحن نود مساعدتك لسبب بسيط وهو أنك دفعت من آخرين للقيام بهذا العمل ، ونود معرفة أولئك الذين كلفوك بهذا العمل وبعدها سنطلق سراحك ٠ والآن أخبرنا من الذي كلفك لتنشر الفتنة والكراهية ضد الامبراطورية الاثيوبية ؟

وعندما كان يتحدث الي حاولت جاهدا رسم علامات الدهشة والاستغراب على وجهي ، وما ان وجه سؤاله الأخير حتى بادرت بالجواب :

ـ لقد أخبرتك بأن اسمي مصطفى وليس صالح • أما عن باقي حديثك فلا أعرف عنه شيئا لأنني كما أخبرتك سابقا لا عمل لي الا التجارة التي أمارسها دون ترخيص لأكسب قوتي الضروري • وليس هناك من دفعني لذلك سوى الحاجة للعيش • ولم أكن أفهم بأن التهريب يعني ممارسة التخريب ونشر الفتنة والكراهية ضد الامبراطورية الاثيوبية •

وهنا وقف الضابط وهو يزمجر غضبا وقال : « لا فائدة •• فقد حاولنا مساعدتك ولكنك لا تستحق المساعدة ، وسنعرف كيف نجعلك تعترف بكل شيء » • ثم غادر المكتب ، وكانت الساعة آنذاك تشير الى الثانية صباحا • وعندها بدأت أقول بصوت شبه مسموع : « لا بد انه متعجل للذهاب الى منزله ، وأولئك الأوغاد الذين ألقوا القبض علي لا شك أنهم الآن نائمون في أحضان زوجاتهم ومع أطفالهم وربما يكونون يحلمون بمكافأة لالقائهم القبض علي • أما أنا فجالس هنا على المقعد لسبع ساعات دون أن أنال شيئا من الطعام أو الشراب ولا أدري ماذا ينتظرني خلال الساعات القادمة » • وقبل أن أكمل حديثي مع نفسي دحل الى المكتب جنديان وطلبا مني النهوض ومرافقتهما • وعندما هممت بحمل أمتعتي التي اشتريتها طلبا مني تركها ، وأمسك أحدهما بذراعي الأيمن والآخر بذراعي الأيسر ، وعند خروجنا من المكتب تقدمنا جندي ثالث وهو يحمل مفاتيح كثيرة ، وبعد مسيرة دقيقتين تقريبا دخلنا فناء واسعا فتوقفت المسيرة ليقوم الجندي الثالث بفتح باب زنزانة صغيرة ودفعوا بي داخلها ثم أغلقوا الباب دون أن يتحدثوا معي ولا بكلمة واحدة •

كانت الزنزانة مظلمة بحيث لم أتبين اذا كان بها آخرون غيري •

وكانت تنبعث منها رائحة نتنة ·· وكان البرد بداخلها شديدا حتى أصبحت أرتجف من قمة رأسي حتى أخمص قدمي ، ولم أتمكن من الجلوس على البلاط البارد والخالي من أي فرش ، ومما زاد في معاناتي واحساسي المفرط بالبرد أنني لم أتناول شيئا من الطعام لأكثر من اثني عشر ساعة · بقيت واقفا على الأقدام مدة من الزمن ، وبعدها بدأت أشعر بالتعب والنعاس ، فجلست على الأرض ثم استلقيت على البلاط وتكومت بحيث ان كل جزء من جسمي كان يحاول الاحتماء بالجزء الآخر اتقاء للبرد القارص ، وعندها خرجت مني زفرة في شكل أنين وأنا أردد في سري : « لم أكن مخطئا يوم جندت نفسي في محاربة الاستعمار الاثيوبي الذي يتفنن في تعذيب البشر · واذا كنت قد أقسمت قبل هذا لمحاربته فانني الآن أنذر نفسي لمحاربته حتى طرده خارج أرتريا » · وبعد برهة غلبني النعاس ورحت في نوم عميق ·

لم أدر كم من الوقت مضى علي وأنا نائم ، ولكني استيقظت على أثر ضوضاء وصلت الى مسمعي خارج الزنزانة ، وبعدها سمعت حركة المفاتيح على باب زنزانتي ثم سحب المزلاج وانفتح الباب · وكنت آنذاك جالسا القرفصاء وعيني مركزتين باتجاه الباب ، فتبينت بأن الوقت ما زال ليلا وربما كان الصبح قريبا لأنني سمعت ديكا يصيح · على اثر فتح باب الزنزانة شاهدت مجموعة من الجنود تحدث الي أحدهم طالبا مني النهوض والخروج · وما ان خرجت حتى انقض علي اثنان وأمسكا بيدي ودفعني ثالث بقوة من ظهري وأمرني بالمشي · شعرت في تلك اللحظات بشيء من الخوف وتلاحقت أنفاسي ودقات قلبي كما أنني لم أكن أفكر بشيء ، وبعد دقائق من السير وقفوا بي أمام حجرة مغلقة وتقدم أحدهم وفتح بابها ، فتركني الجنديان الممسكان بيدي فدفعني آخر بكل قوته من ظهري حتى كدت أقع على وجهي ، فوجدت نفسي في منتصف الغرفة ، فأغلقوا الغرفة بالمفتاح وتركوني وحيدا بداخلها ·

كانت الغرفة مضاءة وهي واسعة ، ولكن الذي لفت نظري أنها

خالية تماما من المقاعد والطاولات وأي شيء آخر ، وبقيت حائرا في تفسير هذا المسلك ، أن يأخذونني ليلا من داخل الزنزانة المظلمة وينقلونني الى هذه الغرفة المضاءة والخالية من أي شيء ، وبعد فترة أحسست بأن الغرفة دافئة وليست مثل الزنزانة السابقة • فقلت في نفسي : « ان هذه ميزة يجب الاستفادة منها • فبدلا من أن تتعب نفسك بالتفكير والحيرة عليك أن تواصل نومك في هذه الغرفة الدافئة » • وفي الحال استلقيت على الأرض ممنيا نفسي بنوم هادىء •

بعد مضي نصف ساعة تقريبا ، وكنت ما أزال صاحيا فتح باب الغرفة واندفع مجموعة من الجنود ، وصاح أحدهم ـ وأعتقد أنه رئيسهم ـ « ما شاء الله نائم ؟ انهض » • وبنظرة عاجلة تبينت بأن الشر كان باديا على عيونهم ونظراتهم وان عضلاتهم البارزة وصدورهم العريضة لم توح لي بالخير ، ولم يحتاج الأمر لذكاء لمعرفة مهمتهم ، وتقدم رئيسهم نحوي بخطوات بطيئة وتوقف أمامي ليقول : « كانت أمامك فرصة للنجاة بجلدك عندما كنت تجلس على مقعد مريح بالمكتب وتوجه لك الأسئلة بطريقة مهذبة ، ولكنك أضعت تلك الفرصة وبلغ بك التمثيل والتمويه للدرجة التي تتنكر فيها لاسمك ، أما هنا فستجد المعاملة التي تليق بك وستعترف بكل شيء ، والآن أخبرنا هل اسمك مصطفى أم صالح ؟ » •

وما ان رديت بأن اسمي مصطفى حتى فوجئت بيده ترتفع وتهوي على وجهي بصفعة قوية بحيث لم أعد أرى شيئا سوى خطوط سوداء وبيضاء • وقبل أن أفيق من الصدمة انقض علي الآخرون يشبعونني ضربا وركلا وصفعات بأيديهم وفي مواقع مختلفة من جسدي •واستمرت هذه الحفلة لوقت لم أتمكن من تحديده وأنا أترنح مرة وأسقط على الأرض مرات فترفعني أيد عديدة الى أعلى ثم تواصل ضربها • وعبثا كنت أحاول أن أتفادى ضرباتهم أو أحاول مقاومتهم سوى مرة واحدة جمعت فيها كل قوتي ووجهت صفعة عنيفة لأحدهم ، الا أن ردهم كان عنيفا حيث توالت الصفعات على وجهي من كل الأيدي بحيث لم أكرر

هذه المحاولة ثانية • عندئذ صاح رئيسهم : « هـذا يكفي الآن •• اتركوه وحتما سيعترف » • فتوقفوا جميعهم عن الضرب الا واحد فقد سدد لكمة قوية للجزء الأسفل من بطني • وهنا وللمرة الأولى شعرت بألم قاتل وسقطت على الأرض أتلوى ممسكا ببطني والتي خلتها وكأنها قد انفصلت عن جسدي ثم بدأت أتقيأ حتى توهمت وكأن جزءً من أمعائي بدأ يخرج من حلقي وتمددت على الأرض فاقدا الوعي تماما • وعندما استعدت وعيي وفتحت عيني رأيت أحدهم يدخن سيجارة وآخرون يتحدثون والبعض يضحك وكأنهم يقضون سهرة ممتعة ، فشعرت بغضب جارف ولم أعد أخش شيئا ، ولم أشأ أن أظهر أمامهم بمظهر الضعف والتخاذل ولذا تحاملت على نفسي ونهضت واقفا رغم الآلام المبرحة التي كنت أحس بها • وهنا تقدم رئيسهم باتجاهي بخطواته البطيئة كما تحلق الآخرون من حولي • وخاطبني رئيسهم : « انه لأمر جيد حيث ما زلت قادرا على الوقوف • وهذا ليس لقوتك البدنية بقدر ما يعود لرأفتنا بك ولم نتعمد ايذائك • والآن نريدك أن تتعاون معنا وتعترف كما تعاونا معك • وأحذرك بأن اصرارك على الانكار سيؤدي بك للموت الحتمي • والآن قل لنا ما اسمك ؟ مصطفى أم صالح ؟ » • وبأعلى صوتي صرخت في وجهه : « اسمي مصطفى » • وعندما رفع يده الى أعلى ليصفعني بها كنت أسرع منه حيث قمت بحركة لا ارادية بتسديد لكمة قوية الى فكه فترنح الى الخلف ممسكا وجهه بيديه ، الا أن الآخرين انقضوا علي كالوحوش وتوالت الضربات والصفعات واللكمات من كل صوب وفي كل موضع من جسمي ، وفي هذه المرة لم تطل مقاومتي ولم أسمع أوامر رئيسهم بالتوقف عن الضرب لأنني سقطت على الأرض ورحت في غيبوبة تامة •

ربما تكون الرغبة في البقاء هي التي دفعتني للتفكير السريع • فعندما استعدت وعيي في هذه المرة لم أفتح عيني ولم أقم بأي حركة بل ظليت راقدا وممددا على الأرض • وبدأت أستعرض شريط الأحداث منذ لحظة اعتقالي •• والأسئلة التي وجهت لي في التحقيق ، ثم أخذي الى الـ نزانة المظلمة المثلجة ، وأخيرا عملية التعذيب الوحشية

التي أتعرض لها في هذه الغرفة • وفي أثناء هذا الاستعراض اكتشفت بأنني ارتكبت خطأ بعدم اعترافي باسمي ، لأنهم سيحضرون والدي من قريته البعيدة وكل من يعرفني للتأكيد بأن اسمي صالح • وهنا عاتبت نفسي على هذا الخطأ وقررت الاعتراف باسمي الحقيقي فقط دون الاعتراف بأي شيء آخر •

عند وصولي لهذا القرار فتحت عيني ثم حاولت النهوض ، فتنبهت فرقة التعذيب وتحرك رئيسها بمشيته المعتادة باتجاهي ، وهنا تظاهرت بالخوف والهلع قائلا : « أرجوك لا •• سأعترف بكل شيء » • فظهرت ابتسامات الرضى والظفر على وجوههم جميعا ، وهنا اندفع داخلا الى الغرفة الضابط الذي استقبلني بالأمس عند اعتقالي ، وصاح في فرقة التعذيب قائلا : « ما هذا ؟ من الذي أمركم أن تفعلوا به هكذا ؟ انني سأوقع بحقكم عقوبة رادعة » • فرد رئيس فرقة التعذيب قائلا : « هو الذي تحرش بنا انظر ماذا فعل » ثم أشار الى فكه الذي بدا متورما وأشار الى وجه شخص آخر كانت عينه مغلقة تماما من الورم • نظرت اليهم وبصقت على الأرض باحتقار وتمنيت لو دخلت معهم في معركة متكافئة ، معركة رجل لرجل ، فسحبني الضابط من يدي وهو يكرر عبارات الاعتذار وطلب مني مرافقته الى مكتبه •

ولم أشك مطلقا بأنه كان مختبئا خلف أحد أبواب غرفة التعذيب وربما كان يشاهد ويستمع الى كل ما يدور بداخلها ، وربما جذبته عبارة « سأعترف بكل شيء » التي نطقت بها قبل قليل • أجلسني بنفس المقعد الذي كنت أجلس عليه بالأمس وهو يردد عبارات الاعتذار •• ومرة ثانية طالعتني صورة الامبراطور هيلاسلاسي والامبراطورة منن ، فعاودتني حالة الغضب والثورة الداخلية التي كانت تعتمل في نفسي • وتنبهت ان ملابسي كلها ملطخة بالدماء • وبينما كنت أتحسس جسمي لأتبين الأجزاء التي نزفت هذه الدماء نظر الي الضابط بتأثر مفتعل وقال :

ـ انني أعتذر لما جرى لك وسنعرضك على طبيب ليقوم بعلاجك ·

وتمنيت أن أوجه له صفعة عنيفة وقلت :

ـ كفى تمثيلا · فجنودك قضوا الليل بكامله يشبعونني ضربا حتى أدموا جسدي ، وأنت الآن باستخفافك بعقلي تحاول أن تدمي مشاعري لو كانت المشاعر تنزف دما · أتظن أنني حيوان لا أفقه شيئا حتى أصدقك أن هؤلاء الجنود تصرفوا دون أوامر منك أو غيرك من الضباط ؟ لقد قلت لهم أنني سأعترف بكل شيء وأقسم بأنك كنت تشاهد وتسمع كل شيء من مكان خفي ، والآن دعني أعترف أمامك ولا داعي للتمثيل ·

تبينت مشاعر مختلطة من الدهشة والارتباك والغضب في وجهه وهو يخاطبني قائلا :

ـ أتظن أنني أمثل وأضحك عليك ؟ لا بأس ·· فقد أصابك ما يجعلك متهيجا وغاضبا بهذا الشكل ·

وضغط على زر موضوع أمامه ، وعندها دخل رئيس المجموعة التي تولت تعذيبي وحيا الضابط بحركة من يده وقدمه ، فسأله الضابط :

ـ هل قدمتم له شيئا من الطعام أو الشراب أم أنكم لا تعرفون سوى الضرب لمثل هذا الرجل المهذب ؟

وعندما نفى الجندي تقديم أي شيء من الطعام لي انتهره الضابط قائلا :

ـ كما قلت لكم سابقا سأوقع بحقكم عقوبة رادعة بحيث لا يتكرر منكم مثل هذا العمل · والآن اغرب عن وجهي واحضر حالا كوبا من الشاي باللبن فهذا الرجل لم ينل شيئا من الطعام لأكثر من اثني عشر ساعة وعليكم باعداد فطور دسم له لحين أن ينتهي من حديثه معي ·

نظرت اليه بسخرية واضحة وازداد احتقاري له لأنه يتوهم بأنه قادر على خداعي بهذه الحركات من التمثيل • عندما أحضر الجندي كوب الشاي باللبن كان يتصاعد منه البخار ، تناولته في الحال وبدأت في ارتشافه • فقد كانت الساعة تشير الى الثامنة صباحا وأنا لم أكن قد نلت شيئا من الطعام منذ الواحدة من ظهر البارحة • وقد لاحظ الضابط أنني أرتشف الشاي بتلذذ فقدم لي سيجارة بدأت في تدخينها بشراهة• عندما أتيت على كوب الشاي خاطبني الضابط قائلا : « والآن ولحين أن يتم اعداد الفطور فمن الأحسن أن نبدأ في عملنا » ، فوافقته باشارة من رأسي دون أن أنطق بكلمة • فوضع أمامه بعضا من الأوراق ثم أمسك بالقلم ونظر الي قائلا :

ـ ما اسمك ؟

ـ اسمي صالح •

ـ ولماذا تنكرت لاسمك الحقيقي بالأمس ؟

ـ كما قلت سأعترف بكل شيء • انني قد تمكنت من توفير مبلغ من المال وكنت أفكر بفتح متجر ، وكنت أعرف ان هذا يحتاج لاستخراج رخصة تجارية ، والرخصة لا يمكن استخراجها الا باسمي الحقيقي ، وخشيت عندما اعتقلتموني بالأمس أن يتسبب هذا في اعاقتي من الحصول على الرخصة التجارية ، ولهذا اضطررت للتنكر لاسمي الحقيقي •

وهنا ظهرت علامات الضيق على محياه وخاطبني قائلا :

ـ لقد قلت أنك ستعترف بكل شيء ولم تعترف الا باسمك الحقيقي ولم تخطرنا عن تلك المجموعة التي دفعتك لنشر الفتنة ضد الامبراطورية الاثيوبية • وبدلا من ذلك عدت لحديث الأمس عن التهريب والتجارة ، انني أنصحك أن تعترف بالحقيقة حتى يتم الافراج عنك وتغادر هذا المكتب لمنزلك أو فندقك أو الى أي مكان تشاء • وعدا ذلك فانك ستواجه

أهوالا لا تتصورهـا • ومـا حدث لـك بالأمس ليس سوى مداعبات اضطرتك أن تعترف باسمك • أما الأسوأ فهو في الطريق وأرجو ألا تعرض نفسك للهلاك •

وهنا ابتسمت ساخرا وقلت له :

ـ اذن كنت صادقا عندما وصفتك قبل قليل بأنك تمثل وتحاول خداعي ، في الوقت الذي كنت تعرف بما جرى لي بل ربما تكون أنت الذي أمرتهم باشباعي ضربا • فأرجوك ألا تعتبرني حيوانا لا يفقه شيئـا •

ولم يتمالك أعصابه وزمجر قائلا :

ـ بالفعل كنت صادقا • فقد كنت أعرف كل شيء • ومنذ الأمس عاملناك بلطف ظنا منا أن هناك من دفعك لهذا الطريق ، وكنـا نود التوصل اليه ليأخذ جزاءه ونخلي سبيلك • ولكن من الواضح لنا الآن أنك أحد رؤوس الفتنة • والآن كفاك وقاحة فقد تحملناك منذ الأمس أكثر من اللازم • ولن أسمح لك بعد الآن بتوجيه الأسئلة أو التعليقات• بل عليك بالرد على أسئلتي فقط والا ستتحمل النتائج • والآن عليك

بالاجابة على سؤالي : من الذي دفعك الى طريق التخريب والفتنة ؟

ـ سبق وأخبرتك كما أخبرت زميلك ليلة البارحة بأنني لا أعرف شيئا عمن تتحدثون وتتهمونهم بالفتنة والتخريب ، فأنا أعمل بالتهريب لأكسب رزقي • وهأنذا أعترف بهذه الحقيقة والتي أتحمل نتائجهـا سواء كان بالسجن أو الغرامة •

ما ان انتهيت من اجابتي حتى ضغط الضابط على أحد الأزرار الموضوعة أمامه فظهر شرطي يتمنطق مسدسا وحياه بحركة رشيقة من يده وقدمه •• فهمس له الضابط ببعض الكلمات ، ثم طلب مني أن أتبعه • أمسك الشرطي بيدي اليمنى يتقدمه شرطي آخر يحمل حزمة من المفاتيح وقادني الى الزنزانة ودفعني بداخلها ثم أغلـق الباب ،

وبعد قليل أحضروا لي قطعة من الخبز الأسود وقليلا من الأدام الذي قد تعافه الكلاب ، فهمست : « نعم الفطور الدسم الذي أمر باعداده لي ذلك الضابط المخاتل » ، وبدأت في التهامه لأنني قررت أن أوطن نفسي على هذه الحياة الجديدة • وبعدها استلقيت على الارض لأنني كنت أحس بآلام مبرحة من جراء الضرب الذي تعرضت له كما كنت أحس بصداع حاد ورحت في نوم عميق • واعتقد أن الوقت كان بعد الظهر عندما فتح باب الزنزانة وأطل منه شرطي وانتهرني بصوت عال قائلا : « قم وتناول طعامك » • وعندما مددت يدي لتناول رغيف الخبز الأسود وصحن الأدام همس لي بصوت منخفض : « ان زملاءك يأسفون لما جرى من اعتقالك وتعرضك للضرب ، الا أنهم يشيدون بصمودك ويقولون لك حسنا فعلت باعترافك باسمك الحقيقي ، ويطلبون منك الصمود لأنك ستتعرض للمزيد من التعذيب ، الا أنها أيام قليلة ستنقل بعدها للسجن اذا نجحت في تحمل ما ستصادفه من متاعب ، ولا تحاول أن تغير في أقوالك التي أدليت بها للمحقق » • وقبل أن أسأله انصرف بسرعة وأغلق باب الزنزانة •

ظليت لفترة حائرا في هذه المفاجأة غير المتوقعة • ثم بدأت أفكر : اذن ان تنظيمنا قد تمكن من التسلل الى داخل قلاع الاحتلال الاثيوبي ، وان زملائي قد تمكنوا من تحديد مكاني وتابعوا كل ما جرى لي واتصلوا بي وأنا داخل الزنزانة في أقل من أربع وعشرين ساعة من اعتقالي •

شعرت بحالة من الارتياح أنستني الآلام الموجعة التي كنت أشعر بها في جسدي • ورقدت على الارض لأواصل نومي ودون أن أتناول شيئا من الطعام • كنت أمني نفسي أن يتمكن زملائي من عمل شيء لانقاذي مما أنا فيه من مأزق بدلا من أن يطلبوا مني الصمود أمام التعذيب الوحشي •

للمرة الثانية استيقظت من النوم على أثر ضوضاء خارج الزنزانة

وحركة في بابها ، فانفتح الباب ولاحظت أن الوقت كان ليلا لأفاجأ بمجموعة من الجنود تقف خارج الزنزانة ويطلب مني أحدهم بصوت جهوري أن أنهض • وهنا تذكرت بأنني لم أتناول طعامي حيث كنت أشعر بالجوع والبرد القارص • وكنت أريد أن أمد يدي لتناول الطعام لولا أنني تبينت في مجموعة الجنود الواقفة أمامي واحدا من أولئك الذين باشروا تعذيبي في الليلة الماضية،فسحبت يدي وشعرت بقشعريرة تسري في بدني ، وعندما أصبحت خارج الزنزانة حسب أوامرهم اقتادوني الى تلك الحجرة اللعينة •• حجرة التعذيب • كانت الغرفة مضاءة ودافئة ، الا أن هذا لم يغرني بانتهاز الفرصة والاستلقاء على الارض والنوم كما فعلت في الليلة السابقة لأنني كنت أعرف ما ينتظرني بعد قليل • وكما توقعت فقد دخلت فرقة التعذيب التي سهرت معي الليلة السابقة يتقدمها رئيسها ثم أغلقوا باب الغرفة • وتقدم رئيسهم باتجاهي وبخطواته البطيئة ليقول : « اسمع يا صالح ، نحن متأسفون لما جرى بيننا وبينك ليلة أمس ، ولا نريده أن يتكرر الليلة أيضا • ولا داعي لأن تلجأ للتمويه ثم تضطر لقول الحقيقة بعد أن تكون قد ألحقت بنفسك أضرارا كما حدث بالأمس • لذا نريدك أن تتعاون معنا وتذكر تلك المجموعة التي دفعتك للفتنة والتخريب » • وكان يتحدث بصوت هادىء ومهذب • وقلت في نفسي : « ان هذا الأجير الذي باع نفسه للشيطان يتصور بأنني اعترفت ليلة البارحة من جراء صفعه وركله وضربه لي ، ولا يعرف أنني قررت ذلك بملء ارادتي » • أجبته بصوت هادىء ورزين : « ليس بيني وبينكم أي أحقاد أو ضغائن •• بل انها المرة الأولى التي نتصادف فيها داخل هذه الغرفة ، وعندما أشبعتموني ضربا ليلة الأمس أعرف بأن هذا تم تنفيذا لأوامر ضباطكم والذين يتلقون أوامرهم بدورهم من جهات أعلى • ولذا أنا الذي أريدكم أن تتعاونوا معي ، فمجموعة الفتنة والتخريب التي تتحدثون عنها لا أعرف عنها شيئا • وعملي هو ممارسة التجارة دون رخصة ، والبحث عن لقمة العيش هي التي دفعتني لذلك • واعتقد أنكم أيضا

تمارسون مهنتكم هذه لتأمين معيشتكم وليس لحبكم في تعذيب الأبرياء من أمثالي » ٠

كنت أعتقد أن كلامي العاطفي سيؤثر فيهم ٠ ولكن ما ان توقفت عن الحديث حتى هوت صفعة قوية على وجهي من رئيس المجموعة ثم هجموا جميعهم علي كالوحوش يتسابقون في اشباعي بالضرب ٠ وتكرر ما جرى في الليلة السابقة بشكل أعنف الا أن احساسي بالألم قد تزايد ، وفي احدى نوبات الاغماء وعندما استرديت وعيي شعرت بألم حاد في فمي فتحسسته فاذا بي أفاجأ بأن اثنين من أسناني قد خلعا حيث وجدت مكانهما خاليا كما أن وجهي كان متورما ٠ وعندما فتحت عيني كان ذلك بصعوبة بالغة وان الرؤيا بالنسبة لي كانت متعذرة ٠ وعندئذ أمرني رئيس مجموعة التعذيب بالنهوض ، وقد ميزته من صوته ٠ وعندما حاولت الوقوف على قدمي سقطت على الأرض ثانية ، فتقدم اثنان منهم وأمسك كل منهما بيدي ورفعاني عاليا ثم سحباني الى الزنزانة وألقيا بي هناك وأوصدا الباب ٠

في اليوم الرابع وبعدما فرغوا من تعذيبي ليلة كاملة لم يسحبوني الى الزنزانة بل تركوني ملقى على أرضية غرفة التعذيب وأغلقوا بابها ثم انصرفوا ٠ وبينما أنا في شبه غيبوبة دخل للغرفة ذلك الضابط المخاتل الذي التقيت به في اليوم الأول لاعتقالي ووقف على رأسي وهو يهز رأسه أسفا ويتمتم بعبارات : « انه أمر مؤسف أن يحدث هذا ، ولكن ماذا نفعل ازاء عنادك الذي لا مبرر له » ٠ ثم طلب مني النهوض ، وبصعوبة تمكنت من الجلوس الا أنه ساعدني وأمسك بيدي حتى استويت واقفا ، ثم أسندني الى كتفه وأخذني لمكتبه وأجلسني على مقعد وطلب لي كوبا من الشاي الا أنني رفضته ٠٠ فقدم لي سيجارة ولكنني رفضتها أيضا ٠ وعندها طلب مني مرافقته ممسكا بيدي وفتح بابا جانبيا لأجد نفسي في غرفة خالية من أي أثاث ، الا أن جدرانها كانت مليئة بصور فوتوغرافية لأشخاص مشوهين مثبتة بالأبر ، وبدأ ذلك الضابط يشير للصور الواحدة تلو الاخرى ويتحدث معي : « انظر

الى هذا الشاب الوسيم ، ان قلبي يتفطر حزنا كلما تذكرته ، فقد كان يحتل منصبا مرموقا الا أن مجموعة التخريب قد أغوته ، ومن جانبي نصحته كثيرا وقبل أن يتعرض لأي تعذيب ليعترف بأسمائهم فرفض ، وعند أول تجربة في التعذيب فارق الحياة ، وعند الكشف عليه قرر الطبيب بأنه كان مصابا بمرض القلب ٠٠ وذلك الرجل ذو اللحية الكثيفة كان بالفعل أحد رؤوس الفتنة الا أنه رفض أن يعطي أي اعتراف وكانت النتيجة أن لقي حتفه ولكني لا أنكر أنه صمد ولم يتأوه ولكن ماذا يفيد ذلك ، فقد مات وخلف وراءه أرملة شابة وثلاثة براعم ٠٠ وانظر لهذه الصورة المشوهة الوجه والعينين المفقأتين فهي لشاب رياضي كان يمارس الملاكمة ولم نكن متأكدين لانتمائه لجماعة التخريب ولكن كانت هناك شبهات تدور من حوله ، وعندما أحضرناه للاستجواب ظن نفسه في حلقة الملاكمة وبدلا من أن يتحدث بلسانه بدأ يرد بعضلاته ، وكانت النتيجة أنه فقد عينيه في اليوم الاول ثم فقد سمعه في اليوم الثاني دون أن تفيده عضلاته ، أما في اليوم الثالث فقد رحل عن الدنيا ، انه أمر مؤسف لا أدري كيف سيقابل ربه بدون عينيه فاقدا السمع والبصر » ٠ ومن الوهلة الأولى كنت قد أدركت هدفه من احضاري الى هذه الغرفة ٠ لذا ، وبينما كان الضابط مستمرا في شرح محتويات (المعرض) قاطعته قائلا :

ـ أعرف لماذا أحضرتني الى هنا ولا أريد أن أضيع وقتك الثمين ، فأنت قد تعبت معي كثيرا وكذلك جماعتك من زوار الليل الذين يظلون ساهرين معي دون أن يذوقوا النوم ، لذا أريد أن أختصر الأمر معكم لترتاحوا ، وعليه أطلب منك أن تضع نهاية لحياتي بهذا المسدس الذي تحمله تحت معطفك وبطلقة على رأسي ، وبهذا تضيفوا صورتي لهذا المعرض وترتاحوا ٠

فنظر الي مليا والشرر يتطاير من عينيه وقال :

ـ لا تتعجل فان صورتك ستكون قريبا ضمن هذا المعرض كما

وصفته • ولكن لا تظن نفسك ذكيا ، فأنت تريد أن ترتاح بطلقة واحدة وهذا لن تناله بل ستتعذب كثيرا وستتعرض للموت البطيء لليوم الذي ترحل فيه عن الدنيا وتعلق صورتك بهذه الغرفة •

ثم دفعني بعنف خارج الغرفة فسقطت على الأرض ، فطلب من الشرطي الذي كان بالباب أن يعيدني للزنزانة •

تكررت عمليات التعذيب لأيام قد تقارب الشهر ولكنها تنوعت ، فمن الضرب المبرح الى الكي بالكهرباء في مواضع حساسة من جسدي •• الى التعذيب النفسي بالشتائم المبتذلة •• ومن وضعي فوق ألواح من الثلوج وأنا عار أعاني من التجمد مع البرد القارص •• وخلع أظافر اليدين والرجلين •• ثم ربط يدي باحكام خلف ظهري والالقاء برأسي في برميل مليء بالمياه القذرة حتى أصاب بالاختناق والتقيؤ ولمرات عدة • وأثناء ذلك يطلب مني الاعتراف وأظل متمسكا بكلامي بأنني لا أعرف شيئا سوى ممارسة الهريب • وجاءت المرحلة الأخيرة من التعذيب والعذاب وكانت الوخز بالأبر الحادة في المواضع الحساسة من الجسد وعندها كنت أتمنى الموت للتخلص مما أنا فيه •• ثم وضع كمامة من البلاستيك في رأسي ويتم اغلاقها باحكام عند رقبتي بحيث لا يتسرب منها أو اليها الهواء ، وخلال دقائق كنت أصاب بالاختناق وأسقط على الأرض لأقفز ثانية الى أعلى كالمجنون وأتحرك بعنف لاتجاه غير محدد فأصطدم بالحائط وعندها أسقط ثانيا على الارض فاقد الوعي وقد تشنجت كل عضلة في جسدي وأنا أرتجف وأتخبط كالشاة المذبوحة ، فتأتي فرقة التعذيب وتحلها عن رأسي •• وأظل لوقت طويل غائبا عن الوعي ودون أن أفقه شيئا •

كانت حالتي الصحية قد تدهورت بشكل مريع ، وأصبت بهزال مخيف بحيث كنت أقف على أقدامي بصعوبة بالغة ، كما أن ملابسي أصبحت ممزقة ومتسخة بالدماء الغزيرة التي سالت عليها • ولأنني لم أستحم لما يقرب من الشهر فان القمل قد تكاثر بجسمي وبملابسي ،

ونبت شعر ذقني ليصبح أشعث .. وكانت الحمى هي رفيقي المستديم الذي لا يفارقني ليلا أو نهارا .. والجروح الكثيرة التي بجسدي لم تجد العلاج وأصبحت تنبعث منها رائحة كريهة .

في تلك الأيام فكرت بالانتحار حتى أضع نهاية لحياتي ، فقد اقتنعت بأنني سأموت بيد هؤلاء الوحوش ، واذا كان الموت مؤكدا فمن الأحسن أن يكون بيدي لا بيدهم وبالتالي أتخلص من هذه الأهوال ، الا أنني وبسرعة كنت أطرد هذه الفكرة قائلا : « ان الانتحار مسلك هروبي ، فعليك أن تقاوم وتصمد لأن غيرك سبق وان مر بهذه التجربة دون أن يقدم على الانتحار . ولا تنسى أنك قد اخترت هذا الطريق طائعا مختارا وكنت مستعدا لمواجهة الموت في سبيل تحرير بلادك . لذا من العار أن تنهار » . وعندها كنت أشعر بنوع من الارتياح النفسي .

وفي يوم من الأيام وعلى أثر مغادرتي غرفة التعذيب كنت ملقى على أرضية الزنزانة وأنا بين الحياة والموت لأنني لم أكن قادرا لا على الوقوف أو الجلوس للآلام القاتلة والجروح المختلفة والرضوض بكل أجزاء جسدي . وفتح باب الزنزانة ودخل منه شرطي يحمل الطعام ، فاقترب مني وهمس بصوت منخفض : « انني قادم من زملائك وهم يهنئونك على صمودك الرائع ، ويزفون لك بشرى سارة بأنك قد تجاوزت شتى مراحل التعذيب ، وعما قريب سيتم نقلك للسجن . وفي السجن قد تقضي شهورا أو أعواما ، لأنك سوف لا تقدم للمحاكمة حيث لا توجد أدلة مادية ضدك للادانة ، وبعدها يطلق سراحك . ولكنك لن تتعرض لمزيد من التعذيب هناك » . قال الشرطي هذه العبارات وكان ينظر الي مليا ثم أضاف من عنده بتأثر : « لا تكترث لهذه الجروح والآلام فستعالج وتبرأ » . ثم انصرف بسرعة بعد أن أغلق باب الزنزانة .

بذهاب ذلك الجندي استرجعت ما قاله لي ، وحينها شعرت بفرحة طاغية تغمرني ، وارتفعت معنوياتي بحيث لم أعد أفكر بالآلام التي كنت أحس بها . وبدون أن أدري وجدت نفسي واقفا لأتحدث بصوت

شبه مرتفع : « ان هذا الجندي الوطني يقول لا تكترث لهذه الجروح والآلام فستعالج وستبرأ • وقد قال الحقيقة لأن جراح الجسد من الممكن معالجتها بالعقاقير الطبية • ولكنه لا يدري بأن هناك جرحا عميقا في وجداني وأحاسيسي وتتألم له كل خلية في جسدي ، هذا الجرح لا يمكن معالجته بالعقاقير ، بل ان علاجه الوحيد هو طرد المحتلين الأثيوبيين واغلاق المعتقلات وغرف التعذيب والسجون وتحويلها الى مدارس وأندية رياضية واجتماعية وثقافية وفنية • ان جرحي لن يندمل ما لم تعد للانسان كرامته وتنعدم شتى وسائل الاذلال والمهانة التي تعرضت لها ويتعرض لها آخرون بشكل يومي ، انني لا أتأوه من الجروح التي في جسدي ولكن من الجرح العميق الذي في نفسي والذي قد تطول معاناتي بسببه ما دامت مسبباته قائمة • أريد مغادرة هذه الزنزانة لأضع حدا لجرحي العميق •• وفي سبيل ذلك مستعد لمواجهة تجربة التعذيب التي أمر بها الآن مرات ومرات حتى يزول جرحي نهائيا والى الأبد •• أريد مغادرة هذه الزنزانة عاجلا فجرحي أعمق من أن أصبر عليه وأنا قابع هنا » • وقد قلت العبارة الأخيرة بصوت مرتفع اهتزت له الزنزانة • وعندها شاهدت شرطيا قد أطل من النافذة الصغيرة واستفسرني « ماذا بك ؟ » فأجبته انني أتحدث الى جماعتي ، وانصرف مبتعدا وهو يهز رأسه أسفا • واعتقد أنه ذهب ليبلغ رؤسائه أن المعتقل صالح نزيل الزنزانة رقم ٤ قد أصيب بالجنون •

انتهت